حاج في الجزيرة العربية

تأليف

هاري سانت جون فيلبي

ترجمة

أ. د. عبدالقادر محمود عبدالله

مكتبة العبيكان

© مكتبة العبيكان، ١٤٢١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

فيلبي، هاري سانت جون

حاج في الجزيرة العربية / ترجمة عبد القادر محمود عبدالله .ـ الرياض

٣٥٥ص، ١٧X٢٤سم

ردمك: X-٧٥١-٢٠-٩٩٦٠

١ـ رحلات الحج ٢ـ السعودية ـ وصف رحلات

أ ـ عبدالله، عبدالقادر محمود (مترجم) ب ـ العنوان

ديوي ٣١٢٠٤، ٩١٥ ٢١/٢٧٨٦

ردمك: X-٧٥١-٢٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٧٨٦ / ٢١

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ / ٢٠٠١م

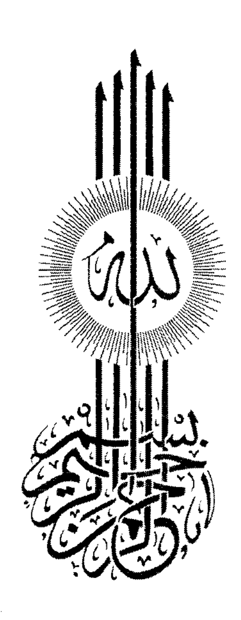
الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩



كلمة الناشر

يطيب لمكتبة العبيكان للنشر والتوزيع أن تقدم للقارئ الكريم سلسلة كتب فيلبي التاريخية ذات العلاقة بتاريخ وجغرافية المملكة العربية السعودية لأول مرة باللغة العربية، وذلك بمناسبة مرور مئة عام على استرداد الملك عبدالعزيز - رحمه الله- الرياض وبداية مسيرة التأسيس التي توجت بتوحيد المملكة العربية السعودية.

وتأتي مشاركة مكتبة العبيكان للنشر والتوزيع في هذه المناسبة إدراكاً من القائمين عليها بأهمية الدور الثقافي الذي تضطلع به دور النشر الكبرى في خدمة بلادها من خلال إبراز الجوانب المضيئة في البلاد دراسةً، وتحقيقاً، وترجمة.

ومكتبة العبيكان وهي تشارك بإصدار مجموعة منتقاة من كتب التاريخ والرحلات التي دونها فيلبي عن المملكة العربية السعودية لتؤكد أن هذا الإصدار ليس الهدف منه مجرد الاحتفال لإحياء الذكرى المئوية؛ ولكن إحياء للقيم والمبادئ التي دعا إليها المؤسس الراحل ورافقه في ذلك رجاله المخلصون، وجاهد من أجلها حتى أصبحت المملكة العربية السعودية تنعم بما أفاء الله عليها من أمن ورخاء واستقرار في جميع المجالات.

ويأتي إصدار كتب فيلبي خاصة لعدة اعتبارات أدبية، من أهمها أن فيلبي سبق له أن أقام في المملكة العربية السعودية مدة طويلة، واتصل بالملك عبدالعزيز، وقد أتاح له ذلك فرصة إشباع رغبته في الترحال والاطلاع على كثير من المناطق والمواقع الأثرية في مختلف أنحاء المملكة، وقد أفادت رحلات فيلبي وكتاباته تاريخ وجغرافية بلادنا بشكل متميز، باعتبار أنه قدم من خلال ما

كتبه وصفاً حيّاً لكثير من المواضع الجغرافية، والمواقع الأثرية، مما نتج عنه توثيق عدد كبير من مسميات المواضع في مختلف أرجاء الوطن.

ومما يميز كتب فيلبي التي سبق أن صدرت بلغتها الأصلية قبل أكثر من سبعين عاماً أنها احتوت على معلومات تاريخية وجغرافية مهمة، ومن هنا تم انتقاء مجموعة منها لترجمتها إلى اللغة العربية نظراً لأهميتها التاريخية.

كما تمتاز كتب فيلبي أيضاً بأنها تضم عدداً لا بأس به من الصور الشمسية (الفوتوغرافية) لبعض الأعلام والمدن والمعالم الجغرافية، وهذه الصور لا شك أن لها دوراً إيجابيّاً يعين على تصور بعض المعالم الجغرافية إضافة إلى بعض الجوانب الحضارية التي كانت سائدة تلك الفترة.

وسيلاحظ القارئ الكريم عندما يقرأ في كتب فيلبي أنه أمام موسوعة مختصرة لتاريخ المملكة العربية السعودية غطت حقبة زمنية مهمة حيث كتب فيلبي بأسلوبه السلس الرصين عن تاريخ المملكة، وجغرافيتها، وأعلامها، وآثارها، واقتصادها، وقد كان أثناء سياقه للأحداث العامة أو ذكرياته الخاصة لا يغيب عنه -كلما سنحت له الفرصة- إبداء إعجابه بشخصية الملك عبدالعزيز -رحمه الله- وبجهاده في توحيد البلاد، ثم إعجابه بسياسته في الارتقاء ببلاده حتى صارت دولة حديثة تحظى بتقدير العالم، وهذا الإعجاب له ما يبرره وسوف يتنبه القارئ إلى بعض مواطن هذا الإعجاب والتقدير في مواضعها من كتب فيلبي التي تمت ترجمتها في هذه السلسلة.

إن مكتبة العبيكان للنشر والتوزيع لترجو أن تكون قد قدمت بهذا الجهد -الذي تم بإشراف لجنة علمية متخصصة- جزءاً من خدمة بلادها من خلال إحياء تاريخها. ولا يسعنا إلا أن نشكر سعادة الدكتور فهد السماري على مراجعته

القيمة للكتاب والشكر موصول لكلٍّ من المراجعَيْن اللذين قاما بمراجعة الكتاب والتعليق عليه، وهما الأستاذان الفاضلان الأستاذ عبدالرحمن بن عبدالله الشقير، والأستاذ عبدالله بن محمد المنيف.

وقد حرصت المكتبة على إخراج الكتاب وترجمته إلى اللغة العربية علمًا بأن جميع الآراء والأحداث التي ذكرها المؤلف في كتبه التي تنشرها المكتبة تمثل وجهة نظر المؤلف الخاصة، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

هذا والله ولي التوفيق،،

الناشر

مكتبة العبيكان



توطئـــة

في اختيـاري المقـالات التي تكون هذا المجلد من كميـة هائلة من المادة غيـر المنشورة التي تراكمت مدة إقامتي لربع قرن في الشرق الأوسط ، فإني حصرت نفسي عمداً فيما يمكن أن يعده المرء " تاريخاً قديماً " ، من البدهي أن ما أعقبه مهم جداً ويهمنا جميعـاً اليوم . وفيما عدا حالات نادرة ، وإذا جاز التعبير ، أقحمت إقحـاماً ، فـإني ، في وقت كتابة هذه المقالات ، لم أكن أنظر إلى ما سيكون هو المستقبل وبأنها يومـاً ما سيدعم بعضها بعضـاً لتكون فصولاً من سجل شامل لتجاربي في الجزيرة العربية . وفيما عدا بعض المراجعة والتنقيح الضروريين ، فإني قد تركت هذه الفصول كما كانت حين كتبتها تحت تأثير الانطباعات الحية . وبهذا الشكل فإني آمل أن تكون مقبولة لدى القرّاء كلقطات صور سريعة التقطت في سنوات مضت ، كما لو كانت ، في رحلة ترفيه ، وحفظت في ألبوم لتذكرني " بالأيام الخالية والأزمنة التي انقضت عهودها " .

والقصة الفارسية صورة سابقة للحظة مولد نظام حكم جديد ، سقط على قارعة الطريق في وقت غير مناسب . والفصول العربية كلها تعود إلى سنة حزن - سنوات الهبوط الاقتصادي العالمي في الثلاثينيات - وتحتوي ، وإن كان ذلك عفويّاً ، على وصف للمشكلات المبكرة أثناء نمو حكم جديد استطاع منذ زمن أن يصلح أمره بأنجح هيئة . وفيما يتعلق بأي شيء لم ينوه به في هذا المقام ، فإن في هذا المجلد كثيـراً مما يفند بعض الأخطاء الجسيمة التي يبـدو أن الكتـاب والمذيعين عن الشؤون العربية عرضة لأن يقعوا فيها بصفة خاصة . وبذلك الأمل أواجه قرائي ، مع شكري لكل من ساعد في إعداد هذا العمل الصغير .

هـ . سانت . ج . ب . فيلبي



مقدمة المؤلف

إن جزيرة العرب ، وهي واقعة كما هي في التقاطع الفعلي للمصير الإنساني - في منتصف الطريق بين الشمال والجنوب ، والشرق والغرب من العالم المعمور - كانت تشاهد باستمتاع وعزلة عرض كوميديا الصراع الإنساني . فهي ، التي كانت " أرض البحر " للبابليين القدامى ، قد أصبحت ولا تزال " جزيرة العرب " - جزيرة صحراوية . إن لسانها الأصيل والقديم ، قد انغرس في أراض كثيرة ليعطينا في لغتنا (ثور) في كورنوول و(عبير) في ويلز . كما أن (إيدس) في روما تذكر المرء بكلمة " عيد " الوثنية ، التي أصبحت اسماً للأعياد والاحتفالات في الإسلام . بل إن اسم أوربا نفسه فيه صدى "عروبة" العرب ، مثلما أن الإغريق استعاروا كلمتهم (الصحراء ، التيه) من "عرمة " . بل إن مكاناً نائياً كالبرازيل لايزال يحيي ذكرى البرازين أو حصون كورتيز . وهلم جرا .

والجزيرة العربية لشهرتها القديمة بالكرم ، كانت هي التي فتحت ذراعيها للاجئين من الطوفان والفارين (من مصر) ، وحديثاً جداً ، من أوربا ، وإن لم يكن بالقدر نفسه من حسن الضيافة . لقد كانت هي التي أنجبت الديانات العظمى الثلاث ، الموحدة . فالأولين ، تعهدتهما بتسامح وثني ، أما مولودتها الأخيرة فقد احتضنتها في صدرها بكل عاطفة الأم . لقد كانت "القوة العظمى" في العالم مرتين - في أيام سبأ وفي عصر الخلفاء . لقد شهدت كل الإمبراطوريات تزدهر وتضمحل - الحيثيين والأشوريين ، بابل وفارس ، ومصر واليونان وروما : (وإمبراطوريتها) نفسها التي تعثرت في الفوضى ، التي أنجبت أعظمها جميعاً ، وما زالت مشتبكة في عراك قاتل مع التنين . لقد شهدت

ميلاد إسرائيل في معاناة مصر الفرعونية، وشهدت كيف خضع انحطاط روما في زمن أوغسطس لروح النصرانية الجديدة . لقد شهدت إمبراطورية قسطنطين وهي في زمن تدهورها تهددها إمبراطورية فارس المنافسة لها، وكيف انهارت الاثنتان معاً تحت الأنفاس الحارقة من وحيها نفسها الآتي من مكة . لقد كان آخر أنبيائها هو ذلك الذي بلَّغ العالم صورة تلك الكارثة في سورة مشهورة من القرآن: ﴿ **الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُون ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الروم: ١-٥]. فتم ذلك حقّاً . في الفترة ما بين ٦٠٨ و ٦١٩م فقدت روما كل ولاياتها الشرقية . والشيء الموثق المعلوم أن أهل تلك البلاد المذهولين نظروا إلى هذه الأحداث بعدم اكتراث تام - لقد فقدت روما مكانتها في حبهم وهيبتهم لها. ولم يكن الإمبراطور هرقل في موقف يرد به على الهجوم في ٦٢٣م، لكنه في ٦٣٠م أعاد الإمبراطورية الرومانية إلى حدودها السابقة . ثم وقعت المعجزة التي جاءت نبوءتها في الآية التي استشهدت بها . ففي عام ٦٤٢م، بعد عشر سنوات من موت محمد ﷺ، حُقَّ للمؤمنين فعلاً أن يفرحوا منتصرين، فقد قامت الإمبراطورية الفتية للعرب على أنقاض روما وفارس . لقد عاشت لقرون، ثم شاخت في ضعف وانحطاط، حتى انهارت تحت ضربات مطارق الأتراك .

إن هذه اللمحة المختصرة في الماضي ليست بغير معنى اليوم، والعالم المعمور منقسم مرة أخرى إلى معسكرات متحاربة مشتبكة في صراع إما للسيادة أو البقاء . وكما هو العهد بهم، فإن العرب متفرجون متابعون باهتمام للدراما . فقد أحيا اهتمامهم البعث الحديث نسبيّاً لإحساسهم الذاتي بقوميتهم، الذي

لايخلو من طموحات شجعتهم عليها إنجازاتهم الماضية . ولكن الجزيرة العربية كانت متأخرة منقطعة عن ركب التطور المادي الحديث ؛ وسعيها لأن تؤدي دوراً صغيراً على مسرح الحرب العظمى ، لم تحسن توجيهه أسرة من أشرف مولد لازمها سوء الطالع ، لم يجلب لها سوى الإحباط وخيبة الأمل(١) . فمن دون الأسلحة الحديثة ، بقي العرب عاجزون ، وسياسة القوى المنتصرة خلال الجيل الذي أعقب ذلك الصراع ، وبالرغم من الثورات المتفرقة ، نجحت في تقسيم العالم العربي إلى بضع دول صغيرة جداً ، ظل معظمها تحت السيطرة المباشرة أو غير المباشرة للقوى الأوربية ، التي فرضت هيمنتها على الدول الناطقة بالعربية في شمال إفريقيا ، المعتزة بثقافتها العربية الإسلامية ، من المغرب إلى السودان . وليس من المجدي التظاهر بأن العرب تسرهم ، أو قد سرتهم أبداً ، هذه السيادة للغرب على بلدانهم ، التي نجحت اثنتان منها فقط في المحافظة على استقلالهما . هاتان هما اليمن (في صراع مع السلطات البريطانية في عدن مرات ليست بالقليلة) والمملكة العربية السعودية ، التي ضمت إليها الحجاز والمنطقتين السابقتين لحائل وعسير ، وازدهرت بإدارة حكيمة وقوية من رجل سينادي به التاريخ بأنه أعظم رجل أخرجته بلاد العرب منذ النبي محمد ﷺ نفسه(٢) . لقد تولى الملك عبد العزيز بن سعود عرش آبائه قبل اثنتين وأربعين سنة(٣) كمعاصر لملكتنا نحن - الملكة فكتوريا - وبكل تأكيد إنه أحد الملوك القلائل جداً الحاكمين فعلاً ، الذين يستطيعون ادعاء هذا التميز . ولحسن حظه ،

---

(١) المقصود الأشراف الذي كانوا يحكمون الحجاز (المراجعون) .

(٢) في قول المؤلف مبالغة لا تجوز ، والملك عبدالعزيز -رحمه الله- من أعظم قادة الإصلاح في العصر الحديث ، وقد أثبت لنفسه ولبلاده مكانة مرموقة نالت تقدير الشرق والغرب . (المراجعون) .

(٣) يقصد المؤلف هنا عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م عندما تمكن الملك عبدالعزيز من استرداد الرياض وبدأ في الانطلاق نحو إعادة تأسيس المملكة العربية السعودية وتوحيد أجزائها . (المراجعون) .

وحظ شعبه، وحظنا، أن طيب علاقته ببريطانيا العظمى لم تكن موضع شك، بالرغم من تلك النسمات المتفرقة التي هبت شديدة على سطح الصلات الدبلوماسية بيننا. وكان عدد متعاقب من الإنجليز، كنت الأقل فيهم، خلال هذه العقود الأربعة، قد رعوا تلك الصداقة بإعجاب عميق بذلك الرجل، وباستثناء حالات قليلة، شجعوا ذلك الاستقلال القوي الذي كان في بعض الأحايين مصدر يأس لبعض إداراتنا الحكومية ولمعظم نواب قناصلنا في الشرق الأوسط. وبالرغم من ذلك فإن استقلاله ذلك بعينه هو الذي يجعلنا في الوضع المتميز اليوم. فلو كان لنا في الملايو أو بورما - بل في الهند أيضاً - زعيم من صنفه، أهل لثقتنا، لما تركنا الناس " عزلاً لأعدائنا ". ولكننا ينبغي علينا ألا نخطئ أبداً. فالعرب غير راضين عن سياستنا ونتائجها. ولا ابن سعود أيضاً؛ ولا ملك اليمن؛ ولا مصر، أو سوريا، أو العراق، وذلك فضلاً عن فلسطين وشرق الأردن اللذين نحكمهما فعلاً بمقتضى انتدابنا؛ ولا الدويلات الصغرى على الساحل العربي[1]. فكلها بلا استثناء تطالب بالاستقلال التام لكل الشعوب العربية، وهو مطلب متفق تماماً مع ميثاق الأطلسي. وبهذا الثمن كنا سنلقى التعاون التام من كل العرب كحلفاء من أول لحظة في هذه الحرب. ولكن الثمن لم يبد في نظر حكومتنا آنذاك مستحقاً للدفع لمنفعة كان مشكوكاً فيها. والآن قد فات الأوان، وعلينا أن نتحسر على ترددنا في النظر بعيداً أمامنا؛ ولن يخطئ المرء خطأ كبيراً إن قال إن البلد الوحيد الذي لم يسبب لنا مشكلة لحظة واحدة أو هماً أثناء هذه الحرب هو المملكة العربية السعودية، التي احترمنا استقلالها، مهما كان ترددنا في ذلك أحياناً. لقد كان علينا محاربة

---

(١) المقصود إمارات الخليج العربي التي استقلت عام ١٩٧١م وكونت كل من دولة الإمارات العربية المتحدة، ودولة البحرين، ودولة قطر. (المراجعون).

العراق وفارس؛ وكان علينا مساومة تركيا مساومات مضنية ؛ وكان علينا حبس الوطنيين السوريين للحيلولة بينهم وبين خلق المتاعب؛ وكان علينا مسايرة مصر بحذر شديد ؛ وفي الدويلات العربية الصغرى كان علينا الاحتفاظ بقوات فيها لضمان حسن سلوكها.

ولكن ابن سعود لاينبغي أن يحسب من بين حلفائنا. فهو محايد من الناحية الفعلية، ومن الناحية القانونية أيضاً، وفي حكمته التي لا يسبر غورها، متجاهل لحالة الحرب المحيطة ببلاده من كل جانب. وملك اليمن، من جهة أخرى، كان قد أعلن حياده رسمياً منذ مدة. ولما فقد الإيطاليون سيادتهم على أراضيهم عبر البحر الأحمر، طلب الملك ابن سعود من دبلوماسييهم وغيرهم من مقيميهم في جدة مغادرة البلاد تحت الحماية إلى إيطاليا. لكنه من جهة أخرى محافظ على صلاته الدبلوماسية بحكومة فيشي[1]، حيث يمثله وزير (نقل قبل عهد قريب إلى جنيف)، بينما لحكومة المارشال بيتان ممثل أيضاً في جدة ؛ كما سمح لممثل لحكومة فرنسا الحرة بزيارة جدة أثناء الحج الأخير ليرعى شئون الحجاج السوريين. وبدون أن يخسر مثقال ذرة من صداقته الطويلة مع بريطانيا، فإن ابن سعود يقود سفينته بمهارة بين صخور محيط الدبلوماسية.

إن هدفه الوحيد هو حماية مصالح الإسلام والعرب. ولن ينكر أحد أن البلاد، التي يحكمها، نعمت لجيل كامل ببركة السلم، بقدر لا نظير له في تاريخ شعبه، ويندر أن يضاهى في أي مكان آخر في العالم المضطرب في زماننا. فبالسلم نعمت بلاده بالتقدم والرفاهية. فالحج السنوي إلى مكة، وكما يشهد بذلك عشرات الألوف من الحجاج، أصبح أكثر أمناً ويسراً عن ذي

---

(١) حكومة فيشي: حكومة فرنسية متعاونة مع الاحتلال الألماني، أخذت اسمها من منتجع فيشي بجنوب فرنسا، الذي اتخذته عاصمة لها، استمرت من سنة ١٩٤٠ إلى ١٩٤٤م. (المراجعون).

قبل . وبمعاونة المعدات والآلات الصناعية الأجنبية أجبرت الصحارى العربية على تسليم كنوزها المخفية - الزيت والذهب بصفة رئيسة - بإجراءات تضمن تسخير فوائد هذه الاستثمارات لزيادة الرفاهية العربية في المقام الأول . لقد أسهمت فعلاً إسهماً كبيراً في تطوير الاتصالات في بلد واسع ، قليل السكان ، بكل ما يعني ذلك مما سيؤدي إلى إدارة أحسن كفاءة . فالسيارة ، بل والطائرة ، والبرق اللاسلكي والراديو ، والإضاءة الكهربية ، والآلات الزراعية ؛ فهذه من بين وسائل الحضارة الغربية التي أصبحت مألوفة تماماً فيما كان من قبل أرض مخاطر وقصص غرامية وهمية . ولئن لم يسمح بالسينما ، والمراقص ، وصالات القمار وغيرها من مظاهر الدعة الغربية أن تدخل المملكة العربية السعودية ، فذلك لأن ابن سعود حكيم في جيله . إن "أيام العرب" تختلف شيئاً قليلاً اليوم عن أيام الأقوام الأخرى ، ولكن ليالي العرب تحتفظ بسلمها وهدوئها القديمين ؛ وعلينا ألا نتمناها غير ذلك .

كل ذلك من صنع ابن سعود بوصفه حاكماً مطلقاً في وسط ديمقراطي ، لأن الجزيرة العربية أكثر بلدان العالم ديمقراطية . والعربي فردي من الدرجة الأولى ؛ وفي أرضه يقدس المرء ثلاثي "الحرية ، والمساواة ، والإخاء" بحماسة أشد مما عرفتها فرنسا . ولكن ، هناك يكمن الخطر . فلا أحد يقدر على الحكم في الجزيرة العربية إلا كمترجم ومنفذ لإرادة الناس . ومهم جداً أن يفهم الناس في الغرب معنى ذلك . وفيما يخص الأطراف الثلاثة ، فإن كل البلدان العربية تريد الحرية والاستقلال . فإن كنا مخلصين في تشجيعنا أيام الحرب لكل "البلدان المحبة للحرية" ، فإننا لايمكننا أن نثير اعتراضات تافهة على ذلك . لقد كانت بريطانيا العظمى ، نيابة عن كل الدول المتحالفة في الحرب العظمى في

تاريخ سابق بعيد يرجع إلى ١٩١٥م، قد وعدت كل الدول العربية بالحرية. ولكن ذلك الوعد لم ينجز أبداً. فمعظم الدول العربية لاتزال واقعة تحت سيطرة فعلية أوربية في شكل ما أو آخر. ومن الطبيعي أن يؤمل العرب في أن تثمر الحرب الحالية[١] عن تحقيق تطلعاتهم القومية للحرية. إن دعاية دول المحور تعزف على نغمة "الهند للهنود"، "مصر للمصريين"، "بلاد العرب للعرب". إن صدق هذه الدعاية يمكن الطعن فيه، ولكنها لا تخلو من التأثير. إنها تسلم من حيث المبدأ بمطلب العرب، بينما الدعاية الأمريكية والبريطانية، ولعلها لاتزال ذاكرة لوعود الحرب العظمى، تظل صامتة، مما فيه إضرار بمصالح الحلفاء. ولنحاول إذن تفهم الموقف العربي.

أولاً، لا ينكر أحد ما، له أي إلمام بالموضوع، أن الرأي العام العربي برمته بلا استثناء، ومنذ الحرب العظمى حتى اللحظة الحاضرة، معاد للأطماع الاستعمارية لكل من فرنسا وإيطاليا. ثانياً، لقد أثبتت تجربتنا أنه، وخلال الفترة نفسها قد كانت هناك ولاتزال نقاط كثيرة للخلاف بين السياسة البريطانية والطموحات العربية، يمكن إزالتها في ضوء نظرية الرئيس روزفلت عن "الحريات الأربع"، إن كانت لدينا العزيمة لتسويتها. وثالثاً، وهو المهم جداً، في واقع الأمر، ليس ثمة قضية أبداً هي موضع جدال بين بلاد العرب من جهة وألمانيا واليابان من جهة أخرى إلا الخوف من أن تطمع هاتان الدولتان، إن واتتهما الفرصة، في أن يحلاَّ محل بريطانيا في السيادة على العالم العربي. وأخيراً، وليس بأي حال من الأحوال آخراً، إن لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية سجلاً نظيفاً جداً، فيما يتعلق بالماضي والمستقبل. وإن كثيراً من

(١) أي الحرب العالمية الثانية. (المراجعون).

العرب ليذكرون، بالشكر والأمل، جهاد الرئيس ويلسون لتأمين استقلال سوريا .

وتلخيصاً للموضوع - ربما كان بين العرب عناصر قليلة يعدها المرء معادية لبريطانيا أو منحازة للمبادئ الاستبدادية، التي كانت أصلاً قد بدأت بأتاتورك قبل أن ينادي بها موسوليني أو هتلر أو فرانكو . وإن عشرة في المئة لكل واحد منهما، ستكون حسماً سخيّاً ليشمل أصحاب هذا التفكير أو ذاك . ويبقى بعد ذلك لب صلب من الشعور العربي، ٨٠ في المئة من الناس، " محب للحرية " في المقام الأول، وبالتالي " معاد لأوربا "، بمعنى أن العرب يبغضون ميل الغرب النصراني، اعتماداً منه على قوته العسكرية، إلى المطالبة بالسيطرة على البلدان المسلمة في الشرق الأوسط ونجاحه في ذلك . وليس لدى العرب بغض مزمن لشعوب أوربا، وأقلها جميعاً للبريطانيين؛ ولكنهم يطالبون لأنفسهم بحق أن يحيوا حياتهم الخاصة بهم بطرقهم الخاصة بتحرر من الخوف، وحرية العبادة وحرية الكلام . أما التحرر من الحاجة فإنهم يتضرعون إلى قوة أعظم من القوى الكبرى[١] . ففي هذا التضرع وفي هذا الطلب، يقودهم إمامهم الطبيعي، جلالة الملك عبدالعزيز بن سعود .

(١) المقصود أنهم يتضرعون إلى الله عز وجل كما يأمرهم بذلك الإسلام. (المراجعون).

الحج المكـــي

١ - الاستعدادات

بنهاية الأسبوع الثالث من أبريل ١٩٣١م، كانت قد وصلت آخر مجموعة من سفن الحج - من مصر والسودان، من المغرب وسوريا، من الهند والشرق الأقصى . لقد كان تجمعاً من عدد ضئيل مخيب للآمال، من ٤٠,٠٠٠ زائر من وراء البحار التقوا في مكة، ليتضاعف العدد في الأيام القليلة المقبلة مع قدوم حجاج جدد قادمين من نجد واليمن فضلاً عن الحجاج الحجازيين .

لقد تراوح عدد حجاج الخارج خلال السنوات الخمس السابقة مابين ٨٠,٠٠٠ و ١٢٠,٠٠٠ . ويعزى الانخفاض في ١٩٣١م أساساً إلى الكساد الاقتصادي العالمي الذي وسم ذلك العام والأعوام التالية . ففي ١٩٣٢م هبط العدد أكثر عن ذي قبل إلى ٣٠,٠٠٠، وفي العام الذي تلاه إلى مجرد ٢٠,٠٠٠ . وهذا يمثل منتهى الانخفاض، ذلك لأنه في ١٩٣٤م ارتفع عدد القادمين من الخارج إلى ٢٥,٣٧٠ . ومنذ ذلك الحين استمر العدد في تحسن بطيء لكنه مطرد حتى أعادت الحرب الحالية عقارب الساعة إلى الوراء مرة أخرى . ففي العقد السابق للحرب ربما كان معدل حجاج الخارج الذين يزورون مكة كل عام نحو ٣٥,٠٠٠ . وقبل هذه الفترة كان وفود الحجاج من الملايو والهند الشرقية الهولندية[١] وحدهما كثيراً ما يتجاوز ٥٠,٠٠٠ نفس في العام ؛ وقد كان هذا العنصر بصفة خاصة هو الذي تقلص إلى نسب ضئيلة بسبب الهبوط في أسعار السلع التي ينتجونها - السكر والمطاط خاصة .

---

(١) المقصود بها بلاد إندونيسيا وما جاورها والخاضعة في ذلك الوقت للمملكة الهولندية الاستعمارية . (المراجعون) .

لم تثبت رؤية هلال التاسع عشر من أبريل[1] في الحجاز، وكان الناس ينتظرون في قلق شديد أخبار ثبوته عند القادمين من أماكن نائية في الصحراء والجبال . ولا يمكن تحديد اليوم الرئيس للاحتفال بالحج - الوقوف عند جبل الرحمة في سهل عرفات الواسع في اليوم التاسع من الشهر القمري ذي الحجة- في غياب مثل هذه المعلومة ؛ ولم يبدد الشك إلا يوم الخميس، الثالث والعشرين من أبريل، اليوم الخامس من الشهر، بعد الشهادة الضرورية أمام الهيئات الدينية واعتمادها لها . لقد كان الهلال قد رُئِيَ فعلاً في المساء السابق للتاسع عشر من أبريل، لذا فإن اليوم التاسع من ذي الحجة سيقع في يوم الإثنين، السابع والعشرين . لذا فإنه بالإمكان إعداد العدة للخروج العظيم إلى منى وعرفات . والذين شاءوا التبكير إلى الموقع - والمتعة تحت النجوم حتى الوقوف العظيم - بدأوا التحرك خارجين من مكة بعد صلاة جمعة الرابع والعشرين[2] .

وفي تلك الأمسية نفسها بدأ الاحتفال الفعلي بالحج بحفل العشاء الملكي التقليدي في القصر، الذي كان قد دعي إليه ما بين ٦٠٠ و ٧٠٠ ضيف، من بينهم أمان الله خان، الملك السابق للأفغان، والأمير أحمد سيف الدين، حفيد السلطان عبد العزيز من بيت بني عثمان، والوزير الأفغاني لدى القاهرة وممثلون آخرون للملك الحالي لأفغانستان الملك نادر خان، والسير أ. ك. غزنوي، من

---

(١) المقصود هلال شهر ذي الحجة في ذلك العام. (المراجعون).

(٢) أعمال الحج تبدأ في اليوم الثامن من شهر ذي الحجة (يوم التروية) حيث يذهب الحجاج إلى منى ويقيمون فيها حتى صباح يوم التاسع (يوم عرفة) حيث يتجهون إلى عرفة ثم المبيت في مزدلفة ومنها ينطلقون إلى منى في اليوم العاشر. (المراجعون).

المجلس التنفيذي البنغالي، وآخرون أكثر من أن يذكروا، ممثلون تقريباً لكل قطر ومجموعة تدين بعقيدة الإسلام .

وبعد الفراغ من العشاء بالسرعة الشرقية المعروفة، تجمع الجمع الغفير في قاعة الاستقبال الفسيحة بالقصر ليستمتعوا بإلقاء الشعراء لقصائدهم الشعرية المناسبة لهذه المناسبة - شعراء الجزيرة العربية ومصر . وتلت الخطب الشعر - بالعربية والأوردية، بل وبالإنجليزية من السير أ. ك. غزنوي، الذي بدا غير مدرك، وبلا مبالاة، لعدم مناسبة الأسلوب البرلماني الأوربي ولسان الكافر في مهد الإسلام عشية أروع ذكرى سنوية للعقيدة . كان أحد الخطباء الأوردو، بالمناسبة، قد خاطبه بأمير المؤمنين، اللقب التاريخي لخلفاء الإسلام .

ثم تكلم الملك، الذي ليس في كل الجزيرة العربية، الأرض التي لا تفتقر إلى الفصاحة، من خطيب أكثر منه تمرساً في الخطابة، أو أكثر تواضعاً وبساطة في الأسلوب، ولا أثقل وزناً وأشد تأثيراً في أسلوب خطابته . إنه، لما يربو على ثلاثين سنة من مسئولية متزايدة عن رفاهية مملكة تتسع باطراد، كان دائماً مدركاً للإمامة التي صنعها وضعه الفريد . لقد كان يرتجل الحديث دائماً، بلسان قح صريح النسب من صحرائه، عازفاً بمهارة عن لغة المدارس : متكلماً دائماً من كرسيه، كما يفعل العرب، وبلا حيل خطابية، أو إشارات باليد تقريباً : إنه يهيمن على مستمعيه بالتدرج بهم نحو الذروة بتقريرات منطقية مستندة دائماً على أقوال لعلماء ثقاة من السابقين، معروفين لسامعيه مثلما أنهم معروفون لديه، ولا طعن فيهم . وكما في مثل هذه المناسبة، فإنه حين يواجهه جمهور متنوع الخبرات، معتاد على الصلات المتعددة بالعالم غير الإسلامي وحضارته

المادية، فإنه أدرى من أي شخص آخر كيف يسمو بخطابه عن مستوى منطلقه الأمور الدنيوية إلى مستوى يؤدي فيه الموروث الإسلامي المشترك دوره، بتأثير درامي حاسم . إنه، كإمام للتجمع الإسلامي الحاشد في اجتماعه العام السنوي الوحيد للاحتفال بعيد الحج الأكبر، عليه أن يعطي سامعيه شيئاً ما ملموساً ليتأملوا فيه قبل أن يعودوا لحياتهم اليومية ويغرقوا مرة أخرى في دوامة العالم الكبير الذي منه جاءوا، بينما يظل هو في موقعه مدركاً دائماً لمسئوليته نحو المصلحة العامة . وبالنسبة له، فإنه لاتهاون في الواجب نحو الله، كما أمر به الرسول ﷺ، الذي هو خليفته في كل شيء سوى الاسم[(١)] .

" إخوتي ! لاتظنوا أن هناك ما نخشاه من الكفار، الذين شاء الله في حكمته الخفية أن يجعلهم سادة على عدد كبير من بلاد الإسلام . وذلك بلا شك لابتلائنا . وفي الواقع، إنهم ليسوا من أخشى، ولكنها الانقسامات، الانقسامات السياسية والطائفية، في الإسلام نفسه . إننا منقسمون، وإن لم نجد الوحدة في عقيدتنا فإننا لن ننتصر . هذه رسالتي إليكم، إخوتي في الدين من كل العالم . فلنكن فقط في انسجام، ولن تستطيع قوة ما في العالم الانتصار علينا .

فما هي عقيدتنا ؟ فالإسلام، وبالرغم مما يقال، ليس دين ابن سعود، ولا دين الشريف، ولا دين هذه الطائفة أو تلك . إنه دين الله الذي نعتنقه جميعاً مشتركين، كما نادى به نبيه (عليه الصلاة والسلام) وطبقه أتباعه السلفيون السابقون . وفي هذا كلنا متفقون، وبعون الله الكريم، سيكون ذلك هو الدين

---

(١) الخلافة ليست بهذا الإطلاق الذي ذكره المؤلف، وإنما هي القيام بأمر المسلمين ورعاية مصالحهم، ودفع الشر عنهم، وإقامة شرائع الله في الأرض. (المراجعون).

الوحيد الذي سيمارس في هذه الأرض المقدسة ما دمت حاكماً لها . أما أفكار كل الطوائف المتضاربة فلا آبه بها ، وأطلب منكم ، أنتم قادة المجتمعات الإسلامية المختلفة ، أن تعملوا معي على رفعة العقيدة الوحيدة الحقة التي نعتقدها كلنا .

أما عن موقفي ذاتي ، فالحق ، كل من كان مع العقيدة الحقة سيجدني مستعداً لأن أكون خادمه وعونه ، ولكن من يكون عليها أو يعمل على إيذائها سيجدني ألد أعدائه . إن وضعي الحالي لم أسع إليه ، ولكني لن أتخلى عنه لأحد ، إلا لأحد أقدر مني على خدمة عقيدة أضحي من أجلها بنفسي ، وأبنائي وأسرتي وكل ما عندي - أجل ، وإن كانت في حرب مع ست مئة ألف ، عشرات الآلاف من الكفار .

ولكنهم حقيقة ليسوا الكفار ، ولكن أنفسنا وعدم وحدتنا ، من يجب علينا أن نلوم لوضعنا المهين الحالي . ومهما كان ، وفيما يتعلق بالحضارة المادية ، ألا نستطيع نحن أيضاً عمل كل ما عملوه إن عملنا بالعزيمة نفسها والطاقة ؟ هل ينهانا ديننا عن بناء المصانع ، أن نبحث في الأرض عن ثرواتها المعدنية ، أن نجني الثروات ، والمعرفة والمهارة ؟ بالتأكيد لا ، وفيما يتعلق بي فإني سأطور التقدم المادي لبلدي هذا ، بلد العرب ، ومولد الإسلام .

ولكن ، لينتصر ، على الإسلام أن يتوحد وينبذ الطوائف والانقسامات التي تؤخر تقدمه ، وتجعل شعبه فريسة سهلة للعدو . ولكننا لن نتقدم في ذلك الاتجاه عندما نجد من قادة الإسلام المعروفين ، مثل شوكت علي ، مثلاً ، ممن يتبعون سبل الكافرين بحديثه ، وكما روت عنه الصحف بأنه فعل حديثاً في فلسطين ، عن " إخوتنا اليهود ! " . إخوتنا اليهود ! لا ، ليس ذاك ، ليس ذاك

أبداً، لا ، ولا النصارى أيضاً . إن الكلام بمثل هذا معصية لله، ليس لي معها أية مساومة . اتركوا الكافر في ضلاله، واحكموا بينهم بالعدل إن كانوا تحت حكمنا، ولكن أن نعترف بأخوة معهم، لا ! فذاك لن أسمح به . لا، بالتأكيد لا، لا سمح الله !

إنه ليس بمثل هذا الترويج للأساليب الغربية يمكننا تحقيق المساواة مع الغرب . فلنفتخر بعقيدتنا، وبتقاليد الجنس العربي الذي نشر الإسلام في العالم، بشريعتنا الإسلامية وحضارتنا . فلنخلص لكل ذلك، مطورين الفنون والحرف التي سبقتنا بها أوربا والغرب . وحينئذ، وحينئذ فقط سيعيننا الله على تحقيق المساواة مع بقية العالم . ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١٣].

وهكذا؛ باختصار شديد كانت خطبة الملك في ضيوفه عشية الحج، بسيطة جداً في معالمها، مباشرة في مناشدتها، بل كخطبة الرسول نفسه والخلفاء الأولين . لقد شهد اليوم التالي خروج الحجاج، في ثياب بيض ورءوس حاسرة، في غاية النشاط إلى عرفات .

وينبغي التوضيح في هذا المقام أن على كل الناس، المؤدين للحج أو الداخلين في حدود مكة بعد أية فترة غياب طويلة عنها، خلع ملابسهم العادية وارتداء لبس الإحرام[١] . وهذا يتكون من قطعتين من القماش أو منشفتين غير مخيطتين (بيضاوين عادة) تلفان، إحداهما حول الخاصرتين والثانية حول الجزء العلوي من الجسم . ويجوز لبس الأحذية أو النعال، ولكن الرأس لايجوز أن

(١) هذا لمن يريد العمرة فقط، لكن من يتردد على مكة، أو جاء لغرض معين غير العمرة فليس ملزماً بالإحرام أو العمرة. (المراجعون).

تغطى ، إلا أنه يجوز حمل مظلة أو وقاء من الشمس إن شاء المرء . ويميل إحرام المرأة إلى التنوع حسب الجنسية . ولكنه من حيث المبدأ قطعة واحدة سابغة تخفي كل جسم المرأة وأي ملابس داخلية لها - وفي هذا ليست هناك قيود من الناحية العملية - من الرأس إلى القدم . والفتحتان الوحيدتان في هذا الغطاء هما فتحتا العينين ، اللتان يكون عليهما عادة حجاب خفيف أو نسيج . والإحرام ، متى ما لبس للحج ، لا يخلع حتى إكمال كل الشعائر المنصوص عليها ، كما سيتم توضيحه فيما بعد .

لقد كان الطريق الواسع المخترق للمدينة شرقاً والمجاور لمقبرة المعلاة القديمة والقصر الملكي في المعابدة والمفضي للمسجد الحرام ، طيلة اليوم مسرحاً لحركة لا تنتهي ، وفي ازدياد دائم وقطارات الجمال حاملة الهوادج ، أربعة أو خمسة في صف أفقي أحياناً ، تسير حاملة أثقالها ، ببطء وتقدم إلى مقصدها ، الذي يبعد نحو تسعة أو عشرة أميال . وبين صفوف هؤلاء المسافرين بهذه الكيفية كانت جماعات من الحجاج على الحمير تتخلل طريقها في خطوات أسرع ، داخلة في هذا الخليط من الدهماء وخارجة . وبالرغم من ذلك فإن في الطريق العريض مكاناً كافياً للفيالق السائرة على أقدامها ، كباراً وشباباً ، رجالاً ونساءً وأطفالاً ، وبصفة عامة في فرق حاملة رايات متعددة الألوان لتكون مناطق تجمع للجماعات المختلفة ، في الطريق وفي سهل عرفات أيضاً في آخر المطاف ، الذي بدأ يتحول إلى مدينة من الخيام . وقد أضفت هذه الرايات ومظلات المحفات لمسة من اللون البهيج على اللون البني والأبيض من كتل الأجسام والإحرامات التي كانت تسير وتكاد تكون بلا انقطاع في الطريق . وهنا وهناك تأتي مجموعة ممن وصلوا حديثاً من جهة الشرق ، حريصة على

تأدية الشعيرة الخاصة من أول دخول لمكة ، فتتصدى للنفير المتجه شرقاً بأقصى سرعة ممكنة في تلك الظروف لبلوغ الحرم ، كما يسمى المسجد الكبير في مكة . ومن حين لآخر تأتي سيارة ذات حظوة ، تحمل إذناً ممهوراً بيد الملك نفسه - لأن كل حركة السيارات في المدينة ممنوعة بالأمر خلال اليومين الأولين للخروج - تشخر أو تزخر في الزحام ، تتحسس طريقها بحذر شرقاً أو غرباً حسب الغرض من رحلة راكبيها . وكلما تقدم اليوم نحو المساء اكتظ الزحام ، من الجمال ، والحمير ، والمشاة . ثم هبطت ظلال الليل على مدينة لاتزال تفرغ المترددين عليها من الناس في سيل لا نهاية له .

٢ - الخروج إلى عرفات

استمرت حشود الحجاج بلا نقصان إلى اليوم الثاني، وهو اليوم التقليدي للخروج، ويعرف بيوم التروية. وبقي الملك وحده وحاشيته، يصرفون مهامهم اليومية حتى الساعة المحددة للتحرك التي كانت في أول الظهر، قال الملك: " إن أمر الحج هذا كالحملة ". وهكذا كان بالنسبة له. فمن كل موقع من مسرح العمليات المستمر هذا جاءته التقارير عن السير والأحداث، تنتظر أوامره أو عنايته. فربما يكون ذلك سيارة حاولت تجاوز السرعة المحددة في المدينة أو في الطريق الى عرفات، أو أن سيارة انقلبت بتهور من سائقها وكانت في حاجة لإسعاف ركابها الجرحى ؛ أو أن أحد أعضاء الأسرة المالكة، أو موظفاً كبيراً، يطلب وسيلة للمواصلات، وهكذا. وليس هناك من أمر يرى أنه أصغر من أن يحظى باهتمام الملك، الذي كان في كل الأوقات موجهاً نحو إنجاح كل شيء بقدر ما تسمح به الأحوال. وأثناء ذلك كله لم يغادر موقعه في الإدارة العامة التي وصلت مؤقتاً بخط للتلفون مع منى، نحو ثلاثة أميال، وهي الموقع المتقدم للحاج، وكان قد سبق إليه بعض أعضاء الأسرة المالكة ليلاً بالسيارة، ليقيموا في قصر كبير، لكنه بسيط، كان قد شيد قبل ذلك بشهرين، أو كان توسعة كبيرة لمبنى قديم متواضع من السنوات الخالية.

لقد كان مقرراً لي أن أركب مع الملك، ولكن، لعلة ما نتجت عن تأخر جملي، فإني قمت بالرحلة إلى منى في سيارة وزير المالية، وبذلك أتيحت لي فرصة رؤية الطريق الجديد المقرر لكل السيارات لإخلاء الطريق الرئيس للجمال والمشاة. ولم يزل الجمل النجدي نافراً من هدير السيارات، بينما كان أخوه الحجازي قد وطّن نفسه عليها منذ فترة طويلة.

إن طريق السيارات يتابع الوادي إلى الجنوب من منى، والذي فوقه العين الرائعة المبنية من الحجارة للسيدة زبيدة، على مستوى مرتفع من سفوح التلال على اليسار من الطريق الصاعد. وكانت هناك سيارة أو أكثر موحلة في البقع المتفرقة من الرمال التي على المرء المرور فيها في هذا الطريق؛ بينما كانت هناك سيارة أخرى يبدو أنها انقلبت لسرعتها الشديدة فوق الحجارة المغروزة في الرمال العميقة. وكان ركابها الجرحى جالسين مستظلين بظلها في انتظار النجدة. وفيما عدا ذلك فقد وصلنا منى بسلامة بعد استدارتنا مرة أخرى في آخر الصخور البارزة من الجبل الفاصلة بين الطريقين. لقد كان الملك بمفرده آنذاك في صالات الاستقبالات الواسعة التي بنيت حديثًا ملاصقة لقصر منى، وكانت جمال حرسه الخاص باركة حول المكان، بينما سكن بقية أعضاء الأسرة المالكة في تجمعات من الخيام وضعت تحت تصرفهم.

إن منى، التي كانت قرية مهجورة ٣٥٠ يوماً من السنة القمرية، قد بعثت للحياة فجأة. وأصبح كل بيت من بيوتها غير الكثيرة مكتظّاً بالحجاج الذين يدفعون إيجارات باهظة - تبلغ أحياناً نحو ٣٠ أو ٤٠ جنيهاً إسترلينيّاً للأيام القليلة للاحتفال. لقد تفتق واديها، الواقع بين تلالها السوداء المنخفضة، عن مدينة من الخيام، كما أن الطريق الوحيد، المخترق للقرية ووسط الوادي، كان غاصّاً بالمشاة والقوافل الماضية إلى عرفات حيث يفضل معظم الحجاج قضاء الليل، مخالفة للمذهب الحنبلي، ذلك لأن أهل نجد في معظم الأحوال يتبعون السنة فيمضون الليلة الأولى بمنى لصلوات العصر والمغرب والعشاء من ذلك اليوم، ولا يتحركون حتى طلوع الشمس بقدر رمح فوق الأفق من صباح اليوم التالي[1].

---

(١) السنة في ذلك ما روي عن الرسول ﷺ «أنه صلى بمنى خمس صلوات» وليس ذلك من الواجب بل المستحب أن يخرج محرماً من مكة يوم التروية فيصلي الظهر بمنى، ثم يقيم حتى يصلي الصلوات الخمس ويبيت بها، لأن النبي ﷺ فعل ذلك. (المراجعون).

قدمت وجبة العشاء للملك وصحبه في خيمة ضخمة قرب القصر. وبعد الأكل تجولت في المعسكر والقرية - ولم يكن أمراً سهلاً للجماعات المتحركة من الناس والجمال. وكان القمر يضفي على المنظر سحراً، فلمحت الشياطين "الثلاثة "[1] منصوبة على مسافات في القرية - كل واحد منها عمود من الحجر في سور دائري من الحجارة بأبعاد غير مرتفعة - وقد طليت بالأبيض، في تباين مع لونها الحجري، في العطلة التي كانت بعد الحج الأخير. ويبدو أن تجارة صغار التجار في منى كانت رائجة في السلع غير القيمة التي كان يشتريها الحجاج في مثل هذه المناسبة - أشياء تذكارية، مواد غذائية ومياه.

لقد أمرت بأن يوضع سريري قرب الطريق الرئيس على حافة الأرض المرتفعة المجاورة للقصر. وبينما أنا أغفو لأنام تحت النجوم بلا غطاء فوقي سوى ملابس الإحرام، مرَّ بي القطار المرعب في طريقه إلى عرفات، فضج الليل كله بهمهمة شاكية، ما بين الرغاء والخوار للجمال، وطنين السيارات. لم يكن هناك أقل من ٥٠٠ سيارة هي الأسطول المخصص لنقل الأسرة الملكية إلى وجهتها. نسائها وخدمها وأطفالها إلا طلالاً، الذي لم يتجاوز عامه الأول، وهو الابن الأصغر للملك من بين أبنائه الذين يربون على الخمسين[2].

في مثل هذه المناسبة في الشرق ليست هناك ساعات معلومة للنوم. إن كثيرين ينامون فعلاً، بما في ذلك نفسي، ولكن نومنا لم يؤثر على ما تعودناه، فقد كنت أصحو في الثالثة صباحاً لصلاة الصبح في القاعة الكبرى للاستقبالات.

---

(١) من الخطأ تسميتها بالشياطين، وإنما هي: الجمرات: العقبة الأولى -الوسطى- والكبرى. (المراجعون).

(٢) بلغ عدد أبناء الملك عبدالعزيز ٣٦ ابناً وعدد البنات ٢٧ بنتاً. انظر عبدالرحمن الرويشد. الجداول الأسرية لسلالات العائلة المالكة السعودية. (الرياض، ١٤١٩هـ)، ص٢٣. (المراجعون).

وبما أن الوقت بعد الصلاة لايزال مبكراً قبل شروق الشمس، فإن الملك، كعادته التي درج عليها، يكون غارقاً في تلاوة القرآن الكريم، بينما نحن جلوس نشرب الشاي والقهوة.

يروى عن الرسول ﷺ أنه حبب إليه ثلاث متع - النساء والطيب والطعام - وأنه كان له نصيب وافر من الأولين وفرص أقل من الثالث[1]. إن الرجل الذي يرتدي عباءته في الجزيرة العربية اليوم[2] يقر بتجربة كاملة ومعرفة بالنساء وأجمل الطيب، أما الطعام والنوم فإنه غريب عنهما. إن زهده في أول هذين رغب لضيوفه الذين عليهم الاستعجال في الأكل لينهضوا شبعى حين يغادر المائدة؛ أما النوم فإنه بالإمكان القول إن ابن سعود لايعرف شيئاً من متعه. ومن هذه الناحية فإنه عود نفسه على أدنى مقاديره، مما أصبح طبيعة فيه، ولكن ذلك لايعطيه الراحة الضرورية لعقل لايعرف السكون.

وحين بدأ ضوء النهار يخترق ضباب الوادي من وراء التلال السوداء، بدأ إنهاض الجمال الباركة أمام باب القصر. وفي لحظة ثانية كنا جميعاً على سروجها، وتحركت مجموعة الملك نحو أسفل الوادي، وسرعان ما انضمت القوافل الأخرى في موكب رهيب. لم يكن هناك أقل من ١٠٠٠٠ جمل خلف الملك ذلك الصباح، يوم الحج. وفي هدوء مع بعض الغلظة سار الموكب في الوادي كالسيل، والشمس ترتفع قليلاً قليلاً حتى بلغت ذروتها مطلة من قمم التلال على ضباب من الغبار المعلق في الجو. وبمئذنة مزدلفة الوحيدة مررنا

---

(١) ما روي عن الرسول ﷺ في هذا المجال «عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ حبب إليَّ من الدنيا: النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة» مسند الإمام أحمد ج ٣ ص١٢٨. (المراجعون).

(٢) المقصود الملك عبدالعزيز. (المراجعون).

حتى دخلنا وادي المأزمين[١] الضيق إلى بازان صهاريج المياه، حيث علقت عين زبيدة عبر الطريق. ثم جئنا إلى العمودين اللذين يحددان حرم مكة. ووراءهما تقع المنطقة المدنية، أو المحايدة، المسماة وادي عرنة[٢]، وفيها مسجد نمرة، وهو سور أبيض، بحيطانه دعامات، ولا مئذنة له. ففي هذا المكان المحايد، الذي علمت حدوده البعيدة نحو سهل عرفات بأعمدة أخرى، أنخنا أسوة بسنة الرسول ﷺ وانتظرنا حتى العصر. وكانت الخيام قد نصبت قبل وصولنا، وشرعنا في تناول إفطار خفيف لم نكن زاهدين فيه، وبعده أصبحت الغفوة، أو النوم إن أمكن، الشيء الغالب.

وأمامنا، غير بعيد، كان جبل الرحمة، أهم معالم سهل عرفات، واقفاً ظاهراً يعلوه عموده الأبيض الذي يحدد موضع مدينة الخيام التي قامت أثناء الليلة الفائتة لإيواء الحجاج. وحولنا من كل الجهات كان وادي عرنة بخيام متفرقة، بينما جماعات ضخمة من الحجاج، معظمهم أفارقة سود من أصقاع نائية، استقرت في مسجد نمرة وآباره الغنية. وبدأ النهار يحتر، مولداً حرارة في الظهيرة، ليبددها فيما بعد بنسمات خفيفة تمس في رقة أجسامنا المكسوة بالقليل من الثياب[٣] ونحن مجتمعون في الظلال الكريمة للخيام. لقد كان الماء كثيراً، بل والثلج أيضاً، من القصر الملكي.

نام الملك لمدة قصيرة، وبعد الظهر بقليل دعينا إلى خيمة الملك لتناول الغداء المكون من لحم الضأن والأرز وأشياء صغيرة أخرى، وبعدها مشينا عبر رقعة الرمال -التي كانت الآن كالنار للأقدام الحافية مما اقتضى لبس الصنادل- إلى

(١) المأزمين: طريق ضيق يدفع معه الحجاج من عرفة إلى مزدلفة. (المراجعون).

(٢) والمقصود بعبارات «المنطقة المدنية أو المحايدة» أي منطقة الحل. (المراجعون).

(٣) المقصود ثياب الإحرام. (المراجعون).

مسجد نمرة، حيث فسح لنا الجمع الغفير المنتظر الصلاة طريقاً وصلنا به إلى أماكننا قرب المنبر والمحراب.

إن صلاة الظهر[1] في مسجد نمرة، في تلك البقعة من الوادي غير الحرام، الفاصلة بين منى وعرفات، نسك مهم عند من يقتفي سنة الرسول محمد ﷺ في حجته الوحيدة[2] التي قام بها قبل وفاته بشهور. إن ساحة المسجد برواقه الضيق في جهة القبلة يوفر مكاناً واسعاً لحشد كبير من المصلين. ولكن عاماً بعد عام تتكرر المشكلة نفسها. إن عدداً ضخماً من الحجاج يتخذون أماكنهم في المسجد في ساعة مبكرة من يوم الحج، كما أن بعضهم يمضي ليلة الحج مخيمين في منطقة المسجد، وبجوارهم كل أمتعتهم وأغراضهم. لذا فإن المرء لا يجد بوصة واحدة خالية حين يأتي وقت الصلاة، فكان على الموكب الملكي، المكون من الملك، وإمام مكة[3]، والأمراء الملكيين، ووزراء الدولة والآخرين، يتقدمهم ويليهم حشد من الخدم والأتباع، أن يشقوا طريقهم شقّاً بين هذا الجمع الغفير إلى الأماكن المخصصة لهم في الرواق. لقد كانوا كالسفينة تشق طريقها بين الأعشاب في بحر سرقسطة.

تبعت الملك بمعاناة لأجد أن المكان حول المنبر مزدحم إلى درجة استحالت معه الصلاة بصورة صحيحة. فظللت واقفاً - لعدم وجود مكان للجلوس - في كتلة من البشر، في حر وعرق. استمعت إلى الخطبة. أما الصلاة التي أعقبتها فقد كانت فوق الوصف، إذ لم يكن هناك مكان للركوع بين المصلين المتلاصقين، فقد كانت جباه المصلين في صف تصطدم بأعجاز المصلين في

(١) يقصد صلاتي الظهر والعصر. (المراجعون).

(٢) المقصود «حجة الوداع». (المراجعون).

(٣) المقصود إمام المسجد الحرام. (المراجعون).

الصف الذي أمامه بدلاً من بلوغ الأرض كما هو مفروض، وفي حالة من مثل هذه الحالات جاورني في الصف رجل كان من الورع بمكان بحيث يرى أن صلاة كهذه غير مقبولة عند الله، فهمس في أذني بصوت عالٍ قائلاً إنه سيعيدها منفرداً لإرضاء نفسه.

لقد أرضيت نفسي بالاعتقاد بأن شيئاً من التكلم في الصلاة كان سيخفف كثيراً من المعاناة البدنية والزعزعة الروحية. لكن معظم المصلين كانوا منصرفين تماماً إلى سماع الخطبة. وكان قريباً مني رجل لفت نظري بإصداره صوتاً كفحيح الثعبان، بدا وكأنه يخرج من بطنه الضخم، انتهى برعشة شديدة هزت الرداء على كتفيه، وجعلته فجأة في حالة من الراحة التامة. لقد كان أداءً رائعاً حقّاً.

كان قد ألقى الخطبة الشيخ عبد الله بن حسن، شيخ أئمة مكة[1]، الذي صعد درجات المنبر البسيط في شكله، وفي يده عصا، وانطلق يشرح ببعض التفصيل أوامر الرسول ﷺ عن الحج. ومن حين لآخر كان المصلون يبكون أو يدمعون عندما يذكَّرون بحجة الوداع في ٦٣٢م - ما يكاد يكون ١٣٠٠ سنة خلت بالتحديد - وكان قريباً مني رجل هندي مسن، دخل في نوبة من التنهدات، وبدأ المرء يشعر بوحدة بينه وبين إخوته المصلين، بنوع من الجلال لمناسبة قدر لها أن تحيي في نفوس الناس قصة وحي بلغ ذروته في هذه البقعة بعينها منذ قرون طويلة خلت لإكمال الدين الذي انتشر في الفترة الفاصلة بين المناسبتين إلى أماكن نائية خارج حدود الجزيرة العربية، ليكون نوراً يهدي ملايين وملايين في آسيا وإفريقيا، بل وأوربا أيضاً.

---

(١) الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ، إمام وخطيب المسجد الحرام، عيّنه الملك عبدالعزيز سنة ١٣٤٦هـ رئيساً للقضاة، ثم أسند إليه مهمة الإشراف على الحرمين الشريفين وغيرها من المهام الشرعية، وكان خطيباً في نمرة مواسم الحج، وقد توفي عام ١٣٧٨هـ. (المراجعون).

لقد كانت هذه الخطبة، في أيام الأتراك والأشراف، وفيما يبدو تمثل جزءاً من الاحتفال بالوقوف في عرفات، تلقى من على ظهر جمل، أو من على جبل الرحمة نفسه، أو بالقرب منه، وفي وسط المحمل وغيره من المراسم ومظاهر العظمة الدنيوية التي غدت في طي النسيان الآن.

إن كلمة "محمل" المقرونة بالحج تستخدم للإشارة الى الهودج المحمول على الجمال الذي يرسل سنويّاً مع قوافل الحج من دمشق أو القاهرة من طرف سلطان تركيا أو خديوي مصر، كرمز للسيادة التي يدعيانها على المدينتين المقدستين بالحجاز - والخديوي بالطبع هو والي السلطان حتى الحرب العظمى (الأولى) - ويقال إن بداية فكرته كانت عبارة عن تلك الاستعدادات التي قامت بها الأميرة المصرية (أو التركية) لحجها، ولم تستطع إتمامه لسبب ما، فأصرت على إرسال هودجها كاملاً بما فيه من نفائس، هدية إلى الحرمين في مكة والمدينة، كبديل عن حجها. ومن ذلك التاريخ أصبح المحمل رمزاً رسميّاً لسيادة السلطان - الخليفة وواليه حتى ١٩٢٦م، حين أدى استعادة الحاكم السعودي للحجاز[١]، واتخاذه اللقب الملكي، إلى تجريد المحمل من كل معانيه - إن المحمل الشامي، الذي كان رافقه داوتي إلى الجزيرة العربية في ١٨٧٦م، كان قد توقف قبل مجيء السعوديين بمدة طويلة. وبالرغم من ذلك فإن المحمل المصري وصل في موعده إلى منى في ١٩٢٦م، أثناء الحج. وكان وصوله مصدر امتعاض السعوديين الملتزمين، مما أدى لبعض الاضطرابات، وتبادل

(١) الحجاز كان تابعاً للدولة السعودية الأولى ثم فقدته بسبب حملات والي مصر محمد علي باشا الذي أنهى حكم هذه الدولة. واستعاده الملك عبدالعزيز. (المراجعون).

لإطلاق النار[1]. وكانت هذه هي نهاية المحمل المصري، وبداية لفترة برود بين الحكومتين السعودية والمصرية. وفي نهاية الأمر سويت المسألة بما يرضي الطرفين، وكدلالة على ذلك سمح للمحمل المصري أن يزور الحجاز مرة واحدة بعد ذلك، كانت الأخيرة، ولم يسمح له بتجاوز جدة. ولاستنفاده غرضه كشهادة واضحة على تحسن العلاقات بين الحكومتين، فإنه أوقف بمبادرة من الحكومة المصرية احتراماً لمشاعر السعوديين.

وعوداً من هذه الاستطرادة إلى خطبة نمرة، فإنها تلتها صلاتا الظهر والعصر معاً، جمعاً أسوة بسنة الرسول ﷺ، وأمَّ الناس الشيخ عبد الله من مكانه أمام المحراب، أو التجويف المتجه نحو مكة. وتفرق الجمع بعد ذلك وتدفق خارجاً من المسجد. وعدنا إلى خيامنا، وهناك جاء لزيارة الملك الحجاج الهنود وغيرهم، رغبة منهم في تحية أمير المؤمنين. وقدمت لهم القهوة والطعام، وبعد الواحدة ظهراً بقليل كان الملك على سرجه مرة أخرى ومعه حرسه الشخصي متوجهين للاحتفال الختامي[2] بالوقوف في عرفات.

لقد كان الحرس الملكي في هذه المرة مكوناً تكويناً خالصاً من رجاله من نجد، نحواً من ٢٠٠ أو ٣٠٠ رجل - رجال أقوياء، تبدو عليهم الشدة، كلهم محرمون كسائر الحجاج في ثيابهم البيضاء، ولكنهم يتميزون عنهم بحملهم البنادق، وأحزمة الرصاص، والسيوف والخناجر. وفيما بعد رئي أنه من

---

(١) الدولة السعودية منذ قيامها وحتى الوقت الحاضر حريصة على تطهير شعائر الحج مما ينافيها من البدع والطقوس غير المستندة إلى القرآن والسنة. ولا شك أن حصول مثل هذه البدع أمر لا يليق بالحج ولا غيره وهو يجرح شعور كل مسلم غيور على إسلامه (المراجعون).

(٢) المقصود إتمام مناسك يوم عرفة. (المراجعون).

المناسب لهيبة الملك أن يستبدل هؤلاء بجنود " نظاميين " أعدوا بالأساليب الأوربية، ودربوا على فنون التحية العسكرية وضبط الأرجل. وأثناء الحج لابد للجنود النظاميين أيضاً من خلع ملابسهم العسكرية وارتداء ثياب الإحرام، لذا فإن الاختلاف بين النوعين لايظهر إلا للعين الفاحصة المدربة، التي تميز بسهولة بين الجندي تنشئة المدينة والتابع تنشئة البادية. وبالرغم من ذلك، ومن وجود الحرس الرسمي المرافق للملك، فإن الحرس القديم لم ينحل، لوجوده دائماً في مكان ما قريباً من مكان الملك، لحمايته من كل سوء.

إن جبل الرحمة، وأهم سماته تل منخفض من الجرانيت من ١٠٠ إلى ١٥٠ قدماً في الارتفاع وعمود أبيض يعلوه، في واقع الأمر سلسلة من ثلاث قمم، تنحدر سفوحه المغطاة في حقة في شبه دائرة تحيط بها من الخارج عين زبيدة المبنية من الحجارة. وخارج المنطقة الجبلية هذه، جنوباً وغرباً، سهل عرفات، بمدينته المؤقتة من الخيام. وكل هذه المنطقة، حتى حدود وادي عرنة منطقة وقوف، ولكن كتلة منخفضة من الصخور على الجانب الجنوبي من الساحة الموصوفة أعلاه يعتقد أنها البقعة التي وقف فيها النبي ﷺ يوم عرفة بمناسبة حجة الوداع. لذا فهنا الموقف التقليدي لأهل نجد، وفي هذا الفضاء اجتمعوا في آلافهم وعشرات آلافهم منذ الساعة الثانية بعد الظهر، حتى جاء الملك واتخذ موقعه ومعه جماعته براياتهم السعودية الخضراء ترفرف وسطهم. وظل كل رجل منهم راكباً على جمله متجهاً، لا نحو الجبل (وهو شيء إلى حد ما مباح)، وإنما تجاه القبلة، الكعبة في مكة. وكانت بين الجموع أيضاً الهوادج المغطاة للنساء، محجوبة عن عيون الرجال. وفي لباس الإحرام البسيط، بلا مظلة تفسد المنظر (بينما كانت شيئاً مألوفاً بين العناصر غير النجدية في

السهل) ظلت المجموعة الضخمة طيلة العصر من الثانية بعد الظهر إلى مغرب الشمس تدعو الأدعية المأثورة لهذه المناسبة، دعاء متصلاً لا نهاية له بالعفو من الله وغفران الذنوب. وعلى رأس المجموعة النجدية، عاري الرأس كالآخرين، وقف الملك، بجانبيه إخوانه وأبناؤه، يقرأون في "كتاب الكلمات" الذي نشره لإرشاد الحشد[1].

وفي الأماكن الأخرى من السهل الواسع، التي انتهزت الفرصة لزيارتها في العصر، كان هناك جو أشبه بالاحتفال. فقد آثر بعض الناس البقاء في خيامهم على مواجهة أشعة الشمس الساقطة - إنها شديدة الحرارة في تلك الظروف بالرغم من هبوب نسمة باردة جافة خففت كثيراً من شدة التعب وإن كان ذلك في الفضاء. وكان الناس، الأفقر حالاً، قد جاءوا معهم بسعف النخيل، وغطوها بالأكياس الفارغة يستظلون بها، بينما كان الزنوج من إفريقيا متجمعين في طرفي الجبل وبمحاذاة عين زبيدة، ومنها حصلوا على الماء لشرابهم ووضوئهم.

إن هذا العنصر الإفريقي، المعروفين بلفظة عامة هي "تكروني" جمعها "تكارنة" وإن شملوا قبائل مختلفة من القارة السوداء - بعيدة بعضها عن بعض كما بين السودان ونيجيريا - مثير جداً. فالتكارنة، بطبيعة الحال، كلهم مسلمون، لكنهم يحتفظون ببقايا غريبة من محظوراتهم وعاداتهم. ففي مرة من المرات، على سبيل المثال، مررت بمجموعة من النساء يحفرن بعناية

---

(١) ربما أن المؤلف يقصد كتاب «تحفة الناسك بأحكام المناسك» لسليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، الذي طبع أول مرة على نفقة الملك عبدالعزيز في مطبعة أم القرى في ١٧ شوال ١٣٤٣هـ وأعيد طباعته سنة ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م وهي السنة التي حج فيها المؤلف. (المراجعون).

حفراً غير عميقة في الرمال ليدفن فيها خصلات من شعرهن مما كان يتقطع بالتمشيط، وربما كان حصيلة أسابيع أو شهور - ربما كان ذلك اعتقاداً خرافيّاً منهن بأن دفن شعرهن في الأرض المقدسة يهبهن متعة المحبة الدائمة. ثم أثناء فترة الوقوف، نحو منتصف العصر، شاهدت موكباً منظماً من بضع مئات من أولئك الأفارقة، يخترق مدينة الخيام باتجاه جبل الرحمة، حيث توقفوا في مستوياته الدنيا، في صفوف متلاصقة، يترنمون بأدعيتهم الخاصة في سرعة فائقة. وربما كانوا في العهود السابقة يفعلون ذلك على قمة الجبل، التي حيل بينهم وبينها الآن في ظل الحكم السعودي[1]، الذي ينهى عن أداء مثل هذه الأشياء، بصفة عامة. ولتنفيذ النهي، فإن الحرس قد اصطفوا حول الجبل، وفي منتصف ارتفاعه. ولكن في مرة من المرات لمحت رجلاً، يبدو أنه زعيم من زعمائهم الدينيين أفلت من الحصار ووقف على رأس جبل الرحمة -قريباً من العمود- وأخذ يلوح بيديه كأنه يقود فرقة تنشد شيئاً ما أو يلقي خطبة، وقد تعذر سماع أي شيء منها بسبب ضجيج الناس، وسرعان ما تنبه الحراس لوجوده في المنطقة المحرمة، ثم اختفى فجأة ولا أدري كيف، وأين.

إن معظم هؤلاء التكارنة يمضون سنوات في رحلتهم من ديارهم إلى مكة؛ وبصفة عامة، فإنهم يعملون أثناء الطريق مخترقين القارة الإفريقية، وأحايين كثيرة يقضون بضع سنوات في مزارع القطن بالسودان. وفي مرة لقيت رجلاً وزوجته، كانا قد بدآ رحلتهما ومعهما طفل واحد، فأصبحوا أسرة من ستة بعد انتهاء الحج - وكانت رحلتهم آنذاك قد استغرفت أربع عشرة سنة. لكن أوقر من لقيته من الحجاج التكارنة كان رجلاً عجوزاً قوي البنية، ادعى أن عمره

(١) كان هناك كثير من الأمور البدعية التي يقوم بها الحجاج جهلاً منهم، وقد منعت الدولة السعودية الكثير من هذه الأمور والأعمال البدعية التي تتنافى مع السنة المطهرة بناء على ما قرره علماء الشرع. (المراجعون).

١٢٠ سنة، وأنه قضى ما لا يقل عن سبعين سنة في الطريق من لاغوس إلى جدة، حيث لقيته في ١٩٣٠م. لقد أمضى عمره كله في دراسة الدين والفلسفة الإسلامية، وشملت رحلته الطويلة إقامات طويلة أيضاً في المراكز العلمية المختلفة التي كانت في طريقه. وبعد مساءلة دقيقة استخرجت منه معلومة مثيرة، هي أنه كان في الخرطوم حين قتل جوردن باشا بأيدي قوات المهدي.

وبصفة عامة كان هناك خلو لافت للنظر من أي برنامج رسمي للأحداث في عرفات. لقد كان الناس أحراراً في فعل ما راق لهم، ما داموا قد خيموا في الوادي في الساعات المفروضة عملاً وأداءً للركن المعروف باسم " الوقوف ".

لقد كان للجماعة المصرية طقسها الخاص بها، كما يتوقع المرء. فخلال تجوالي لحظت تجمعاً كبيراً من رجال ونساء - الواضح أنهم فرقة من نوع ما - اصطفوا في صفوف خلف منشد لهم، مديرين ظهورهم لمكة ووجوههم لجبل الرحمة، وهم يرددون في وحدة تامة العبارات التي ينشدها رئيسهم ويلوحون بمناديلهم نحو جبل الرحمة. من الواضح أن هذا أحد الطقوس الموروثة من زمن المحمل. ولم يأبه أحد بما كانوا يفعلون، ذلك لأن فيالق السعوديين - وهم فيالق فعلاً - كانت على الجانب الآخر من الجبل، بعيدين جداً عن الأعين. وفي الأماكن الأخرى واصلت الجموع الواقفة عبادتها في مجموعات من عشرين أو ثلاثين شخصاً في خيمها الكبيرة أو مظلاتها، أو جلست تشرب الشاي، أو تنام خلال ساعات العناء حتى الغروب.

لعل الوقوف بعرفات أيام الأتراك والأشراف كان مختلفاً تماماً، حين كان الوقوف في شكل شعيرة منظمة، تتخلل الخطبة طلقات المدافع أو أشياء أخرى. أما الآن فما على المرء إلا أن يتجه إلى مكة ليدرك أن روحاً جديدة قد

دخلت في الوقـوف على عـرفـات - هي إيمان بالغـرض الأسـاسي من الحج وبالواجب الإنساني بالخضوع والصبر، وهما الوحيدان اللذان يجعلانه مقبولاً عند الله[1].

وفي آخر المطاف، قللت الشمس من شدتها ببطء، وهي تميل نحو الغروب خلف جبل ثور، قبالة مكة. لقد مال قرص الشمس حتى اختفى وراء خط الجبال السود، فهدأ الدعاء في صمت محسوس، أعقبته حركة خفيفة. وما أن غربت الشمس، حتى بدأ الموكب العظيم في لحظة بالتحرك للعودة. وحسبما أذكر، فما من كاتب وصف النفرة من عرفات. فعندما تحركت في ركب الملك، وأدرت لحاظي في المنظر، كان منظر الجمال هو الذي راعني. ففي الوادي الفسيح كله، الذي غدا في حركة مفاجئة نحو مكة، كانت صفوف الجمال وفيالقها هي التي استرعت انتباهي. لابد وأن كان هنالك ما لايقل عن ٥٠٠٠٠ منها، كلها سائرة للأمام في خطواتها السريعة الصامتة التي تميزت بها وسيلة النقل الرئيسة في الجزيرة العربية. لقد كان منظراً طيباً حقّاً. وما أن ازداد الغسق، وارتفع الغبار من حفيف الأخفاف حتى بدأت فيالقنا تفقد واقعيتها وتبدو كأنها جنود من البشائر السماوية، تتحرك بصمت وخفية، في الضوء الخافت المعلق الآتي من القمر فوقنا، ومعه المريخ والمشتري أمامنا، وفي ذيليهما الشعرى اليمانية ومنكب الجوزاء والعَيّوق.

وبالرغم من ضوء القمر لقد استحال علينا رؤية أي شيء بوضوح في ذلك الضباب المتحرك، وأجسام الرجال متشحة بالبياض قابعة على ركائبها

(١) الحج له أركان وواجبات ومسنونات من قام بها على الوجه الشرعي فيرجى له القبول من الله وهو أمر غيبي لا يعلمه إلا الله حتى لا يتكل الناس على أعمالهم. (المراجعون).

العملاقة. وتجاوزنا أعشاباً قصيرة وأشجار السَّلم ذات الشوك. وحين ضاق الوادي بين التلال المسودة، مررنا بسرعة بالجمال حاملة الهوادج، ومجموعات من المشاة، رجالاً ونساءً - بل إن بعض المجموعات كانت جالسة، ترتاح على الأرض كأنها على يقين من أن هذا الحشد السماوي سيمر فوقها من غير أذى. لقد كان مدهشاً جدّاً، ونحن لانكاد نرى شيئاً، أن تتحاشى الجمال بفطرتها كل العقبات التي في طريقها، بشرية كانت تلك أم غير ذلك، والتي سرعان ما خلفتها جحافلنا وراءها.



٣ - العودة إلى مكة

وبعد تجاوزنا الأعمدة الحجرية المحددة لحرم مكة، صعدنا الوادي مروراً بممر المأزمين. وهناك انفجر أمامنا منظر سحري، لمدينة ضخمة بآلاف من الأنوار، وأقواسها المضاءة في صفوف منظمة، والفوانيس الصغيرة معلقة فوق الأعمدة. لم يكن لهذه المدينة أثر من قبل عندما مررنا في الصباح. لقد نبتت فجأة في الوادي منذ الغسق. لقد كانت مزدلفة، حيث علينا أن نقضي الليل أسوة بالنبي ﷺ. واتجهت جماعة الملك إلى الجانب الأيسر من الوادي وتوقفت فوق سفح من الرمل غير بعيد عن المئذنة التي لم يكن معها مسجد. لقد أدخلت السيارات عنصراً من عدم الانتظام في المنظر العام كما أقلقت الناس في المساء، ولكن، فيما يبدو لم تقع حوادث. وبعد ذلك بقليل أسكنت الأسرة المالكة في الخيام المعدة لها.

لقد غدت السيارات عنصراً متزايداً في مناظر الحج. ففي الوقت الذي أكتب فيه، كان استخدام السيارات امتيازاً خاصّاً للأسرة الملكية والموظفين الكبار في المهام الرسمية[١]. ولكن في ١٩٥٥م رخص لدائرة أوسع من الناس، ثم في السنة التالية لها، رفعت كل القيود، وبلغ عدد السيارات المشاركة في الحج ٤٠٠ سيارة. ومنذ ذلك التاريخ كان عدد السيارات في تزايد مطرد، ولم تعد للحجاج الأجانب القادرين على هذا الترف أية حجة للشكوى، فيما يتعلق بالراحة.

لقد كانت همهمة الجمال في كل مكان، وكذلك نداءات الرجال لأصحابهم المفقودين - فرقة موسيقية حقيقية متنافرة الأنغام.

---

(١) كان هذا نتيجة لندرة السيارات في المنطقة في ذلك الوقت، وعدم قدرة معظم الناس آنذاك على تأمينها اقتصادياً، ولم يكن هناك ما أشار إليه المؤلف من وجود امتياز للأسرة المالكة والموظفين. (المراجعون).

إنه لأمر محير لي فعلاً أن يتمكن أي فرد ما أن يعثر على رفيقه في مدينة الليلة هذه التي نبتت فجأة كالفطر، التي لم يرها المرء نهار الأمس ولن يراها نهار الغد، لأننا سنغادرها فجراً قبل شروق الشمس.

والملك نفسه عسكر في الفضاء على أبسطة فرشت على المنحدر الرملي. وفي الوقت المحدد جيء بلحم الضأن والأرز على بضع صوانٍ ضخمة نشرت على بساط طويل لمتعتنا. فأكلنا بشهوة، وأكل بعدنا مرافقو الملك؛ ثم أمر الملك مساعديه بالذهاب لدعوة المشاة من الحجاج، فجاءوا بالمئات، جائعين ومتلهفين، ليأكلوا من مائدة الملك. كما رأيت بعضهم في حالات كثيرة يلفون في ثيابهم المتسخة بعضاً من الزاد للغد، ثم انصرفوا من حيث أتوا ببطون ممتلئة ودعوات عالية، ثم نمنا.

صحوت مرة ثانية فيما يبدو أنه كان منتصف الليل على أصوات محركات السيارات ورغاء الجمال. لقد كان الملك على بعد خطوات، غارقاً في تلاوته. وبعد ذلك بقليل، وإن كنت لا أزال مثقلاً بالنعاس، فإننا اصطففنا لصلاة الفجر، في نحو الثالثة صباحاً. ثم ركبنا وتوجهنا إلى مئذنة مزدلفة، حيث توقفنا، ونحن لانزال ركوباً، مصطفين لشعيرة من الدعاء والشكر بما هو مأثور عن النبي ﷺ حين يبلغ المرء هذا المكان في طريق العودة. لقد كانت تتدلى من المئذنة أنوار مقوسة ضخمة، وجماعة من الحجاج تبدو وكأنها ملتفة حولها وعلى البرج المجاور لها. كما كان آخرون يبحثون فوق رمال الوادي، وادي محسر، عن الحصيات التسع والأربعين، الواحدة منها أكبر من حجم البندقة، الضرورية لرمي " الجمرات ". وبهذه المناسبة، فإننا جمعنا حصياتنا من مكاننا الذي بتنا فيه - ويبدو أنه يجوز جمعها من أي مكان مما جاور مزدلفة، وإن كان وادي محسر هو المكان المنصوص عليه في الأثر - وصررناها بشدة في أركان إحراماتنا. وفيما بعد لاحظت كثيراً من الحجاج في منى يبحثون في الشوارع عن الحصى المطلوب

دون إدراك منهم للمغزى الحقيقي لجمع الحصيات من مزدلفة[١]. ويمكن للمرء فوراً أن يتخيل كيف أن ٥٠,٠٠٠ حاج يقذف كل واحد منهم تسعاً وأربعين حصاة في الجمرات -وسيتضح معنى ذلك فيما بعد- فقد أثروا تلال الحصى في منى التي ستنمو خلال قرون لتكون أكواماً بأحجام ضخمة، وبعض الناس يزعمون أن هذه الحجارة تختفي فور انتهاء موسم الحج[٢].

وبينما بدأ ضوء النهار يسطع علينا ببطء، أزيلت الأقواس المضاءة، وبعد انتهاء دعواتنا، واصلنا سيرنا صاعدين الوادي نحو منى. وهنا أو هناك كانت جمالنا تجفل فجأة عن شيء ما في الطريق، يثبت أنه جمل كان قد سقط ومات على جانب الطريق. كما لمحت مرة نقالة عليها شخص مريض أو جريح محمول. ولكني أقرر هنا بأنه خلال كل موسم الحج وإلى هذه النقطة، بل حتى عودتي الى مكة، لم أر أية علامة أخرى لأية إصابة في ذلك الحشد الضخم - ربما كان ١٠٠٠٠٠ حاج في المجموع.

وبخروجنا من تلك الحشود التي كانت قد خفت رويداً رويداً جئنا إلى منى، حيث استبدل الملك جمله بحصان فوراً، وواصل سيره صاعداً شارع منى إلى العقبة للرمي الواجب "للشيطان الأكبر"[٣].

كان معظم الناس قد نزلوا من دوابهم ليتبعوه، ولكني فعلت ذلك على جملي، الذي لم أتركه إلا بعد أن بلغ الزحام مداه وقاربنا غايتنا. وبعد أن أكملت ما تبقى من المسافة سيراً على الأقدام وصلت العقبة لأجد زحاماً رهيباً

---

(١) الصحيح أنه يمكن جمع حصى الجمار من أي مكان من مزدلفة، ومن منى أيضاً. (المراجعون).

(٢) هذه خرافة لا أساس لها من الصحة، والواقع أن الحصى التي يرمى بها تُجمع ثم تُفرق في أماكن مختلفة، وبعضها يبقى في مكانه. (المراجعون).

(٣) يقصد المؤلف العقبة الكبرى. إحدى جمرات العقبة، وقد تكررت تسمية الجمرات بالشياطين وهو خطأ، فيلاحظ ذلك. (المراجعون).

قد تجمع أسفلها، يرمونه بالحصى التي كانوا قد جاءوا بها من مزدلفة، سبع حصيات في هذه المرة. لقد كان الناس فيما يشبه النوبة وقد شغلوا أيديهم بهذه العملية الممتعة، وشفاههم تتحرك بعبارات اللعن[1]. لقد كان من المستحيل الاقتراب كثيراً لرمي حصياتي على ذلك الشيء. وربما استقرت حصياتي على الرءوس التي لم تحس بوقعها، لأولئك الذين كانوا أمامي.

حتى تلك اللحظة لقد كان ذلك هو نهاية الشعيرة بالنسبة لي، إذ وجدت الأمير عبدالله، أخا الملك، في سيارته عائداً إلى مكة للركن التالي من الحج، وكنت محظوظاً لأجد لي مكاناً معه. وفي أقل من نصف ساعة كنت في بيتي نفسه أستمتع بفطور خفيف قبل مواجهة الشعائر المكية التي ستكتمل وتثبت بها حجتي. إن الشروط الأساسية للحج هي:

(١) الإحرام، الذي كنت قد فعلته قبل نحو ست وثلاثين ساعة.

(٢) الوقوف بعرفات، الذي كان قد تم بسلام.

(٣) رمي "جمرة العقبة الكبرى" فوراً بعد العودة من عرفات، والذهاب إلى مكة للطواف والسعي والحلق أو التقصير وقص شعر الرأس.

وبعد إكمال الحاج الشعائر الثلاث من الشرط الثالث، يرتدي الحاج ملابسه العادية ويتحلل نهائيّاً من كل شروط الإحرام. وبإتمامه الشرطين الأولين فقط (تاركاً الثالث لفترة لاحقة) يمكنه التحلل أيضاً من لوازم الإحرام فيما عدا الجماع، لأنه لايكون إلا بعد إكمال الشرط الثالث. لذا فإن أولئك الذين لاتصحبهم نساؤهم فإنهم يؤخرون شعائر مكة حتى انتهاء أيام منى الثلاثة.

(١) ليس هذا من الحج في شيء، وإنما الوارد هو التكبير مع رمي كل حصاة. (المراجعون).

٤ - الشعائر بمكة

بالرغم من أن الساعة لم تكن قد تجاوزت السادسة صباحاً بقليل فإن الشارع الرئيس كان يفيض بالحجاج العائدين، الذين لابد أنهم قد حذفوا مرحلة مزدلفة وسافروا، على ظهور الجمال أو راجلين، طيلة الليل ليصلوا هنا في الوقت المناسب(١). لقد كان الحرم مزدحماً، والمسعى، الذي يقاطعه الشارع الرئيس بميلان، كان مكتظاً بالناس الذين كانوا يعدون، أو يمشون، يتدافعون ويدعون، بهذه الطريقة أو بأخرى.

بعد أن أنعشت نفسي واسترحت لمدة من الزمن عدت بالسيارة للحرم بعد السابعة صباحاً بقليل لأتم الطواف والسعي قبل ارتفاع الشمس ارتفاعاً تحرُّ به الأشياء. واقتربت من باب إبراهيم، الباب الرئيس من الجانب الجنوبي للمسجد الحرام، ودخلت في مجموعة من المتسولين، الذين كانوا يلحون في الدعاء لي بقبول حجتي، ومقابل ذلك يأخذون الفلوس القليلة التي أعطيتهم بلا سرور.

وفي مكان آخر كانت حمامة من حمامات المسجد قد سقطت وبقيت بدمائها عند مدخل الباب، وهو منظر نادر، بينما كان الآلاف من أخواتها في سيرها اليومي الذي لا ينقطع من الحركة.

وبادرني بالكلام أحد السوريين، الذي كان موظفاً لدى نظام حيدر آباد الدكن، مستفسراً عن إمكانية الحصول على سفينة مبكرة إلى مصر، ثم شرع يشرح لي فكرته عن انقسام العالم إلى حزبين، حزب الله وحزب الشيطان. ولمحت في بطاقته المطبوعة التي قدمها لي، معبراً عن رغبته الشديدة في مناقشة هذا الموضوع معي بالتفصيل، أن صاحبي كان المؤسس (وربما كان رئيس

---

(١) لعل المقصود بهم الذين يسقط عنهم المبيت بمزدلفة من السقاة والمرضى والعاجزين. (المراجعون).

الوزراء) للأول، وذلك بالرغم مما علمته، ولدهشتي، أن الثاني -في رأيه- لن يخلو من عنصر مسلم !

وعلى أي حال، فإن تفكيري تاه في أشياء أخرى فخلصت نفسي وبما أمكنني من التأدب من صحبته ومضيت في شأني. وكانت أمامي الكعبة المعظمة (أشرف بقع المسجد) شبه كاسية.

إن من بين هدايا المسجد الحرام بمكة، التي كان يأتي بها المحمل المصري، كانت الكسوة، السوداء المطرزة بالحرير، المفصلة على حجم الكعبة المشرفة، ولتتدلى من سقفها. ففي كل عام، وفي اليوم التالي ليوم الحج تحل الكسوة الجديدة محل سابقتها، التي تصبح مكافأة لسادن الكعبة، الذي يقطعها إلى مربعات صغيرة تباع بيعاً مجزياً للحجاج. وبالكسوة فتحتان تناسبان الحجر الأسود والحجر اليماني[1]، المبنيين في موضعيهما من ركني الكعبة، بارتفاع مستوى الصدر، ويظلان مكشوفين دائماً. والأول منهما، ويعتقد أنه نيزكي، أقدس رموز الإسلام[2]، له تاريخ يرجع إلى إبراهيم، يقبله أو يحييه كل من يؤدي الطواف بالبيت. إنه محاط بإطار بيضوي من الفضة الخالصة، قد غدا سطحه ناعماً من أثر التقبيل الكثير خلال القرون.

والركن اليماني قطعة من الصخر مكسورة أصلحت، لايبدو أنه يعرف عن تاريخه شيء، يلمسه الحاج بيده كلما مر به في طوافه. وللكسوة فتحة ثالثة تناسب مدخل الكعبة المشرفة، ولكنها لها غطاء من المادة نفسها مطرزة بالحروف ومزينة بالذهب والفضة، يمكن طيه إلى أعلى حين يفتح الباب

(١) يعرف بالركن اليماني. (المراجعون).

(٢) لا يعد الحجر الأسود أقدس رموز الإسلام، بل إن الإسلام دين واضح لا رموز فيه. (المراجعون).

لدخول الحجاج. إن ما بداخل "بيت الله"، الذي كان مستودع الكنوز الغالية - الهدايا القيمة من الملوك والأمراء- بسيط ليس به ما يثير المرء. ومنذ الخلاف بين الحكومتين السعودية والمصرية، الذي كان قد أشير إليه سابقاً، فإن مصنعاً خاصّاً شيد في مكة لعمل الكسوة. ولكن بعد الصلح بين الحكومة المصرية والحكومة السعودية، عادت مصر لصناعة الكسوة للكعبة المشرّفة بمكة[1].

لقد كان العمال قد طووا من كسوة العام الماضي، البادية عليها آثار الجو والمطر، بضعة أمتار، مما كشف حجارة البازلت الصلبة التي بنيت منها الكعبة، وهي قطع من الحجارة مربعة، بأحجام غير متساوية، ملتصقة بعضها بالبعض بملاط رمادي اللون. إن الإطار الفضي للحجر الأسود برز مكشوفاً عن الركن كما لو كانت تلك الفتحة في صدر السفينة التي تدخل فيها المرساة؛ وعلى الجانب الشرقي من الكعبة المشرفة، ما بين هذا الركن (في الشرق) والحجر اليماني، في الجنوب، كانت الكسوة الجديدة، المصنوعة في مصنع مكة، تدليها مجموعة من العمال واقفين على السطح، لتحل محل الكسوة القديمة. فكانت في لونها الأزرق الأسود اللامع من المخمل الحريري، بشريط ذهبي من الكتابة العربية لبعض الآيات القرآنية على نحو ثلثي ارتفاعها من الأرض، مناقضة تماماً للكسوة السابقة المتعرية المتدلية من الجوانب الثلاثة الأخرى، والتي كان العمال يجدُّون في إزالتها بما وسعهم من سرعة. وبينما أنا أراقب ذلك الأمر، أنزلت الطية الضخمة للكسوة الجديدة على الجانب الرئيس (الشمالي الشرقي) من الكعبة بسرعة هائلة لتغطي بثوبها أولئك الحجاج الذين كانوا يلحون في الدعاء متعلقين بعتبة الباب

(١) أنشأ الملك عبدالعزيز معملاً خاصاً بالكسوة في مكة المكرمة وعين الشيخ عبدالرحمن مظهر مديراً له، وتمكن المعمل الجديد من حياكة الكسوة لموسم حج عام ١٣٤٦هـ رغم ضيق الوقت واستمر في عمله إلى اليوم مع التطوير والتحسين. واستقبلت المملكة الكسوة من مصر بعد عودة العلاقات معها في عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م لمدة قصيرة للدلالة على حسن العلاقات بين البلدين بينما واصل معمل الكسوة بمكة حياكة الكسوة. (المراجعون).

المفضض الضخم، الذي كان مفتوحاً آنذاك وبحراسة آل شيبة - وهم حملة مفتاح الكعبة بأمر الشارع[1] - وعندما تسدل جوانب الكسوة الأربعة يتوثق العمال من حسن كسائها للكعبة ويوثقونها بعضها ببعض، وهم على منصة خشبية دليت من السقف برافعة وبكرات. وآخر عمل يقام به هو تغطية باب الكعبة بالستار الثمين، المصنوع من الحرير والمطرز بخيوط من الذهب.

لقد كان عليّ آنذاك أن أطوف، سبعة أشواط حول الكعبة، بدءاً بتقبيل الحجر الأسود أو تحيته "بسم الله، الله أكبر". وقد وقف شرطيان، في لباسهما الرسمي، هناك لتنظيم الضغط المتزايد وتسيير الحركة. ولكي يتمكنا من ذلك كان لابد لهما من استخدام نفوذهما بحرية تامة. لقد كان المنظر حول هذا المكان -أقدس بقاع العالم الإسلامي- منظر اجتماع عظيم، إنه تنظيم انفردت به المبادئ الأساسية للإسلام، فهو وإن كان ديانة ديمقراطية واشتراكية بطبعه[2]، فإنه ينص على الفردية ويغرسها في النفس التي تجعل الذات الفردية في بعض الأوقات - وفي تلك الأوقات فقط - هي الأهم، فوق نداء المجتمع، والعرق، بل والأسرة. فكل مسلم، رجل، أو امرأة، أو طفل، مكلف شخصيّاً بالعمل لما يحقق خلاصه بأي ثمن. وذلك يعني، ليس مسئوليته فحسب وإنما الأعمال الواجب عليه القيام بها بصرف النظر عن نتائج ذلك عليه أو على الآخرين. إن حق الملك، أو الوطن، أو الأسرة يترك جانباً حينما يتعارض مع حق الله. فهؤلاء قد يعاقبون الفردية الضارة بمصالحهم، ولكنهم لاينقذون من النار. فهذه لابد من تجنبها بأي ثمن، ولا يمكن تجنبها -ولا يكون ذلك إلا برحمة الله - إلا بإخلاص فردي لله العظيم. إن المبدأ يحتوي على

(١) هذه من التنظيمات التي كانت موجودة في مكة المكرمة منذ الجاهلية وقد أقرها الرسول ﷺ. (المراجعون).

(٢) هذه من المصطلحات الحديثة ولا يمكن وصف الإسلام بها لأنه أعم وأشمل في مفهومه وأحكامه من كل التنظيمات البشرية. (المراجعون).

أعلى درجات الوطنية التي عرفها العالم ؛ فالمرء يدعو للهداية حين يكون عليه الاختيار بين شريعة الله - الحالة الروحية الخالدة في الآخرة التي تشمل كل ما في الكون - وشريعة البشر - الحالة التافهة الهزيلة قصيرة الأجل لعالم محكوم عليه بالفناء. ولعل التمرد الفاشل الذي كان قد قام به فيصل الدويش وأتباعه على ابن سعود في ١٩٣٠م خير مثال يستطيع المرء أن يعثر عليه في التاريخ الحديث لجهل في تطبيق مبدأ أساسي وجذري في الإسلام هو أن الإنسان يقرر وأن الله يقدر. إن فيصل، مات في السجن نتيجة الاعتقاد الذي دفعه للتمرد على مليكه، وهو يظن أنه يتقرب إلى الله بعمله.

لذا؛ فإن هذا الوضع لايكون شيئاً إن لم يكن ديمقراطيّاً واشتراكيّاً (إن جاز للمرء أن يستعير تعبيراً ساء استخدامه في السياسة)، وإلا فهو فردية تؤدي إلى فوضى واضطراب في لحظات العبادة؛ ففي مثل هذه اللحظات تتجاوز الطاقة الروحية السيطرة العقلية، والذين يؤمنون بالتعاليم الأساسية للإسلام لا يريدون غير ذلك إن التوفيق بين الطاقتين، اللتين قد تصطدمان في الأزمات، لاينبغي أن يكون فوق طاقة البشر . إن الأسلوب المنظم الذي كان عليه الحج المكي تحت النظام السعودي كان بحق شاهداً على قدر كبير من النجاح أمكن تحقيقه في هذا الاتجاه. فالحاج آمن على أي حال، في راحة، راض، في وفرة تامة من الماء والعناية الصحية، محرر من أية رعاية باهظة وابتزاز مؤدب. إن الحكومة التي تؤمن إيماناً راسخاً بأن لا أحد يموت من غير قضاء الله، قد فعلت -وإلى حد كبير- أكثر مما فعلته أية حكومة سابقة لها وأقل تديناً منها، لخفض نسبة الوفيات بين الحجاج.

في ١٩٣١م كان هناك أربعون حالة وفاة فقط من ١٠٠٠٠٠ حاج؛ وشهدت كل سنة تالية لها تحسناً عن تلك النسبة، إذ كانت الوفيات مجرد خمس عشرة في ١٩٣٤م من ٨٠٠٠٠ شخص. وخلال السنوات الست عشرة لحكم ابن سعود

لم تكن هناك أوبئة في مواسم الحج - وهو جهد للمصلحة الطبية الحكومية يستحق الثناء .

إذن، ما الذي يضير إن أفلت الحاج مرة وفقد السيطرة على نفسه في أسمى لحظات انفعاله ؟ وما الذي يضير إن تجمهر وكسر، وإن كان القليل من ضبط النفس، مطبقاً بصورة واسعة، قد يخلق تدفقاً منتظماً لا يعوقه عائق، في المراكز العضوية الضيقة، للسمو وتحقيق الذات. فالحواجز والأبواب الدوارة قد تحول الضغط إلى أماكن أخرى للدخول والخروج، ولكن لا شيء أبداً قادر على تغيير شكل التجمع المحتشد في الوادي المكي، وإن كان السير الحثيث للتطوير قد قطع شوطاً كافياً من التحسينات المطلوبة دون أن يهدد تلك الرمزية في تلك العقيدة الإلهية .

عوداً من تلك الاستطرادة، إن الضغط حول الحجر الأسود منعني من أي محاولة للاقتراب، فبدأت أشواطي بالدعاء المأثور وتحيته من بُعد، لأجد نفسي فوراً محاطاً بالدوامة البشرية المهرولة حول المكعب نصف المكسي، والذي يبلغ محيطه الفعلي ٢٠٠ قدم تماماً، بما في ذلك الفراغ المسور بالرخام المعروف بحجر إسماعيل. ولابد أنه كان هناك ما لايقل عن ٥٠٠٠٠ شخص في الحَوض المغطى بالرخام من المطاف آنذاك ؛ إنه مشهد مثير للإسلام ذي البلدان المتعددة. ولكوني من سكان مكة فقد سرت بمفردي، ولي معرفة كافية بالأدعية بما يجعلني مرشد نفسي، بينما كان غرباء آخرون من مختلف أنحاء العالم، لا معرفة لهم بلغة أدعيتهم نفسها، يطوفون في مجموعات صغيرة أو كبيرة برفقة مطوفيهم، يرددون وراءهم في جماعة وبأصوات عالية مقاطع من دعاء كل شوط. فهنا النساء يسرن في شبه حماية من الصدام بأذرع أزواجهن وإخوانهن، ومن دفع الجموع المستعجلة، وهناك رضيع محمول على وسادة

مخملية في يدي مطوف، تتبعه الأم أو سيدة أخرى من أسرته، وهناك فئة معاقة بالشلل من خلق الله، تطوف ببيت الله على أربع، متجاهلة قدرها العاجل، حريصة على الخلاص النهائي، وهناك الأعمى، والأعرج، والمقعد، والأبتر تحت ضغوط إخوانهم الأسعد حظاً. ولما اقتربت من الحجر اليماني في الركن الجنوبي، الذي ينبغي على المرء أن يمسح أسفله بيده اليمنى وهو مارٌّ به، نزلت رجلي صدفة نزولاً غير ثقيل على رجل جار لي. ففي لحظة انتقم بركلة من رجله التي دست عليها على رجلي التي كانت داست على رجله. ولما التفت إليه في استغراب هادئ، لما للمكان والزمان اللذين هاجمني فيهما من حرمة، لمحت في الوجه البخاري الكالح قدراً من الشر والغضب ما لم أره ممكناً في وجه آدمي. "تت تت"، همست، "أستغفر الله"، وغبنا كل منا عن نظر الآخر إلى الأبد.

أكملت الأشواط السبعة في الوقت المحدد لها، وعدت حيثما بدأت - عند الحجر الأسود. ولتعذر الاقتراب منه بلا مشقة شديدة، حييت ذلك الرمز المقدس من بعيد وشققت طريقي بين الدوائر الخارجية من الزحام نحو مقام إبراهيم، أو لأقرب ما أمكنني منه، لأداء ركعتي الطواف احتفالاً باكتماله على وجهه الصحيح. وبعد ذلك فإن الشيء المتبع أن يقف المرء أمام باب الكعبة، وفي أقرب مكان منها ما أمكن - بل ملتصقاً بالجدار، والذراعان مرفوعان وعلى الكسوة نفسها في هيئة توسل البائس الفقير لله - يهمهم بما يريد من الأدعية بما يصلح حال المرء في الدنيا والآخرة[1]. وتركت هذه الخطوة من الإجراءات بسبب الزحام، وأنعشت نفسي بشربة من بئر زمزم المقدسة والتاريخية، مما يقدم للحجاج عادة في كوب من المعدن، يصب فيه من جرار

(١) هذا العمل ليس من أعمال الحج، ولا يلزم القيام به. (المراجعون).

من الطين كمثرية الشكل يحملها الزمازمة، الذين كافأتهم لما استحقوه بما يناسب تلك المناسبة الخاصة، وهو شلن لما يساوي نصف لتر من الشراب المبارك. وأنتهز هذه المناسبة لأقول إن جميع من كتبوا عن الحج في مكة، ولا أستثني من ذلك أحداً، قد أساءوا لهذا الماء بلا وجه حق. حقّاً، لهذا الماء طعم مرّ قليلاً، ولكنه من أخف الأنواع. وإذا ما تركه المرء إلى حين من الوقت في جرة من الطين، وكما اكتشفت، فإنه يكون له طعم جميل ومنعش - ومفيد وبهيئة مريحة للعمل الداخلي للجسم. فهو بلا شك أقدس مياه الأرض وأطهرها. إني لا أفهم تشويهاته لدى بيرتون، ووافيل، وإلدون، ورتر وغيرهم. ولفائدة غير العالم بالأمور، فإنه يطيب لي أن أضيف أن البئر الآن (وكما كانت لمدة طويلة من الزمن) محمية من أي تلوث ببناء يغطيها تماماً[١].

إن هذا الحائط كان ضرورياً بكل تأكيد، لما ثبت من حالات انتحار بعض الأشخاص برمي أنفسهم فيها توهماً منهم بأن ذلك يضمن لهم دخول الجنة. وإن كثيراً من الحجاج يأتون بالأكفان التي يودون أن يكفنوا بها ليغسلوها في ماء زمزم، ولكن ليس في البئر نفسها بطبيعة الحال.

وبهذه المناسبة، فإن أهمية بئر زمزم الواقعة على مقربة من الكعبة تظهر في السيرة المأثورة بأنها اكتشفتها هاجر بقدرة الله تعالى حين كانت هي وطفلها إسماعيل يكادان يموتان من الظمأ في الوادي القاحل. وبأمر من الله، بنى إبراهيم الكعبة في هيئة بيت الله السماوي، لتكون نواة المسجد الحرام، الذي

(١) لقد اختلفت بئر زمزم الآن كلياً عما كانت عليه في زمن المؤلف، فقد بُني لها مدخل في أسفل الصحن بالقرب من الكعبة ووضع عليها مضخات وجلب الماء منها في صنابير للرجال والنساء في أماكن مريحة في أنحاء المسجد الحرام. (المراجعون).

صار نفسه نواة مكة . إن مقام إبراهيم المذكور سابقًا ، يعد البقعة التي أقام فيها أبو الرسل (وكان يدعو فيها دعاءه) وهو يبني الكعبة . وحِجر إسماعيل ، المذكور سابقاً أيضاً ، كان موضع حضانة إبراهيم .

إن آخر ذرات الماء التي كانت في الكوب نثرها الزمزمي فوق رأسي ووجهي ، وشددت بطني بحزامي استعداداً للسعي . وبعد خروجي من الحرم إلى المسعى ، انضممت إلى الجموع المتجهة لرأس المسعى أو الساحة[1] - وهي تلة قديمة مبنية الآن ، ولها بضع درجات عريضة من البازلت والجرانيت مزينة ببناء مقوس حديث نسبيّاً . وفي العهود السابقة كان بإمكان الواقفين في هذا المكان رؤية الكعبة ، التي يتجه نحوها المرء بالدعاء المأثور لاستفتاح السعي وبأكف مرفوعة . أما الآن ، فإن البيوت الواقعة ما بين ذلك ، والسور ، تحجب الرؤية الفعلية . وبعد الدعاء المأثور ، يهبط المرء لبداية الشوط . لقد كان زحام الساعين رهيباً ، ذاهبين آيبين في مجموعات كثيفة أو صغيرة ، أو فرادى ، بلا نظام أو أسلوب . وعلى المرء شق طريقه في الزحام بما وسعه ، يتفادى هذا ويتفادى ذاك ، تجنباً للمجموعات القوية . ففي الخطوات المئة الأولى يسير المرء في مشية حتى التقاطع ، حيث يعبر المسعى طريق القشاشية ، وامتداده بمحاذاة الجدار الشرقي للحرم إلى الحميدية أو مقر الحكومة . ومن هذه النقطة يحدد عمود غائر في جدار الحرم بداية القطاع الذي ينبغي قطعه هرولة ، كما هو مأثور[2] . وفي الأيام التاريخية ، كما في أيامنا الواسعة هذه ، أيام السيارات ، كان هذا المعبر مسار الشارع الرئيس في المدينة ، ولابد أن هذه الهرولة كانت

---

(١) المقصود الصفا . (المراجعون) .

(٢) حددت الآن تلك الأعمدة باللون الأخضر . (المراجعون) .

ضرورة في المسعى[١]. وهناك عمود أخضر على يمين المسعى، مبني على جدار دكان، يحدد نهاية قطاع الهرولة، وطوله كله ثلاث وخمسون خطوة. وبعد ذلك يواصل المرء سعيه مشياً للخطوات، الثلاث مئة والست، المتبقية من الشوط؛ وهو الآن شارع واسع، مغطى، على جانبيه الدكاكين. حتى التل المعروف بالمروة، المشابه للصفا، ومثله في درجاته العريضة وبنائه المقوس. إن المسعى نحو ٣٨٠ ياردة تقريباً في الطول، بلط بالحجارة في عهد هذا الملك - وهو تحسين له على ما كان عليه في العهود السابقة من غبار متطاير يستحيل معه تنظيفه، وأوساخ مما يجعل من السعي كفارة فعلية[٢].

أثناء السعي يردد الحاج الدعاء المأثور للمناسبة، وفي المروة يدور نحو الصفا، ويقف على الدرجات بذراعين مرفوعين، ليعيد مرة ثانية الأدعية المأثورة، ثم يهبط عائداً إلى الصفا، وكلها سبع مرات، أربع من الصفا، وثلاث في الاتجاه المعاكس، يؤدي هذا المضمار، وفي نهاية الدور السابع تنتهي كل شعائر الحج الأكبر على وجهها الصحيح، كلها فيما عدا الحلق أو التقصير حسب الاختيار، يساعد المرء فيها جيش من الحلاقين يزحمون طرف المروة من المسعى، يبدو أن لهم سوقاً رائجة. لقد آثرت أن أتولى تقصير شعري بنفسي في البيت. وبعد أن أكملت مضماري ذي الألفين والست مئة ياردة - وكانت الساعة آنذاك التاسعة صباحاً، وقد بدأ النهار يميل إلى الحرارة -كنت في غاية السعادة حين حملتني سيارتي إلى هناك. ومن كل النواحي فإن حجتي الأولى أكملتها بأمانة وعلى وجهها الصحيح. وكان أصحابي ومعارفي خلال الأيام

---

(١) هذا استنتاج من المؤلف ليس له دليل. ويروى أن هاجر، أم إسماعيل، كانت تسرع في المشي من أجل طلب الماء أو البحث عن من يساعدها حتى إذا تعبت تركت الهرولة وبدأت تمشي. (المراجعون).

(٢) استمر تطوير منطقة المسعى في عهد الملك عبدالعزيز ثم في عهود أبنائه الملك سعود والملك فيصل والملك خالد وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد حيث أزيلت الدكاكين وأدخل المسعى ضمن تطوير المسجد الحرام وتوسعته التاريخية ووُضع له طابق علوي لاستيعاب الأعداد الكبيرة وأصبح مكاناً مهيأ لراحة الحجاج والمعتمرين. (المراجعون).

التالية يدعون لي بقبولها وبالبركات المقرونة بها. لقد أصبحت "حاجّاً" بجدارة الآن، وهو وصف قليل الاستخدام في الجزيرة العربية نفسها، حيث يفترض أن يكون معظم الناس قد أدوا الحج في وقت ما أو آخر في حياتهم، وإن كان يقال -بما يحمله من أوجه الصحة- إن هناك، أو كان هناك إلى عهد قريب، رجالاً شيباً، من سكان مكة نفسها، وممن عاشوا فيها كل أعمارهم، من لم يؤد هذه الشعيرة المهمة! قد يبدو ذلك صعب التصديق. ولكن الأمور تغيرت الآن عما كانت عليه أيام الأتراك والشريف، حين كان دور المكي جعل الحج أمراً من أشق ما يمكن على الغريب الذي بين بواباتهم، بينما يكون هو نفسه قد تفادى الأخطار الحقيقية والمعاناة التي في طريق الحاج.

٥ - منــى

قضيت الوقت هادئاً في البيت في حر ذلك النهار، ولم أمض في سيارتي إلى منى إلا في وقت متأخر من العصر، حيث وجدت الملك يكاد يكون وحيداً في قاعة الاستقبال الجديدة الفخمة. في كل العالم الإسلامي يحتفل بهذا اليوم، عيد الأضحى، إحياءً لقصة إبراهيم، ويبدو أنه لم يكن هناك جهود مبذولة لتحديد يوم العيد في العالم كافة. فالذي حدث في هذه المناسبة هو أنه بينما اتفقت لندن معنا في تحديد يوم العيد، اختارت الهند اليوم التالي (الأربعاء ٢٩ أبريل) ليكون الاحتفال بالعيد.

أما فيما يختص بمكة، فإن الشعائر التي وصفتها من قبل يبدو أنها تقسم اليوم بطريقة ما بحيث أن صلاة الفجر لا تقام أبداً أو تقام لجماعة صغيرة من الناس. وحسبما أعلم فإنه لم تكن هناك صلاة للفجر في الحرم نفسه[١]، وإن كان أولئك الذين أخروا الطواف والشعائر الأخرى التي تؤدى في مكة قد اجتمعوا (للصلاة) في مسجد الخيف بمنى. وبالإضافة إلى ذلك فإني قد فاتني الاحتفال بذبح الأضحية في الصباح. أما أضحيتي فقد ذبحت نيابة عني في اليوم التالي؛ وينبغي علي أن أضيف بأني خلال أيام إقامتي الثلاثة في منى فإني لم أشهد، ولم أدرك بأية طريقة ما غير مرضية، بل إني لم أر مكان الذبح نفسه، الذي أحسن القائمون على الأمر صنعاً بنقله إلى مسافة مناسبة من المخيمات الرئيسة للحجاج، بحيث أصبح معزولاً عن معسكرات التكارنة من المقيمين والزوار الذين لا يرون عيباً في أي شيء يؤكل أبداً. لقد رأيت فعلاً بعض رءوس الأغنام

---

(١) لعل قصد المؤلف يوم العيد حيث يكون الحجاج إما في مزدلفة أو في طريقهم إلى منى. لكن قوله إن صلاة الفجر لا تقام في ذلك اليوم في الحرم فإن ذلك غير صحيح؛ لأن هناك من أهل مكة من لم يحج فيذهب إلى المسجد الحرام لصلاة الفجر. (المراجعون).

ملقاة هنا وهناك، ولكن عدا ذلك ليس هناك شيء لا من رائحة عفنة أو أشياء متعفنة أنضجتها الشمس. لقد قامت السلطات الصحية بعملها في هذه الناحية خير قيام، كان ثوابهم أن نسبة الوفيات هذا العام كانت الأقل في كل الوثائق المحفوظة عن الحج إلى اليوم. والذباب، الذي نسمع عنه كثيراً! أين كان؟ لم يكن موجوداً قطعاً وكما هو واضح مثبت - سيأتي بعد ذلك بأيام، وذلك مما لاشك فيه، ولكن آنذاك سيكون كل الحجاج قد غادروا المكان، ولن يكون هناك أحد ما ليزعجه أو ليعاديه. فالمكان سيكون مهجوراً كما كان قبل أيام قليلة سبقت. وأخيراً لختم قصة بركات منى - ما أسعد أن ينام المرء في العراء تحت تلك السماء اللامعة بلا ناموسية، ولا ناموس ليقض مضجع النائم.

ورد في الأثر أن النبي ﷺ قضى يوم الأضحى نفسه واليومين التاليين في منى[١]. لذا؛ فإن هذه السنة أصبحت جزءاً من برنامج الحج، ولكن ذلك ليس لزاماً، إلا لما يكفي الحاج نفسه أو من يوكله ليرمي سبع حصيات على كل واحدة من العقبات الثلاث، في وقت الزوال أو بعده بقليل، من اليومين الثاني والثالث. بل إن ترك شعيرة الرمي في هذين اليومين (وإن كان ذلك الترك لايشمل رجم العقبة الكبرى في اليوم الأول؛ فهو عنصر مهم في الحج) لايبطل الحج، وإن كان لابد من التوكيل له، أو التكفير عنه بهدي من الغنم أو الماعز[٢].

(١) ورد في حديث عائشة -رضي الله عنها- قالت: أفاض رسول الله ﷺ من آخر يوم حين صلى الظهر ثم رجع إلى منى فمكث بها أيام التشريق، رواه أحمد وأبو داود. ويفهم منه أن الرسول ﷺ قضى يوم النحر وأيام التشريق في منى. وعلى العموم فإنه يجوز التعجل في يومين لكن بشرط الخروج من منى قبل الغروب. (المراجعون).

(٢) الهدي يقدم من أصناف بهيمة الأنعام وليس فقط مما ذكر. (المراجعون).

وفي واقع الأمر ، فإن الغالبية العظمى من الحجاج يقيمون بمنى لتلك الأيام " لتجفيف الجلد " ، محتفلين ومستريحين من تعب الحجة نفسها - إنها وبكل أمانة امتحان عسير للنساء والمسنين والصغار جداً . إن الفضاء في الوادي بين السلسلتين السوداوين لثبير والمفجر قد امتلأ بمدينة فعلية من الخيام طغت على البيوت الحجرية القليلة بالقرية ، التي سكنها أولئك الذين كانوا قادرين على دفع مبالغ طائلة للإقامة فيها بدلاً من الخيام . لقد أصبح الشارع الرئيس سوقاً مزدهرة حقّاً ، حيث كان الباعة المتجولون للسلع الرخيصة والتذكارية ، وموزعو المشروبات الباردة (الموسم موسم المشمش والخيار المحلي) قد نشروا سلعهم على طاولات أو أقمشة على الأرض على جانبي الشارع . لقد كان كل خامس أو سادس من أولئك الجالسين على الأرض تاجر صرافة ، يشتري أو يبيع الروبيات والفلوس أو العملات الأخرى بكميات كبيرة مقابل الريالات الفضية والهللات (عملات من النحاس) الحكومية السعودية .

وطيلة اليوم ، وبخاصة في النسمة الحبيبة في الصباح الباكر والأمسيات ، تعج شوارع منى بأعداد هائلة من الناس ذاهبة آيبة . وخلال ذلك ، وفي فترات متباعدة ، تشق ناقلة ماء ثقيلة طريقها ببطء ، مفسحة الطريق أمامها برشاش عريض للماء ، مخلوط بمطهر ، لتثبيت الغبار والقضاء على الجراثيم في عملية واحدة . وفي نقطة ما في الجزء الأعرض من الشارع ، نحو منتصف المسافة ما بين العقبتين كانت ماكينة بتر ، مزودة بمضخة ذات سلسلة من نوع أكواتل ، تعلو حوضاً أرضيّاً ضخماً تحت الأرض (تصب فيه سيارة ماء من حين لآخر) . والتف حولها اليوم كله جمهور كبير من ظمأى الفقراء بعلب وقدور ، من كل شكل وحجم ، يعبئها لهم موظف للبلدية ، وهو جالس فوق مخرج الماء

المتدفق، بمرح دون كلل أو ملل يصب الماء تارة في العلب وتارة أخرى فوق رءوس الجمهور أسفله، أو أجسامهم، وذلك مع ضحك الجميع وسرورهم.

وعلى نحو بضع ياردات من ذلك المشهد للعمل الخيري، كان الملك المحروم[1] يطل من الطبقات العليا للقصر الذي وضعته تحت تصرفه الحكومة السعودية لممارسة ديمقراطية حقة تحت رعاية الحكم الفردي الكامل الوحيد في العالم الحديث، وهو حكم فردي خففت من مطلقيته شريعة الله. إنه كحفيد لخليفة عثماني من أيام المجد الخالية، وشاب ربما كان أكثر تعوداً على ميادين التنس وكازينوهات الريفييرا منه على متاعب الحج، لعله كان لديه مما ينساه أو يغفره أقل مما كان لمن كان قبل عهد قريب لابساً التاج، ويحلم بلبس الرداء قبل أن يخضع لإغراءات الحياة الغربية. ولعل أمان الله خان، ملك الأفغان السابق، قد لمح بحزن شديد من بين الزحام في الشارع أسفله بعضاً من رعيته السابقين. ولعله، وهو ينظر، قد تساءل إن كان القدر قد قضى عليه أم أنه لايزال ينسج على شاكلته نمطاً للمستقبل. "إن الأمل يظل حيّاً في صدر الإنسان"، ولكن الضيوف الملكيين للملك السعودي، إلى جانب أولئك القلة من الضيوف البارزين من الهند ومصر، ربما استيقنوا بأن جوهر الخلافة، إن لم يكن ظلها، قد انتقل - ومن يدري، لعله للأبد؟ - إلى حوزة الأسرة الجديدة، العربية.

وفي الشرق من الوادي، وراء تجمع خيام الحجاج، جلس ابن سعود في قاعة استقبالاته يصرف أمور الدولة يستلم التقارير ويصدر أوامره لحكم بلاده. وكان هناك هاتف يصله بمكة وجدة؛ وفرع لمكتب البريد والبرق يأتيه بالأنباء من كل حدب وصوب؛ وكانت رئاسة الإدارة الصحية قد اتخذت مقراً في

---

(١) المقصود به أمان الله خان كما يفهم من سياق الحديث لاحقاً. (المراجعون).

المستشفى المحلي لإحاطته علماً بالإحصاءات الحيوية الضرورية لخير العالم، ذلك لأن الحج إلى مكة قبلة أنظار عالم أوسع من الجزيرة العربية وحجاجها. بل إن وزارة الخارجية كانت هناك بكامل قوتها في خدمة الملك. إن العمل اليومي المعتاد كان سمة كل يوم. لكن الرعاية الخاصة لأمر الحج لم تحل دون الاهتمام بالمسائل الأخرى.

وثمة أمر، دنيوي صرف ذو دلالة اقتصادية عاجلة، بدا خلال تلك الأيام طاغياً على كل شيء آخر، وإلى حد ما ألقى ظلالاً كئيبة على موسم الحج. فمكة والمدينة، بطبيعة الحال، كانتا في عطلة، وقد أغلقت كل محلاتهما التجارية وتوقف العمل التجاري، بينما أصبحت منى في الوقت الحاضر هي القلب التجاري للحجاز. لكن منى، ولسبب ما، أصابها ذعر حول العملة المحلية. فالقرش النيكل للإدارة الحجازية - النجدية (اسميّاً : ٢٢٠ للجنيه الذهبي الواحد) انخفضت قيمته فجأة، وبدأ الذعر يلقي ظلاله في أماكن بعيدة مثل المدينة وينبع. بل إن الحكومة نفسها، وفي لحظة ما، أدركها طوفان الكساد الاقتصادي، وأصبحت تفكر في تثبيت قيمة العملة النيكل بتخفيض كبير منعاً لأي هبوط أكثر. ولحسن الحظ، كانت الغلبة لنصائح أكثر حكمة، فأمكن إيقاف الذعر بإجراءات إدارية قوية إلى حين اتباع سياسة أخرى ثابتة، يقع الحديث عنها وعن تطورها ومستقبلها خارج مجال هذا السجل.

لقد كانت الشعيرة الوحيدة لليومين الثاني والثالث هي رجم الجمرات الثلاث. هذه الجمرات الثلاث بمنى تحدد المواضع التي يقال إن عدو البشرية كان ظهر فيها لإبراهيم ليغويه ويثنيه عن طاعة الله، حين كان بأمر من الله قد أخذ ابنه (إسماعيل في السيرة النبوية) إلى مكان التضحية. ومن ذلك الوقت وإلى

يومنا هذا، وقريباً من "العقبة الكبرى" وعلى السفوح الصخرية إلى يمين[1] الممر والمرء متجه إلى مكة، تقف مقصورة بسيطة متهدمة تحدد البقعة التي رفع فيها إبراهيم بصره، ليرى فرج كربته، حيث أنزل الله برحمته كبشاً ليضحي به بدلاً من إسماعيل، كقربان يقدم لله الذي امتحن عبده ووجده قوياً. ويبدو أن كثيراً من الحجاج، وقد فضلوا برودة الصباح وآخر العصر للقيام بالمهمة التي تقتضي في كثير من الأحايين السير الطويل والتدافع، قد تجاهلوا حقيقة أن الوقت المحدد لأداء هذه الشعيرة هو وقت الزوال لكلا اليومين. بل إن الرمي، وكما يبدو، كان يحدث في كل الأوقات، من الفجر حتى الغروب. كما أن بعضاً من فرقة الملك النجديين، ومن تابعيه، حرصاً منهم على الذهاب إلى مكة في أسرع وقت ممكن من اليوم الثالث، تدافعوا خارجين من المخيم الملكي لهذه المهمة حين أحس الملك بما قد حدث فعجل بإرسال رسله إليهم آمراً لهم بالرجوع إلى خيامهم. والذي يبدو أنه لاشك فيه هو عدم الرمي قبل بدء الشمس بالزوال عن كبد السماء، وقد جاء اقتراح بأن يعلن ذلك بطلقة مدفع. إن أي وقت بعد الزوال وقبل الغروب جائز فيما يبدو، وكلما قارب الزوال كان أفضل. وفي تلك الساعة يكون منظر الزحام عند الرجم رائعاً حقّاً - جمع كبير من الناس يتدافعون لكي يصلوا إلى أقرب مكان لرمي حصياتهم، يدفع بعضهم بعضاً للأمام وللخلف، مجموعة خارجة راضية عن نفسها بعد أدائها للرجم تلاقي مجموعة أخرى، من إخوانهم المندفعين، قادمة. ويشق الجميع من حين إلى آخر موكب لأحد أفراد أسرة الملك عبدالعزيز قادماً على فرسه تصحبه حاشيته متجهة إلى المرجم. وعلى الرمز جلس أو وقف جنديان، لحفظ النظام وسط هذه الجموع المتدافعة، يقضيان وقتهما يبتسمان بطيبة وهما يروغان من حصيات المؤمنين سيئة التهديف. إن حفظ النظام

---

(١) يعرف هذا المكان بممر الكبش إلى هذا الوقت. (المراجعون).

مستحيل. وإنه لأمر يثير العجب ألا تقع إصابات خطيرة تفسد سعادة جموع غفيرة جاءت لتحيي مثالاً تاريخياً للإخلاص.

وهكذا، في اليوم الثالث من الاحتفال، ونحو الغروب، تم رمي آخر الحصيات وانتهت شعائر الحج الأكبر. وترك الناس المرجم في سلام حتى عام قادم؛ وتدفقت الجموع من منى إلى أسفل الوادي، نهر لاينقطع من الرجال والنساء والأطفال، راجلين أو راكبين، مرهقين ولكنهم سعداء، وفوق ذلك كله طاهرين من آثام الماضي - ذلك العبء الثقيل الذي كانوا جميعاً يحملونه، حتى تلك الأيام.

وكانت هناك بدوية، محجبة في خمارها عن مطالعة الرجال، متلفعة بثوبها المتواضع الذي يخفي قوامها، تخب بجملها وبحبور وسط الجموع السائرة في بطء، ما بين راجل أو محمول على محفة، لقد كانت على ظهر جملها النحيف، بلا سرج أو رسن. وبينما كانت سيارتي تقلني إلى بيتي بين جموع الحجاج، قلت لنفسي إني أرى فيها وفيما حولها روح الجزيرة العربية تشق طريقها في شرايين الإسلام.



" المدينة المنورة "

١ - وصولنا

من البعد - ربما نحو عشرة أميال في خط مستقيم - نظرت أسفل لأول مرة لمدينة النبي ﷺ، وهي في إطار رمادي - أزرق باهت من الصخر والصحراء يستحيل على المرء أن يفرق فيه بين الخط السميك من نخيل الواحة و السلسلة المنخفضة من الحمم البركانية الملفوظة التي تكاد تلفها تماماً بإطارها البيضوي، الواقع داخل جبال الجرانيت والبازلت. أما المدينة نفسها، فإن شيئاً منها لم يظهر بعد سوى المآذن النحيلة لمسجد النبي ﷺ - المنارة التي ترسل دعوتها بالإيمان والأمل طولاً وعرضاً، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً. لقد كانت هي مرشدتنا لما تبقى من الرحلة، ونحن نسرع منحدرين في السفوح بين التلال الصغيرة نحو بستان النخيل الجميل في أبيار علي، في بطن وادي الحسى، كما يسمى هذا الجزء بالذات من وادي العقيق - وهو الخط الرئيس لتصريف مياه حوض المدينة ورافد لوادي الحمض الكبير.

وبقدر ما كنت قد قرأت عن مدينة الرسول ﷺ ومنطقتها، فإني أقر بأني لم أكن مهيأ أبداً لا لسحرها ولا لمعناها. لقد تضافر التاريخ والرواية منذ عهد بعيد على طبع توقعات في عقلي لروعة كان مصيرها الزوال الآن. وكلما اقتربنا أكثر فأكثر فوق الفاصل البائس من حقل الحمم، الذي يفصل المدينة من منطقة وادي العقيق، وتوقفنا برهة على حافته الشرقية تحت التل ذي الأبراج المسمى العصيفر، أبصرته كما لو كان هيكلاً لمجد سالف، خالياً مما يذكر بتلك العظمة الأسطورية للماضي أو ما يوحي بأي أمل في المستقبل، ماعدا بناء واحداً عمره أقل من قرن - مسجد نبي الإسلام (عليه الصلاة والسلام) بقبته الخضراء

البسيطة ومآذنه الأنيقة التي تشير في كبرياء إلى السماء في لونها الرصاصي. وما عدا ذلك فيبدو لأول وهلة أنه خراب، فالواحة العظيمة ليست سوى حزام متعرج من النخيل، شاسع الطول ولكن بلا كثافة: أسوار المدينة غير متصلة قد شوهتها الإضافات والإصلاحات: والمدينة نفسها ثوب خلق أوسع من الجسم الذي بداخله. ولكن التعرف عن كثب على المدينة قد يكشف عن سحر غير متوقع، وإن خلا من أي شيء يمكن وصفه بالجمال، سوى المسجد نفسه، لقد كانت أيامي في المدينة ممتعة حقاً، فوق التوقعات التي كان قد أوحى بها انطباعي الأول. فالذي لاشك فيه هو أنها مدينة لها روح. إن جاذبيتها للروح لا للعقل. إن عاطفة الارتباط بالمكان، الذي نمته ورعته قرون طويلة من التقديس والإجلال المحلي تتخلل كل جو المدينة بالقدر نفسه الذي تهيمن فيه قبة مسجدها على المنظر الطبيعي فيها. وإن كانت أكثر عرضة للعواصف والأعاصير السياسية العالمية، فإن مدينة الرسول ﷺ لابد أنها ظلت أقرب إلى نفسها دائماً - في كل الأساسيات - من تلك المؤسسة التي تملأ وادي مكة الآن، وفاضت في مجاريها الفرعية وتجاوزت سوق مكة القديم، حيث كان محمد ﷺ قد غرس راية عقيدته العظيمة.

إن المدخل إلى المدينة من جهة الغرب عادي. فحقل الحمم البركانية يتدفق في السهل بصورة غير منظمة، في ألسنة كأنها الفحم الحجري أو خبث الحديد. وشبهها بمدينة من "بلادنا السوداء"[(١)] يرسخه القرب المباشر من الفناء الواسع لمحطة السكة الحديد، التي بمحاذاة الجانب الجنوبي منها، ولنحو نصف ميل يستمر الطريق إلى باب العنبرية يلاصقها من جهة الجنوب مسجد كبير بمئذنتين عاليتين

---

(١) ربما كان المؤلف يقصد بالأرض السوداء بريطانيا التي تأثرت مدنها بالأدخنة المتصاعدة من المصانع وعوادم السيارات والقطارات. (المراجعون).

وقبة عريضة منخفضة الارتفاع، ومن جهة اليسار محطة السكة الحديد نفسها. وهي بناء طويل حسن البناء، من البازلت، يتجه شرقاً ليعطي الحاج الزائر لأول مرة، أو المسافر، مشهداً للحرم نفسه، كما يسمى المسجد الكبير.

وعند البوابة سَدَّ الكتبة المدققون الطريق، مسلحين بأقلام الرصاص والسجلات طالبين أسماءنا ومعلومات أخرى عنا، وكنت نتيجة ذلك قد أسأت الفهم وحسبت أن هؤلاء لابد وأنهم كانوا قد أمروا بالوقوف هناك بعد أن كانوا قد أخطروا بحضورنا ببرقية من جدة أو عن طريق رسولنا الذي كنا قد أرسلناه أمامنا من أبيار علي قبل ساعة أو ساعتين ليخبر بقدومنا. وأشرت عليهم أنهم بإمكانهم الحصول على كل المعلومات التي يريدونها من الأمير فيما بعد، وبعد تردد سمحوا لنا بالمرور، ليعاتبنا الحاكم بالهاتف فيما بعد ذلك بدقائق لعدم إعلاننا إياه بقدومنا وشخصياتنا فوراً. ولم يكن الملك أو الحكومة قد أخطر الأمير ليتوقع قدومنا. والغريب في الأمر أن رئيس مرافقينا النجدي، حمد - وهو مرافق غير ذي فائدة كما سيثبت فيما بعد - كان قد بلغ بالوصول الوشيك لأربع سيارات ومعها شاحنة للاسلكي ومهندس مصري دون أن يفصح عن شخصية رئيس المجموعة - ربما لعدم رغبته في التصريح بأنه لم يكن هو صاحب ذلك المنصب.

وأمير المدينة هو عبد العزيز بن إبراهيم، شخصية نجدية ذات مكانة، يبدو أنه من أصل دوسري[1]، وإن كان يعرف أكثر بأنه شخصية مهمة من أهل حائل

(١) الصواب أن آل إبراهيم، من آل فضل ورد في كتاب كنز الأنساب ومجمع الآداب، للشيخ حمد بن إبراهيم الحقيل (ط٨ ص١٣٠-١٣١) أن آل إبراهيم (ذرية إبراهيم بن عبدالرحمن منهم من سكن حائل، ومنهم الأمير عبدالعزيز بن إبراهيم وكان من ولاة الملك عبدالعزيز) ويرجع آل إبراهيم إلى آل يحيى من آل رباح من آل غزي الذين ينتسبون إلى قبيلة الفضول وهم أبناء فضل بن ربيعة الطائي. (المراجعون).

حيث عاش لسنوات طويلة مع آل رشيد لجفوة ابن سعود له لسبب ما لا أعرفه. وعند استيلاء ابن سعود على حائل في ١٩٢١م تصالح مع مليكه الطبيعي والحتمي، الذي وجد لديه عملاً مجزياً على حدود الحجاز، له علاقة بالعمليات التي أثمرت عن النصر النهائي للسعوديين. وبعد الخدمة لسنوات في أبها، عاصمة مرتفعات عسير، أصبح حاكماً للطائف، ومنها رقي بعد سنوات إلى منصبه الحالي المهم والشاق، الذي يبدو أنه يناسبه تماماً ويصرف أموره بأسلوب أمراء العصور الماضية. فهو في مظهره، بقسماته النجدية الواضحة المنتهية بلحية قصيرة، مثلثة الشكل، كأنه خرج لتوه من رسم جداري غائر. أما في تصرفاته، فقد كان جاداً، مصيباً إلى درجة عالية في كل المراسم الرسمية والدينية، وودوداً مع جفاف، وحاسماً.

وحين وصلنا بابه كان جالساً في نافذة مقوسة مزودة بشعريه.. في بيت متواضع، نصف قبو، واقع في الجانب الشمالي من الشارع الرئيس من العنبرية. وبعد نزولنا بضع درجات إلى الصالة المظلمة، تحت مستوى الشارع ببضعة أقدام، صعدنا مرة أخرى بضع درجات أخرى لغرفة خارجية أشد ظلمة، خلعت فيها الأحذية قبل دخولنا قاعة الاستقبال. وبعد التحايا التقليدية جلسنا في أماكننا على المقعد ذي المسند المجاور للنافذة مع غيرنا من الزوار والمعاونين الذين كانوا في صفوف حول القاعة. وبعد مزيد من التحايا التقليدية جاءت القهوة التقليدية. وعند ذلك سأل الأمير: " هل من أحد يخبرني الآن من هؤلاء الناس؟ " وكان ذلك على الأقل مباشراً وغير رسمي، فأخذت أوضح له من نحن - وتحرك الأمير كمن يريد أن ينهض ليحتضنني وأنا أفعل ذلك، ولكنه استقر وعاد لوضعه السابق مصغياً باهتمام مؤدب - ولماذا جئنا.

وبعد أن فرغت، تكلم الأمير من قلبه وبلطف. ليته كان قد علم بأني سأزوره حتى يعد ضيافة أليق بشخص استحق التكريم لثلاثة مبررات. أولها، وإن لم يكن يعرفني، فإنه عرفني كصديق قديم للعرب في الأيام الأولى حين كان هناك حاجز الدين بيننا، الذي لايشجع الاتصال وإن كان بين الأصدقاء. والثاني، بما أن ذلك الحاجز قد زال الآن، فإنه يرحب بي كصديق، بل كأخ، من دون عارض أو عائق. والثالث، أني مرحب بي ثلاثاً كشخص صداقته بذلك الرجل (مشيراً إلى الملك) معروفة في طول الجزيرة العربية وعرضها - وما على أصدقاء الملك إلا الأمر في المدينة، ما دام هو حاكماً فيها باسم الملك، خادماً مخلصاً ومطيعاً بإذن الله.

أما ما تبقى من الوقت، في هذه المقابلة الأولية فقد أخذه الحديث عن أنسب الأماكن لسكني خلال فترة إقامتي، وقد تخلل ذلك الحديث شرب الشاي والقهوة اللذين كانا يقدمان في فترات، وأخيراً البخور زكي الرائحة الذي أخرجه الأمير من جيبه وألقى به في نار الفحم المتقدة في مبخرة جاءه بها خادم. إن الخزنة، التي كانت خزانة الحرم في السابق وأصبحت داراً رسميّاً للضيافة، مشغولة الآن، لإقامة سفير أفغانستان في القاهرة فيها ؛ لكن هناك دارين، إحداهما مجاورة لبيت الأمير والأخرى خارج أسوار المدينة، علينا الاختيار بينهما بعد فحصهما حالما نفرغ من إيداع شاحنة اللاسلكي في محطة اللاسلكي، التي تبعد نحو ميل خارج باب الشام[1]، في الطريق الشمالي. ولذلك فإننا استأذنا الأمير، واعدين إياه بالعودة في الساعة الثانية (بعد الغروب) للعشاء.

---

(١) كذا في الأصل ويقصد «الشامي». (المترجم).

وما أن تخلصنا من شاحنة اللاسلكي بأسرع ما أمكن، وتعرفنا على يحيى بيه، السوري التركي، مدير البريد والبرق - الذي تفضل مشكوراً بتهيئة حمام لي ولتغيير ملابسي في إحدى الغرف الكثيرة الخالية في البناء الضخم لمحطة اللاسلكي وبتقديم وجبة خفيفة وشاي - حتى عدنا للمدينة في رحلة استكشاف للسكنين المتنافسين. وفي الواقع فإننا زرنا واحداً منهما فقط وقررنا اختياره؛ هو الفيروزية، بستان ودار خارج الأسوار بقليل، ما بين باب الشام[1] وباب بصري (نسبة لبصري باشا، الحاكم التركي السابق للمدينة)، الذي كان جذاباً بالقدر الذي قطع الأمل في أن يكون البيت الآخر (داخل المدينة وبلا حديقة) أفضل منه. ولحسم الموضوع، فإننا نزلنا فيه فوراً، وأنزلنا أمتعتنا من السيارات، وتخلصنا منها بأن وزعناها في مختلف الغرف، حسب توزيعنا السريع للغرف بين الأفراد. فاخترت لنا نحن الثلاثة، أنا وكردي وفخري، صالوناً واسعاً مفتوحاً ذا أعمدة يواجه حوضاً واسعاً من الحجر يصب فيه ماء البئر (بعد مروره بالمطبخ والحمام أولاً)، ليسقي عدداً كبيراً من النخيل.

أما البيت نفسه، وهو من ثلاثة أدوار، فإنه يلاصق الصالون من الجانب الغربي، وأخذنا الدور الأرضي كله - تاركين الغرف لحراسنا النجديين والسائقين، بينما احتفظنا نحن بالغرفة المجاورة للحوض لأمتعتنا الخاصة. أما عائلة صاحب البستان (عدة عائلات فيما يبدو)، أو الجنائني المسئول، أو ربما مستأجرين، فإنهم أقاموا في الدورين العلويين من الدار، نسمعهم أحايين عدة ولا نراهم إلا نادراً، فيما عدا الأطفال، الكثيرين، الذين كانوا يغامرون بالدخول في منطقتنا. ولم نحتج إلا لدقائق لنستقر - لقد ظهرت الكراسي

(١) كذا في الأصل ويقصد «الشامي». (المترجم).

والمساند بما يشبه السحر - وسرعان ما انطلقنا لنتعشى مع الأمير، عشاءً بسيطاً من الأرز ولحم الضأن واللبن الرائب على الطريقة النجدية الأصيلة، قبل رجوعنا لراحة ليلتنا الأولى في مدينة الرسول ﷺ، بعد أن قررت تأجيل زيارة قبره للغد فأكون قد نلت القسط الكافي من الراحة لأداء هذه المهمة[1].

ثمة شيء في إدارة مكان كالمدينة يتسم بالبساطة والكفاءة. فكل شيء يقع في موقعه الصحيح من إشارة البداية. لقد كنت نوهت من قبل بالسرعة التي اتخذ بها مسكننا الخالي مظاهر غرف المعيشة. لقد وقف عدد من الخدم (غير أكفاء جداً، ولكنهم حسنو النية) على خدمتنا في لحظة. فالشاي والقهوة جاءا فوراً، وأغرقنا بسيل من الاقتراحات لزيادة راحتنا، وقبل أن أستفسر عن كيفية تحقيق غرض زيارتي كان مزوري، الشيخ أحمد الجنيني، واقفاً أمامي يسألني متى أريد زيارة قبر الرسول ﷺ. واختفت ملابسنا المتسخة من الرحلة، لتغسل، وجاء خياط ليثري محتويات دولاب ملابس كردي. لقد كان كل شيء تلقائيّاً، ينجز نفسه بنفسه. ولم أعلم إلا بعد حين أن العبقري المشرف على راحتنا كان أسعد أفندي، المدير المحلي للضيافة الحكومية وهو رجل مدني، دائم الابتسامة، في أقل من منتصف العمر، أهم ما يلفت النظر إليه أنه له ثلاثة إبهامات بالإضافة إلى العدد الطبيعي للأصابع. إن له إبهامين توأمين في يده اليمنى، أحدهما متفرع بزاوية من ثلاثين درجة عن أسفل الآخر، الذي يبدو في شكل طبيعي. والإبهام الإضافي كامل الهيئة بمفصل وظفر تامين وإن كانا أصغر حجماً مما في التوأم. وكل المظاهر تدل على أن هذا الإبهام الإضافي لا دور له. كان عليّ أن أوضح أن كردي مهندس مصري متعاقد مع شركة ماركوني لتركيب اللاسلكي في مكة والمدينة. وفخري، المذكور سابقاً أيضاً، سكرتيره.

---

(١) المشروع أن الزيارة تكون لمسجد النبي ﷺ، ثم السلام عليه وعلى صاحبيه أبي بكر وعمر، مع النهي أن تقصر الزيارة على قبره الشريف ﷺ وحده. (المراجعون).

٢ - مدينة الرسول

إن المدينة، مقسمة إلى ثلاثة أقسام - المدينة، والمعسكر، والملحق. والمنطقة كلها محاطة بسور، في شكل بيضوي تقريباً متجه نحو الجهات الأربع الرئيسة، طوله الأقصى نحو ٢٢٠٠ خطوة (نحو ٦٧٦، ١ متراً) من الغرب إلى الشرق، وعرضه نحو نصف تلك المسافة من الجنوب إلى الشمال في أعرض المواضع من المنطقة المسورة. وبهذه المناسبة، فإن خارطة بيرتون في ١٨٥٤م، تعطي طولاً وعرضاً من ١٢٨٧ و ٨٢٣ خطوة بالتتالي، وتجعل منطقة العنبرية أصغر بكثير من مساحتها الحالية (المتهدمة في معظمها). كما إن إلدون (رتر)، في ١٨٢٦م، جعل القياسين ١٧٠٧ و ١١٧٣ خطوة بالتتالي، ولكنه يبين مساحة متهدمة غير مخططة إلى الغرب من العنبرية، التي بلا شك، تفسر الاختلاف بيننا في القياسات. ومن الواضح أن نمو هذه المنطقة واندثارها بعد ذلك كانا بعد زمن بيرتون. والمحور الشمالي الجنوبي يقسم المدينة إلى قسمين متساويين، يحتل القسم الغربي منهما الملحق أو منطقة العنبرية، التي تلاصق طرفها الجنوبي الغربي محطة السكة الحديدية وحوشها الإضافي الواسع الحاوي للورش والغرف الضرورية. ومن هنا يمر خط السكة الحديدية بالطرف الغربي للسور، في اتجاهه شمالاً، أما الحد الشرقي لمنطقة العنبرية فإنه يمثله مجرى السيل الواضح المسمى «أبو جيدة». وفي الجنوب، داخل السور الذي بلي وضعفت معالمه هنا وخارجه، بساتين وحدائق نخيل غير غزيرة، إلى جانب قرية صغيرة بائسة اسمها مصر. وفي الجانب الشمالي تطل الأسوار المتهدمة من منطقة العنبرية، وعدد من المنازل المتفرقة المهجورة الآن الواقعة خارجها، على الصحراء الصخرية التي يخترقها مجرى «أبو جيدة» في طريقه ليلتقي بمجرى

الماء الرئيس، وادي العقيق. إن منطقة المحطة، بطبيعة الحال، حديثة إلى حد ما، تؤرخ ببداية هذا القرن، مثلها مثل الثكنات التركية لا التكية الخيرية المصرية البائسة المواجهة لها من الجهة الأخرى من الشارع الرئيس المؤدي من المحطة إلى المدينة. وباقي منطقة العنبرية يمثل، كما لو كان، مقياساً تلقائيّاً للمد والجزر في رفاهية المنطقة. ففي وقت زيارتي كانت هيئتها المتهدمة الشاملة، المستترة وراء المباني التي لاتزال في بعض هيبتها ومطلة على جانبي الشارع، تحكي قصة محزنة عن واقع الحال. لقد انكمش عدد سكان المدينة من نحو ٨٠٠٠٠ نسمة في الماضي إلى مجرد ١٥٠٠٠ نسمة نتيجة للحرب، ثم هبط إلى ما دون ذلك الرقم المنخفض بكثير فيما بعد. ولا شيء سيعيد الأمور إلى ما كانت عليه سوى خط السكة الحديدية، وهو مشروع يبدو بعيد المنال بالرغم من المؤتمرات التي تعقد من حين لآخر لمناقشة الموضوع ثم تتفرق لتنساه. وفي هذه الأثناء ستظل العنبرية في خرابها، والبدو الفقراء ينصبون خيامهم البائسة في ظلال دورها الكبيرة المتهدمة راجين صدقات الحجاج. بل إن الحجاج أنفسهم قد بدأت أعدادهم تقل للكساد العالمي، الذي كانت آثاره حتمية ومبكرة ومدمرة على العمال الزراعيين في الشرق - أهم رعاة الحج.

إن الطريق الرئيس يتجه شرقاً ماراً ببعض الدور الكبيرة إلى اليسار التي تمثل مقر الحاكم وأسرته. وبعد هذه الدور نصل جسر «أبو جيدة» فوق المجرى بهذا الاسم لنصل إلى مكان التخييم المعروف بالمناخة. وهنا ينزل زوار مسجد الرسول عن محفات جمالهم حين لم يعرف الجمل منافسة السكة الحديدية بعد أو السيارات الأحدث منها. وبالرغم من السيارات، فلارتفاع الأجرة التي تطلب ممن يرغب في الانتقال في راحة، فإن كثيرين لايزالون يصلون بالوسيلة

القديمة، بالجمال، ليخيموا في الفضاء البيضوي من المناخة، أو في البيوت أو الخانات التي ظهرت حولها لاستضافة الزوار ليكونوا في حماية من تقلبات الجو. وتمثل هذه المنطقة تقريباً النصف الجنوبي من القطاع الشرقي من الأرض المسورة من المدينة، يحدها في أحد جانبيها مجرى «أبو جيدة» وشريط كثيف من البيوت المرصوصة على ضفته اليمنى. وعلى الجانب الآخر لمنطقة التخييم عدد من البيوت أقل تلاصقاً من الأخرى، حشرت حشراً ما بين المناخة والمدينة نفسها، قد أزيل جزء من السور الذي كان من قبل محيطاً بها تماماً، ليشق فيه طريق عريض، اسمه العينية، الطريق التجاري الجديد النافذ المؤدي من مخيم الحجاج إلى منطقة الحرم. إن باقي سور المدينة كامل في هذه المنطقة، لاتزال بوابته الرئيسة القديمة، باب المصري، قائمة بكل جمالها السابق من أبراج ودعامات، وزقاقها المتعرج بحوانيته المؤدي رأساً إلى البوابة الرئيسة لمسجد الرسول ﷺ، باب السلام.

وبالقرب من جسر «أبو جيدة» ناحية المناخة من مجرى السيل، تقف الكومة التركية لبيت الحكومة مع مسجد بلال، مؤذن الرسول، في أرضه. وقريباً من ذلك أيضاً مسجد آخر، يعرف بمسجد الغمامة. وما بين الاثنين كانت أسرة الخريجي النجدية التي اقترنت بتجارة المدينة قديماً واستفادت منها، قد شرعت في بناء قصر لائق بها في ١٩٣١م، أوشكت على الفراغ منه في ١٩٣٥م، لا يبزه أي سكن آخر في المدينة. وخلف المباني المذكورة أخيراً يقف بيت منفصل بنخيل وأشجار أخرى تزين تجمعه - مكتب رئيس الشرطة، وكان آنذاك موظفاً جذاباً جداً اسمه خالد. وأمام هذا، ووسط منطقة مختلطة لسوق من الأكشاك - بصفة عامة، سوق لعرض المنتجات الريفية كالفواكه، والخضراوات، واللحوم، وغير ذلك - يقف بناء يظهر الاحترام التركي للقوانين الصحية، مبنى

دائري عام (حمامات) بسقف من الحديد المعرج. وفي قبالة مكتب الشرطة، مقابل علامة الرقي هذه، يقف بناء مجلس المدينة، مركز كل النشاطات المحلية ومقر أمين عام المدينة، وهو رجل كبير السن، جذاب جداً ومهذب، سعدت آنذاك، كما سعدت بعد ذلك في زيارتي الثانية في ١٩٣٥م، بمجاذبته أطراف الحديث في مناقشة أحوال مدينته الشهيرة. وفي الطرف الشمالي الغربي من منطقة المناخة بناء آخر مخصص لأعمال الشرطة ومزين ببستان صغير من النخيل، وبعد ذلك بقليل البوابة المعروفة بالباب الصغير، يعلوها مكتب البريد والبرق. وهذا البناء في واقع الأمر يتبع المدينة نفسها، التي يخرج منها في هذا المكان ممر ضيق بين الباب الصغير وباب دمشق (باب الشام)[١] يؤدي إلى قلعة السعيدي القائمة على مرتفع يسير يشرف على منطقة المناخة من ناحية وعلى جانب طريق الشمال الكبير من ناحية أخرى.

إن قلب المدينة بطبيعة الحال هو المنطقة المسورة من كل نواحيها - بما فيها الانقطاع غير المهم المذكور آنفاً - التي تحتل النصف الشمالي، بميلان يسير من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، من القطاع الشرقي من المنطقة المسورة. وفي واقع الأمر، فإن السور الشمالي للمدينة جزء من الإطار الدائري الأكبر المستمر من طرفيها الشرقي والغربي قرب مقابر البقيع وقلعة السعيدي بالتتالي. وكما نوهنا من قبل، فإن السور الجنوبي للمدينة نفسها يسير بين هاتين النقطتين بمحاذاة الطرف الشمالي لمنطقة المناخة - فتكون مساحة المدينة في شكل معين نوعاً ما. إن مظهرها المركزي، الذي لا يبعد عن طرفها الشرقي هو بطبيعة الحال مسجد الرسول ﷺ. فهو، وإن كان قد زيد فيه كثيراً منذ أيامه الأولى،

---

(١) كذا في الأصل ويقصد «الشامي». (المترجم).

وبكل تأكيد يغطي البقعة التي سكنها الرسول ﷺ، وأقرب صحابته، وأقاربه، عندما قدموا المدينة لأول مرة في يونيو ٦٣٢م. والقول إن هذا الموقع كان مأهولاً آنذاك، فهذا لاشك فيه، لأن أصحاب الرسول ﷺ كانوا قد استقبلوا بحفاوة بالغة من أهل المدينة؛ لذا فإن في هذا القسم الشرقي من المدينة علينا أن نعين ما يحتمل أنه يشكل قرية من حجم متوسط، لم يبق منها اليوم شيء، ولا مبنى واحداً. إنه لمن المستحيل علينا تخيل شكل المكان قبل ثلاثة عشر قرناً خلت.

وبالرغم من المعلومات الكثيرة التي كتبت عن الموضوع، فإنه من العبث أن نخمن الطريق الذي سلكته ناقة الرسول ﷺ إلى المكان الذي يقوم فيه مسجده، أو الترتيب الذي كانت عليه المساكن التي كانت قائمة في المنطقة المجاورة له[1]. وبكل تأكيد، لقد كان هناك بستان نخيل صغير مواجه لجزء من الأرض الفضاء الواسعة التي بنيت فيما بعد، بينما شغلت ما تبقى منها مقبرة فيما يبدو. إن الأحجار البركانية التي تمثل القدر الأعظم من المواد المستخدمة في البناء في هذا الجزء من المدينة تعطي الانطباع بتاريخ قديم لها، ولكن أقدم تاريخ مسجل فعلاً عن أي بناء - حيث إن عدداً كبيراً منها مؤرخ - أمكنني التوثق منه هو ٧٠٦هـ، الموافق ١٥٠٦ م. فهذا كان وقف استراحة لسكنى الرجال فقط، كما جاء في النص، وبالقرب من باب الحمّام، المؤدي إلى المدينة من حي النخاولة (وهو امتداد شرقي لمنطقة المناخة)، رأيت حفريات متعلقة بالمياه الجوفية،

(١) مما ورد في هذا المجال أن هذا الموقع كان فيه بستان ليتيمين، كما أن بيت أبي أيوب الأنصاري يقع قبالة هذا المكان الذي بركت فيه ناقة الرسول ﷺ ثم نهضت وسارت قليلاً ثم رجعت وبركت في موقعها الأول نفسه، وهو المكان الذي أقيم فيه المسجد النبوي. (المراجعون).

كشفت عن قاعدة سور المدينة لعمق عشرين قدماً تحت المستوى الحالي لدرب الجنائز. إن أعلى السور الآن وفي هذه النقطة يبلغ نحواً من ثلاثين قدماً أو أكثر، فوق مستوى الشارع. ويبدو أنه كان يزاد فيه باستمرار كلما ارتفع مستوى الأرض، وإنه لمن غير المتوقع أن يكون الأساس الأصلي للسور قد كان في عمق عشرين قدماً تحت مستوى الأرض. ولعله من الأهمية بمكان -وإن أمكن- أن يحسب المرء الوقت الذي استغرقه ارتفاع مستوى أرض المدينة لخمسين قدماً مثلاً. ففي وادي نعمان، قرب مكة، غمرت عين السيدة زبيدة لعمق ١٠٠ قدم في ١٠٠٠ سنة، إن أخذ المرء ارتفاع فتحات الدخول (المانهولات) الأصلية كمقياس سليم. ولكن المرء هناك يتعامل مع واد رملي معرض لسيول موسمية غزيرة. لذا فإنه من الواضح أن ارتفاع التربة في المدينة كان بسرعة أبطأ ومحسوسة.

ويبدو أن المسجد الأصلي الذي كان الرسول قد أمر ببنائه كانت جدرانه من الطين، فوق أساسات وطبقة رقيقة من الحجارة. وإن كان ذلك هو أسلوب البنائين آنذاك، فإنه لمن الجائز ألا يرى على وجه الأرض الآن أي شيء كان ظاهراً تراه العين آنذاك. ولعل الحفريات -وعلى وجه الاحتمال- تكشف أساسات معاصرة لعصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين أو متأخرة عنه. أما أقدم البنيان القائم الآن، وكما هو ظاهر على وجه الأرض، فإنه يعود فقط لفترة متأخرة من القرون الوسطى. وإلى جانب الدار المؤرخة المذكورة أعلاه، فإن هناك أخرى في شارع الساحة، منسوبة إلى عصر الأمير المصري المملوكي قايتباي، الذي كان في أوج ملكه في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي. كما أن هناك، في الشارع نفسه، قرب بناء المحكمة الكبرى ومسكن

رئيس القضاة، بناءين لايزالان يعرفان باسميهما - دار الجنا ودار المبسمة - وإن كان مستبعداً أن ترجعا، في حالتيهما الحاليتين، لأقدم من العصور الوسطى بكثير. ولاشك أن هناك مباني أخرى، لاتزال مستخدمة، ترجع للعصور الوسطى، وإن لم يكن لأوج عصر الخلفاء في المدينة.

والحرم أو مسجد الرسول، في حالته الراهنة، عمره أقل من قرن، ذلك لأنه كان قد أعيد بناؤه بأمر من السلطان عبد المجيد بعد تدمير النيران للمسجد الذي كان قائماً آنذاك. ومادته من حجارة وردية لطيفة، بلورية التكوين، قطعت من سلسلة جبال الجماوات المجاورة للضفة اليسرى لوادي العقيق إلى الجنوب الغربي من المدينة. وربما في الوقت نفسه تم تزيين الحائط الجنوبي بالفوانيس، وكذلك التطعيم المفصل لأعمدة الروضة، ولأجزاء أخرى. وبعد إعادة بنائه على هذا النحو، وفق خطة شاملة حسب تصور الفنان، فإن المسجد الآن بمثابة المعلم الهندسي الرئيس لا للمدينة فحسب وإنما لكل الجزيرة العربية. وبالرغم من تزاحم البنيان حول الجانب الجنوبي للبناء، فإن للمسجد ميزة هي أنه يرى من عدة أماكن خارج المدينة. وفي السنوات السابقة كان المسجد قد تحول إلى حالة من الخراب الشديد نتيجة الإهمال وقلة المال لصيانته، ولكن منذ ١٩٣٤م شرع في إصلاح هذا الأمر بطلب من طلعت حرب، مدير بنك مصر، وعلى نفقته[١]. ولما زرت المدينة في ١٩٣٥م كان العمل على قدم وساق، في المآذن وبالداخل، مما جعل المسجد يبدو آنذاك أقرب لساحة بناء وورشة نجار منه لمكان عبادة. إني لم أرَ المسجد منذ ذلك التاريخ[٢]. ولكن، وبكل تأكيد، فإن الأرضية الرخامية الجديدة

(١) ما أشار إليه فيلبي هنا هو ما قامت به وزارة الأوقاف المصرية في عام ١٣٥٤هـ ببعض الترميمات اليسيرة على نفقة واردات أوقاف الحرمين في مصر وبناء على موافقة الملك عبدالعزيز. وسبق أن قام الملك عبدالعزيز قبل هذا بإجراء ترميمات عاجلة للمسجد، واستمرت الترميمات السعودية إلى أن بدأت التوسعة السعودية الرئيسة في ٢٥ شوال ١٣٧٠هـ، ثم تلاها توسعة الملك سعود والملك خالد والتوسعة التاريخية لخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز. (المراجعون).

(٢) زرت المدينة مرة أخرى في ١٩٣٨م، وآنذاك كان العمل قد قطع شوطاً بعيداً، وإن لم يفرغ منه بعد. (المؤلف).

في مكانها الآن، وكذلك الشبكية الخشبية الرائعة، التي حلت محل الستارة المزخرفة التي كانت تفصل القفص، أو قسم النساء، من سائر المسجد. في ١٩٣٥م حين منعت النساء عن مكانهن الذي كان من قبل مخصصاً لهن في المسجد، بامتداد الصف الشرقي من الأعمدة، كان عليهن أن يجدن وسيلة ما يصلين بها مع الناس، كما هو حالهن دائماً في مكة. ولعله من المفيد أن يتقصى المرء عن نشأة عزل النساء عن الرجال في المدينة، كما أنه مما يلفت النظر أنهن لايستطعن دخول مقبرة البقيع إلا ليدفن فيها. وهن أحياء ممنوعات من زيارة المقبرة، بينما هذه الزيارة للرجال جزء لايتجزأ من برنامج زيارة المدينة، بما في ذلك مقابر أولئك النسوة اللائي احتللن أماكن في التاريخ الإسلامي(١). لذا، فإن ما كانت تفعله النساء هو الوقوف في مقبرة صغيرة خارج حدود البقيع، ولكنها مطلة عليه، وتوجيه السلام المأثور.

لقد كانت زيارة القبور -وبطبيعة الحال- أبرز الموضوعات الجدلية في بداية الحكم السعودي. لذا كان رجال الشرطة يقفون في الحرم والمقبرة لمنع أي إسراف في مظاهر الشعور أمام مقابر الأعلام. ولقد كان لهدم السعوديين للقباب في عامي ١٩٢٥م و ١٩٣٥م، أثر نفسي لم يكن متوقعاً أبداً(٢). إن نسبة قبور العظام لأصحابها - ربما نحو عشرة أو أكثر - معروفة لدى المرشدين. ولكن القبور نفسها، عندما رأيتها في عام ١٩٣١م، بدت محزنة، لما كانت فيه من إهمال بحيث لا يتصور المرء أنها كانت ستجذب أحداً لزيارتها

---

(١) ليست زيارة البقيع لازمة لمن يزور المدينة المنورة، بل هي سنة كزيارة القبور في كل مكان. (المراجعون).

(٢) كان الدافع لهدم القباب هو الحيلولة دون تقديسها والتبرك بها مما يتنافى مع العقيدة الإسلامية (المراجعون).

لولا أن الزيارة كانت جزءاً من البرنامج. ولكن بعد ذلك بثلاث سنوات، يبدو أن زيارة وزير المالية، عبدالله السليمان، للمدينة قد أثمرت عن إصلاح حال القبور. ولما جئت في زيارتي الثانية كانت لكل القبور التاريخية، على أقل تقدير، حجارة في مواضع الرأس وحدود من حجارة البازلت والآن ليس في البقيع أي شيء مما قد يضل الجهال إلى تقديس القبور. لكن الأمر يختلف بطبيعة الحال فيما يتعلق بالقبور القليلة المشهورة التي بالحرم نفسه، حيث تقتصر مهام أمناء المرافق الدينية، في كل الأوقات وبخاصة وقت الحج، على حث الزوار على التحرك باستمرار لمنع أية مظاهر مفرط فيها أمام الشبك الحديدي الضخم الذي يخفي وراءه قبر الرسول نفسه وقبري خليفتيه الأولين. ولعل أهم قبرين من الناحية التاريخية في البقيع هما قبرا الخليفة عثمان، الذي قتل وهو على باب داره ينظر إلى المسجد من ناحية الشرق، والإمام مالك، أحد الأئمة الأربعة الكبار لأهل السنة. لكن هناك قبور يذكر أنها قبور زوجات الرسول التسع وبناته الثلاث اللاتي توفين في المدينة. وهناك قبر آخر، كانت تغطيه يوماً ما قبة رائعة، منسوب إلى فاطمة. ولكن يبدو مستبعداً أن تكون قد دفنت في البقيع أو في الحرم إلى جوار والدها. وليست عمات النبي مدفونات في البقيع، وإنما في الجبانة الصغيرة على الجانب الآخر من طريق نجد، المذكورة آنفاً كمكان لزيارة النساء. ويردد زوار البقيع وراء المرشد السلام المأثور لكل حالة من الحالات، ثم يقرأون الفاتحة.



٣ - الزيــــارة

في صباح اليوم التالي لوصولي المدينة جاءني الشيخ أحمد الجنيني المرشد المتمكن الذي وضع نفسه في خدمتي طوال مدة إقامتي، وكأفأته بما استحقه لذلك، وذلك ليصحبني إلى المسجد للقيام بالعبادة المستحبة، وهي زيارة الرسول ﷺ. دخلنا المسجد من باب السلام في طريقنا في الرواق ذي الأعمدة الرائعة، الذي يكون القسم الجنوبي من البناء - نحو ثلث المنطقة المسورة - إلى الروضة. وهي مختلفة عن سائر المنطقة ذات الأعمدة، وتتميز عنها بأعمدتها المكسوة بالرخام، وتقوم فوق البقعة التي كان عليها بستان صغير من النخيل مجاور لبيت الرسول، من جهته الشرقية، كان يصلي فيه في بداية رسالته بالمدينة ثم تم تحويله إلى مسجد فيما بعد. وقد قطع النخيل واستخدمت جذوعه لتكون أعمدة لتحمل سقفه المتواضع من سعف النخيل لحماية المصلين من شمس الصيف ومطر الشتاء. ويمثل كل عمود جذع نخلة أصلي، ويشكل كامل منطقة مصلى الروضة جزءاً يسيراً من حجم المسجد الكبير الآن. وفي أيام الرسول ﷺ كان المسجد بلا شك كافياً لاستيعاب كافة المسلمين في المدينة آنذاك. ففيه أم المصلين، وبجواره أقام في البيت الذي دفن فيه حين توفي. وذاك هو سر قدسية تلك البقعة، وسر الممارسة الدائمة لدى زوار مسجد الرسول ﷺ بأداء صلاتهم الأولى فيها.

وبعد فراغنا من الصلاة القصيرة الخاصة بالزيارة، جلسنا لفترة من الزمن نتأمل في المشهد، ثم نهضنا لنخرج من الروضة بجوار محراب الرسولﷺ، وبعده اتجهنا يساراً لنزور الرسول وصاحبيه المقدمين وخليفتيه وابنته

فاطمة[1]، كلاً وراء الآخر. وكل غرفة تقع وراء سياج من الحديد، يقف أمامه الزائر ويؤدي التحية المناسبة المأثورة مردداً وراء المرشد. ثم يدلف المرء إلى البقعة التي يروى أن الملك جبريل ظهر فيها للرسول ﷺ، وهي جدار به مشكاة خلف البيوت الثلاثة مباشرة ويواجهها. وهنا يدعو المرء بالبركة في دعاء مأثور يتعلق بزيارة الزائر. وعند الانتهاء منها يخرج المرء من باب النساء. وسمي بذلك -فيما يبدو- لأنه يواجه غرف زوجات النبي على الجانب الآخر من الزقاق الذي يحاذي الجانب الشرقي للمسجد. وهنا أيضاً بيت عثمان في الصف نفسه، وبالقرب منه حاجز بشبكية يؤدي إلى ما كان يوماً بستاناً - ربما بستان فاطمة، وإن لم يعد يشبه أي شيء من ذلك. وفي الطرف النائي من هذا المكان المغلق، تقع المكتبة المشهورة لشيخ الإسلام عارف حكمت[2]، وهي مستودع لمئات عديدة من المخطوطات النادرة، الفريدة التي لاتقدر بثمن.

وهذه المكتبة، التي أهم ما يميزها حجرة للقراءة، دائرية، غاية في الروعة، بها تلك الكتب النادرة مكومة في أكوام، لا قائمة في أرفف، لها أمين، عالم كبير السن، ذو جاذبية، اسمه الشيخ إبراهيم بن أحمد حمدي زاده الخربوطي، من أصل أناضولي، كان جده قد استقر هنا في ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م). وعرض عليّ بعض كنوزه. وإن حسرتي الوحيدة هي، أنه خلال زيارتيّ الاثنتين للمدينة، لم يسمح لي ضيق الوقت والالتزامات الأخرى بالاستفادة من المكتبة بالقدر الذي كنت أتمناه. فمن درر المجموعة ما يأتي :

---

(١) الواقع أن قبر فاطمة -رضي الله عنها- ليس كما ذكر المؤلف، ذكر ابن حجر عن الواقدي قال: قلت لعبد الرحمن بن أبي الموالي: إن الناس يقولون: إن قبر فاطمة بالبقيع. فقال: ما دفنت إلا في زاوية في دار عقيل، وبين قبرها وبين الطريق سبعة أذرع. ابن حجر. الإصابة: ج٨، ص٦٠. (المراجعون)

(٢) أودعت مكتبة عارف حكمت مع مجموعة المكتبات الوقفية بجوار الحرم النبوي في مكتبة الملك عبدالعزيز بالمدينة المنورة. (المراجعون).

(أ) نسخة كاملة سالمة مؤرخة بعام ٣٩٥هـ (١٠٠٥م)، لمؤلف عنوانه كتاب «الأوائل» للإمام هلال بن حسن العسكري[1]. وكان الشيخ إبراهيم نفسه قد نسخ نسخة من هذا المخطوط في ١٩٣٠م، لإمام السنوسية الراحل، السيد أحمد خلال إقامة الأخير في المدينة لاجئاً من ليبيا. وليست هناك نسخة أخرى معلومة لهذا العمل.

(ب) نسخة مؤرخة بعام ٤٦٦هـ (١٠٧٣م) لكتاب «التشبيهات» لأبي إسحاق البغدادي.

(ج) نسخة غير مؤرخة لعمل جغرافي اسمه «ذكر المسافات وصور الأقاليم» صنفه في ٣٠٩هـ (٩٢١م) أحمد بن سهل البلخي، كثمرة لرحلاته الشرقية.

(د) نسخة قديمة غير مؤرخة (يعتقد أنها من القرن الرابع أو الخامس الهجري) من طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي - وفيما يبدو، هي النسخة الوحيدة المعروفة لهذا المؤلف.

(هـ) مجلد واحد به كل صحيح البخاري (أحاديث الرسول ﷺ)، بخط جميل مؤرخ بعام ١١٦٧هـ (١٧٥٣م).

(و) مخطوط مؤرخ بعام ١٢٢٠هـ (١٨٠٥م) لإحياء علوم الدين للغزالي، بخط كاتب اسمه محمد آل مخلص الذهني.

وليست هذه سوى قلة من روائع هذه المكتبة عرضها علي الشيخ إبراهيم عرضاً يكاد يكون عفويّاً. ولقد رغبت في إعطاء هذه التفاصيل عساها تقع في عين عالم ما كفء يدرك قيمتها. أما الشيخ ابراهيم نفسه فإنه عكف من تلقاء نفسه

(١) الصواب أنه: أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري. (المراجعون).

على دراسة الأبجديات. لقد أراني في ١٩٣٥م، حين زرته في بيته في الشارع المعروف بالساحة، مجموعة من المقالات في مخطوط ضخم، عن النظم المختلفة للكتابة التي استطاع جمعها خلال استكشافاته. لقد كان لأبجديتي آدم وشيث الصدارة بينها جميعاً لأسباب تسلسلية تاريخية ظاهرة. وكم وددت قضاء بعض الوقت في فحص هذا العمل بمزيد من التفصيل، ولكن خلوتنا أفسدتها زيارات الزائرين، مما صرف الحديث إلى مناجم الذهب. لقد كان الزائران الحديثان هما السيد حسن عمران، وهو رجل ذو أفكار مستنيرة، يعيش في بيت ريفي ساحر على سفوح الحرات الملاصقة للطرف الغربي لورشة محطة السكة الحديدية، وأحمد فخري، الموظف في وظيفة إدارية من قبل السيد توتشل ، من نقابة التعدين العربية السعودية المحدودة. وكان الأخير قد عاد لتوه إلى المدينة بصحبة فان دي بول (مسلم هولندي معروف جداً، يعيش في الحجاز لفترات متقطعة من ١٩١٣م، وكان إلى عهد قريب رئيساً لشركة تحمل اسمه، في جدة) من رحلة لتخطيط طريق يؤدي إلى مهد الذهب، وهو منجم قديم اكتشفه حديثاً تويتشل (نحو منتصف الطريق بين المدينة وعشيرة. والطريق الجديد، كما حدده السيد فان دي بول، يترك طريق جدة - المدينة الرئيس في وادي بير درويش، ويلف لفة واسعة عن طريق محطة الحفيرة على خط سكة حديد الحجاز وبئر أبا الدود في وادي أم سلمة، ليلتقي بطريق المدينة - حائل مرة ثانية شرق مشهد بقليل - وهي النقطة التي يتمكن فيها الحجاج القادمون من ذلك الطريق من مشاهدة القبة الخضراء وأعالي مسجد الرسول ﷺ.

لقد كان فان دي بول آنذاك (فبراير ١٩٣٥م) مستأجراً لبيت جميل به حديقة في الجزء الضيق من وسط المدينة نفسها، ما بين البوابتين. لقد كان وقفاً معروفاً باسم السلطنة العثمانية كان قد أوقف للأبد (مع صف من البيوت تلامس طرفه

الشرقي) لمصلحة سراري سلطان تركيا الحالي. فهنا كان فان دي بول يسكن بطريقة عربية جميلة مقابل إيجار سنوي قدره ١٠ جنيهات إسترلينية يصرف مثلها في العناية بحديقته، ومعه خدمه وكمية هائلة من أباريق القهوة معروضة في بيته الصيفي بجوار جدول ماء يخرج من البئر، و قد رأيت فيه عدداً لا يحصى من الضفادع. لقد كان لتوه قد زار مهد الذهب ومنجماً آخر اسمه معدن العقيق، ووصفهما بأنهما كانا قد هجرا لامتلائهما بالماء! وليس هناك أي ماء بأي من الموضعين الآن، ولكن المنطقة المجاورة لهما بها آبار الجريسية، ومنية وريعان. إن الترخيص الذي كان قد أعطي لنقابة التعدين العربية السعودية المحدودة كان قد وقع عليه في الثالث والعشرين من ديسمبر ١٩٣٤م، وشمل منطقة على حدود الحجاز - طولها نحو ٨٠٠ ميل من الشمال إلى الجنوب، وعرضها نحو ١٠٠ ميل في المتوسط. وقد استثنيت أرض الحرمين من هذا الترخيص. ولعله من السابق لأوانه[1] الحديث عن اكتشاف " كنوز الملك سليمان " مرة ثانية، ولكن الذهب كان معروفاً كمصدر من مصادر ثروة الجزيرة العربية منذ الألف الثالث قبل الميلاد. ولربما كان المرء قد استغرب لو أن كل ما خزنته الطبيعة في جوف صخور الصحراء منذ عهود بعيدة كانت قد أفنته الجزية التي قدمتها قبائلها للبابليين، أو عمليات الملك سليمان الوهمية، أو أعمال الخلفاء الأوائل بعد ذلك.

وثمة صديق آخر، يقيم في المدينة منذ ١٩٣١م، ويسكن بيتاً بحديقة نخيل، هو الدكتور محمد حسين، الضابط الصحي الهندي المتقاعد، الذي كان قد قدم إلى جدة لأول مرة كطبيب للقنصلية ونائباً للقنصل في ١٨٩٥م، وكان من حين

(١) إن استغلال مهد الذهب لا يزال مستمراً بنجاح ولسنوات، وذلك ما شاهدته حين زرته في ١٩٣٨م. (المؤلف).

لآخر وحتى تقاعده يقوم بأعمال القنصل البريطاني في غياب القناصلة في إجازاتهم. وفي الوقت نفسه الذي كان قد وصل فيه كانت جدة في أزمة نجمت عن مقتل سابقه (نائب القنصل الهندي) والقنصل الروسي بأيدي بدو بينما كانا وقناصلة آخرين يستمتعون بالهواء الطلق على السلسلة المطلة على البحيرة الصغيرة المجاورة لبوابة المدينة. فهذا الطبيب الذي يعد كنزاً للمعلومات منذ أيام الشريف عون وخلفائه، قد استقر بالمدينة بعد تقاعده من الخدمة مباشرة، ولا يزال يعالج المرضى من الجيران وزوار مسجد الرسول ﷺ صدقة منه بلا مقابل إضافة إلى تحمله نفقات كبيرة. لقد أصبح مؤسسة مشهورة جداً في المدينة، ولا يسعده شيء قدر جلوسه مع زواره يحدثهم عن تجاربه المتنوعة. لقد كان ذا عين فاحصة ناقدة ولسان لاذع غير نمام، وربما كان ينسى دائماً أن المستوى العالي من الأداء الإداري الذي كان قد ألفه لايتوقعه المرء في بلاد كانت قد ألفت نظام الحكم التركي لقرون - من سوء الإدارة والفساد والفوضى، يشرق فيها أحياناً بعض الأفذاذ من الحكام.

وربما ليس هناك من الناس من يعرف نظام الإدارة التركية أكثر من يحيى بك، الرئيس الحالي للبريد والبرق بالمدينة. فهو غير آبه بتغير الأذواق، لايزال يستخدم سيارة فورد قديمة، (موديل T) تحمل الرقم ٤٧٢٩٠٩٨ . فهي آخر ما تبقى من ذلك النوع في الجزيرة العربية بعد أن رفضت الحكومة في ١٩٢٩م أو ١٩٣٠م ترخيص ذلك النوع من السيارات لنقل الحجاج. لقد كان يحيى قاصّاً راسخ القدم له معين لاينضب من القصص يأتي بها بأطراف أنامله. لقد كنا يوماً نتحدث عن السجاد ونعني فساد أذواق الناس في هذه الأشياء هذه الأيام. فذكّره الحديث قصة كان عليه التحري فيها آنذاك. فمنذ شهور أو أسابيع

مضت كان شخص ما قد أرسل طرداً مسجلاً من المدينة إلى استانبول وبه من العملة الورقية التركية ما يعادل ٥٠ جنيهاً إسترلينياً. ومؤخراً أعيد الطرد سالماً لأن المرسل إليه كان قد مات قبل وصول الطرد إليه. فأرسل إلى المُرسِل ليأتي ليستلم رسالته. وحينئذ اكتشف أن الطرد، وإن كان سالماً في ظاهره، فإنه كان خالياً من الأوراق المالية. وكان الختم سالماً، مما أذهل يحيى وحيَّره. ولكن مثل ذلك لم يحر ذلك الحاكم التركي في الأيام الخوالي حين جاءه شخص ما يشكو من أن صرة من الذهب كانت قد أرسلت إليه بالبريد المسجل - وهو ما لا يزال يحدث في الجزيرة العربية - اتضح أنها لا تحوي سوى قطع نقدية نحاسية. وفشل الفحص الدقيق للصرة في اكتشاف أي أثر لتلاعب في أختامها، أو خياطها أو نسيجها. وطلب من الشاكي العودة بعد يوم أو يومين. ولكن في تلك الليلة شاء حظ الحاكم العاثر أن يتلف أغلى سجاداته عنده؛ وذلك أنه، وبطريقة ما أو أخرى، شقها بآلة حادة، وانتشر الخبر في المدينة صباح اليوم التالي. وتوافد الناس لتعزية حاكمهم. ولكن أحدهم، كان أكثرهم واقعية، فجاء بأحذق النساجين في المدينة، مشهود له بمهارته الفائقة في رفو السجاد، بحيث لا يرى لرفوه أثر. فأعطاه الباشا سجادته متظاهراً بشك في قدرته على رفوها. وبعد حين من الزمن جاء الرجل بها، وكانت كأن لم يصبها سوء، فسر الجميع للنهاية السعيدة للمأساة. قال له الباشا: "والآن قل لي"، من جاءك بصرة النقود تلك لرفوها ذلك اليوم؟ ". فافتضح أمر السارق، وأعيدت النقود الذهبية لصاحبها الشرعي.



٤ - الحياة في المدينة

بجوار الحرم، ومن جانبه الغربي، قريباً من باب السلام، ساحة سوق مبلطة، تعرف بالعينية، وذلك لمجاورتها لمقر اللجنة المكلفة بالإشراف على تزويد المدينة بالماء، والتي أهم مصادرها قناة العين الزرقاء الجوفية، التي تصل العين الغنية في منطقة قبا بالمدينة وتنتهي خارج باب دمشق[(١)] بقليل، عند أطلال مسجد زكي الدين[(٢)]. وكان هناك في السابق بستان نخيل واسع، يمتد من ميدان العينية الى بوابة بذلك الاسم، مما أصبح متنزهاً جذاباً لتمضية ساعات فراغ السكان. ولكن الحاجة لمكان تتوسع فيه المتاجر، أدت بعد وقت قصير إلى تحويل البستان إلى شارع تجاري واسع بدكاكين تتقدمها شُرُفَات مسقوفة أو أروقة واسعة على جانبيه. إن اختفاء البوابة وقطاع من السور إلى جانبيها لم يسمح ببلوغ الحرم من منطقة المناخة فحسب، وإنما فسح المجال أمام المشهد الرائع للقبة الخضراء والمئذنة المصاحبة لها من بعد. وبالقرب من طرف الشارع المجاور للسور تقع المكاتب الجديدة للأخوة أبناء الخريجي، الذين كان أبوهم المسن حيّاً في ١٩٣٥م - وإن كان شيخاً هرماً آنذاك - والذين أثروا كثيراً بنشاطهم التجاري والتوكيلات الحكومية منذ مجيء الحكومة السعودية. لقد كنت ذكرت من قبل الدار الجديدة التي كانوا على وشك الانتهاء منها بجوار بيت الحكومة في وقت زيارتي الثانية. وكان أحد هؤلاء الإخوة قد استضافني في رابغ عند نزولي هناك في ١٩٢٥م، حين كانوا يؤدون دوراً مهمّاً في استمرار المؤن للجيش السعودي المهاجم آنذاك.

---

(١) كذا بالأصل. يقصد «الشامي». (المترجم).

(٢) ربما أن المقصود هو مسجد أو ضريح محمد ذي النفس الزكية. (المراجعون).

ومن ميدان العينية نفسه يؤدي شارع الساحة العريض في اتجاه شمالي غربي إلى باب دمشق[(١)] . وفيها معظم أجمل دور المدينة، وإن كان أبناء الخريجي قد جعلوا دارهم الخاصة - التي ظاهرها كالسجن وباطنها كالقصر - في الحي الشرقي، قرب باب الحمّام. لقد كان لصديقي أمين المكتبة بيت جميل في الساحة، بينما كانت الدار الأكبر والقريبة منه قد خصصت لإقامة بيجام بوبال في فبراير، ١٩٣٥م. وكذلك كان نائب بهاوالبور متوقعاً حضوره في هذا الوقت ولتتم استضافته في بيت السيد عمران - ولكني لا أعلم يقيناً في أية منطقة سيكون، وربما في الفيلا خارج ساحة السكة الحديد. لقد كان المسكن الأول ملكاً لشخص اسمه إبراهيم هاشم، وهو قريب بالمصاهرة لمستضيفي آنذاك، أسرة السيد حمزة غوث، الذين كان لهم منزل مواجه لبيت الحكومة على الضفة اليمنى من أبي جيدة. وكان السيد حمزة نفسه آنذاك في مهمة في العراق ذات علاقة بإنشاء طريق للسيارات عبر الصحراء من النجف، وبطريق حائل إلى المدينة. وقابلته بعد انتهاء مهمته في معسكر الملك في الخفس قرب الرياض، حين عاد لوظيفته العادية من بين موظفي الملك. وكان في وقت ما خلال الحرب في خدمة سعود بن رشيد في حائل، وناب عنه مرات عدة في بعثات رسمية إلى الرئاسة التركية في دمشق. وفي إحدى هذه المرات، وهو عائد إلى حائل بقافلة من السلاح والمال والمؤن، يبدو أنه احتك بجنود لورنس الذين أعلنوا قتله تخميناً منهم لا يقيناً، وغنم القافلة.

وبعد ذلك بفترة من الزمن التقيت به لأول مرة في بغداد، حيث كان قد جاء نيابة عن عبدالله بن متعب، خليفة سعود، لتستقبله جيرترود بيل بذراعين

(١) كذا بالأصل. يقصد «الشامي». (المترجم).

ممدودتين. ولكن، بعد فوات الأوان! فإن مصير حائل قد اتضح. ثم رأيت حمزة في صحبة ابن سعود بعد ذلك - وأظن ذلك كان في ١٩٣٠م، في الطائف. على أننا منذ ذلك الوقت لم نكن صديقين حميمين. لكن ابنيه، عبد القادر وناصر، كانا هما اللذين استضافاني خلال إقامتي القصيرة في المدينة في ١٩٣٥م. وكان ناصر آنذاك يوشك أن يسافر إلى إيطاليا ليتعلم الطيران، هو وبضعة شبان آخرين من الجزيرة العربية. ولكنه وأربعة أو خمسة منهم أعيدوا من مصوّع، حيث كانت الجماعة كلها قد أخضعت لبعض الاختبارات الأولية لمعرفة مدى كفاءتهم في مجالات الطيران. وهو الآن موظف لدى المنقبين عن الذهب. أما أخوه فله تجارة صغيرة في سوق الصرافة المحلية، إضافة إلى متجر صغير خارج باب المصري.

وكان قدر سكان المدينة أن يعانوا من تدهور حالة مدينتهم. إن معاناتهم أوشكت أن تمتد لجيل. وهناك أدلة كافية على أنهم انطووا على نفوسهم وشدوا أحزمتهم لمواجهة أوقات الشدة. لكن في هؤلاء المواطنين تهذباً، كالذي في الأمراء - التجار في عنيزة والرس، ومهما يجبرهم عبوس الزمان على العزوف عن الرفاهيات المستوردة، فإن بساتين المدينة الغنية تقدم ما يكفي والكثير الذي يفيض عن الحاجة من ضروريات الحياة، لا للأغنياء فحسب، وإنما للحشود الفقيرة، التي تشاركهم شرف مجاورة الرسول ﷺ. لقد كانت أياماً مجيدة تلك حين كان خط السكة الحديدية ينقل الوفير من ثمار الواحة إلى الشمال القاصي وحجاج الشمال، ويعود محملاً بحبوب حوران، وأقمشة مانشستر التي تباع بالقطعة.

ستعود مثل هذه الأيام يوماً. وإلى أن يأتي ذلك الحين، فإن المرء بمقدوره

الآن أن يشتري سطلاً كبيراً من الفاكهة الشهية وخضراوات بالجملة ببضع بنسات (إنجليزية). لقد كانت الحركة الزراعية نشطة في المدينة بصورة مذهلة في السابق، لقد كانت معظم الممتلكات الجيدة تسقى من الماء الوفير من الآبار الكثيرة بمضخات آلية، توقد بالحطب الرخيص الذي يجلب من المناطق المجاورة بأجر النقل فقط. لقد قللت الضرائب العالية على الكيروسين المستورد من استخدم الآلات التي تعمل بالزيت - وإنها لمأساة صغيرة في حد ذاتها، لن يظهر تأثيرها إلا فيما بعد. إن استخدام حطب الوقود، كاستهلاك حليب الماعز، يعني القضاء على الثروة النباتية في الأمد البعيد؛ والجزيرة العربية، دون سائر البلدان، بمطرها المتفرق والخفيف وسطح تربتها الرقيق، لاتقدر على مثل هذا الإسراف.

وفي هذه الأثناء تظل حياة المدينة تلف حول حدائقها وبساتين نخلها، لايجد سكانها سعادة أكثر من تجمعهم معاً، في جماعات صغيرة من الأصدقاء مع زائر من الخارج يأتيهم من حين لآخر، في رحلة خلوية في واحدة أو أخرى من حدائقهم الكثيرة. وبعض هذه الحدائق يجده المرء داخل السور، مما يعني أن أصحابها يقيمون بصفة دائمة في دور واسعة، في محيط من النخيل والنباتات الأخرى، بديوان ذي أعمدة، أو قاعة استقبال منعكسة في حوض ضخم مبني من الحجارة، يجري فيه ماء بئر ليروي أشجار الفاكهة، أو النخيل أو منتجات ثانوية، مثل الفصفصة، التي لها سوق رائجة دائماً، لكثرة وفود البدو بجمالهم. وخارج الأسوار شريط غزير من النخيل يلف المدينة القديمة من باب قبا في الجنوب إلى باب دمشق[1] في الشمال. وبكثير من هذه الحدائق بيوت

(١) كذا في الأصل، يقصد «الشامي». (المترجم).

ريفية كالتي داخل الأسوار ووصفناها سابقاً. ولقد قطع عدد كبير من هذه الحدائق مؤخراً لتحل محلها ضاحية واسعة تبدأ من جوار باب المجيدي إلى باب بصرى بمحاذاة الطريقين اللذين يؤدي الأول منهما شمالاً إلى قبر سيد الشهداء حمزة والثاني منهما شمال شرق إلى نجد. ولقد كانت هذه الضاحية في واقع الأمر تمثل قطاعاً رابعاً من منطقة المدينة، وفي عهد الملك حسين كان يحميها من الأخطار الخارجية سور جديد يمتد من الطرف الشمالي لسور محطة اللاسلكي (نحو ميل شمال باب دمشق)[١] إلى نقطة ما قرب البقيع. وينفذ الطريقان المذكوران آنفاً من السور الخارجي ببوابتين متواضعتين هما باب حمزة وباب التّمّار (أو باب الصدقة)، بهذا الترتيب. وداخل هذا السور مساحة واسعة من أرض سبخة عليها آثار زراعة لم تنجح تماماً، وإن كانت أشجار النخيل بها تبدو جيدة. كما أن الدور المبنية فيها كانت ضخمة المخططات - خانات للحجاج مبنية بناءً جيداً ومساكن لأولئك الذين يجدون المدينة نفسها مزدحمةً ازدحاماً لا مبرر له.

ولسوء الحظ فإن هبوط حركة الحج بدأ يزيد من حدة البؤس الذي كانت قد بدأته الحرب العالمية، وزاد من حدته ما ترتب على ذلك من صرف للنظر عن أية محاولات لإحياء خط سكة حديد الحجاز. لذا فإن الدور الضخمة الفخمة في حي المجيدي كانت في تدهور مستمر وهي تقف خاوية مهملة، فهي تبعة بلا دخل لأصحابها، وعتاب للقوتين العظميين اللتين اقتسمتا غنائم خط السكة الحديد بينهما وتركتا الحجاز يواجه مصيره.

إن السيارة الخاصة تكاد تكون ترفاً غير معروف في المدينة. وللحاكم أسطوله الخاص من السيارات، ولذا فإنه أصلح الطرق المؤدية جنوباً إلى قبا

---

(١) كذا في الأصل. يقصد «الشامي». (المترجم).

وشمالاً إلى قبر سيد الشهداء حمزة، ووضع عليها علاماتها. وكانت للسيد يحيى -وكما سبق ذكره- سيارته الفورد من النوع القديم، بينما كان لآل خريجي وناصر بن عقيل، أمين الخزينة المحلية، سياراتهم أيضاً. وفي موسم الحج -بطبيعة الحال- تتوافر سيارات كثيرة للرحلات، حين تكون في هذا المكان منتظرة إعادة من جاءت به من الحجاج إلى مكة وجدة. أما سكان المدينة العاديون، بل وبعض الموسرين، فقد درجوا على نزهات متكررة إلى بساتين النخيل الخارجية أو الأماكن التي تستحق الزيارة، فيركبون لها الحمير، وفي أحايين قليلة، الخيل والجمال. إن الحالة العامة للهبوط الاقتصادي في السنوات الأخيرة لم تشجعهم ليتخلوا عن خيول الأيام الخوالي من أجل المركبات الجديدة ذوات الناب. إن الرحلات إلى الريف تحتاج إلى إعداد جاد. لذا فإنها عادة مقصورة على فصول معينة، حين تنتقل أسرة ما إلى بستان نخيل بعيد تملكه، أو تستأجره من وكيل أو من صاحبه المقيم في مكان ناء، وتقيم فيه شهراً أو شهرين. وأثناء ذلك الوقت تكثر زيارة الناس غير المحظوظين لهم، الذين حبسهم العمل أو أي شيء آخر في المدينة، كما يقوم رب الأسرة أو أحد الذكور بزيارة المدينة لإنجاز بعض الأعمال، من حين لآخر ليوم أو يومين أو آخر الأسبوع. إن المناطق السكنية في مثل هذه الممتلكات النائية بسيطة ولكنها كافية، لكل فرع من العائلة قسمه الخاص، ولكن السمة الرئيسة المشتركة بينها هي شيء من طبيعة البيت الصيفي بجوار جدول للري أو حوض ضخم، يجلس بجواره الذكور من العائلة وضيوفهم يقطعون الوقت يتحدثون في السياسة والمشكلات الاقتصادية، يصلون في الأوقات المعلومة، وينامون وقت الظهيرة الحار، وربما في أحايين كثيرة، يستمتعون بسماع الموسيقى التي لا يستمعون إليها في الرحاب المقدسة.

٥ - واحة المدينة

لقد زرت عدداً من هذه الضياع، وقضيت ساعات ممتعة مع مضيفيّ المختلفين في مثل هذا النحو من تزجية الوقت. ويبدو أنهم يجدون متعة صادقة في اصطحاب ضيوفهم حول الحدائق، لزيارة الآبار وغرف الماكينات المجاورة لها، موضحين كيف أنهم محلياً نجحوا في تحويل ماكينات الزيت لتعمل بالغاز الناتج من حطب الوقود، بطريقة عشوائية، وباستخدام معوجة تقطير بادية الخطورة. وثمة سمة أخرى لاتقل إثارة عن ذلك هي أنهم بدلاً من استخدام كاتم للصوت، فإنهم يستغلون صوت عادم الماكينة، بأنهم أحياناً يضيفون إليه ما يجعله يصفر صفيراً معيناً، يتنبهون عن طريقه إلى أي عطل يلحق بالماكينة. لذا فإنهم ينامون ملء أجفانهم على ذلك الصوت الشارخ. ولقد عودتهم التجربة المستمرة أنه ليس هناك من شيء يقض مضجع النائم سوى الانقطاع المفاجئ لتلك الضوضاء الصادرة من الماكينة.

وليس هناك أي تنوع في نباتات حدائق النخيل تلك. وتمور المدينة بالطبع مشهورة في كل الشرق الإسلامي، لمزاياها الخاصة ولارتباطاتها الدينية معاً[1]. فالمشمش، والعنب، والخوخ وغيرها من الفواكه وفيرة في مواسمها، وكان بالإمكان تحسينها بالفلاحة الماهرة. وزهور البساتين العادية ليست كثيرة وإن بدأ الاتجاه مؤخراً نحو زراعة المزيد منها. فالورود والياسمين محبوبة جداً، وتزرع بكثرة لرائحتها، ونبات الحناء هو المفضل، يبلغ في ارتفاعه ارتفاع الشجر أحياناً، وهو مفيد أكثر من كونه للزينة. وربما كنت قد جئت في وقت سابق

---

(١) من فضائل تمر المدينة قول النبي ﷺ : (من تَصَبَّح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر). رواه البخاري ومسلم. (والعجوة من تمر المدينة). (المراجعون).

لقدوم الطيور المهاجرة في زيارتي في ١٩٣٥م. أما الطيور المقيمة فليست كثيرة التنوع أو مما يثير اهتمام المرء. والبلبل، واسمه النّغري، من أكثر طيور المدينة، يسمع تغريده في كل الأوقات، وهو طائر القفص المفضل في الحجاز. ويمكن تدريبه على الغناء، وطائر كهذا، يمكنه تعلم الغناء، يدر ربحاً كبيراً في مكة وجدة. والمجبّية هذا موسمها، وهي مغنية أخرى ترى في البساتين. ولكن يقال إنها لاتعيش في الحبس. والوروار كثير أيضاً مثلما أنه جميل. ويضع صبيان المدينة الأفخاخ للقهد، وهو الحجل الجبلي، ويقال إنه كثير في التلال المجاورة. أما الطيور الأخرى، كالغراب، والحدأة، والنسر المصري، والعوسق، والقبّرة، وفصائل أخرى من آكلات القمح، فإنها معروفة بكثرة في هذه المنطقة. وفي وقت زيارتي في ١٩٣١م كانت المدينة في أعقاب غزو من الجراد، لكنه لم يكن شديد الضرر هذه المرة. وبهذه المناسبة، فإن كل منطقة المدينة، من قبا إلى جبل أحد، كمكة، منطقة حرام، ملاذ لكل المخلوقات المتوحشة. فلا صيد مباح فيها. وبالرغم من ذلك، فلا الطيور ولا الحيوانات كثيرة هناك بصورة واضحة. ومن الحيوانات المتوحشة، يقال إن الفهد موجود في المنطقة المجاورة لجبل البيضاء، وكذلك فإن الوعل غير قليل في الجبال المحيطة، بينما تكثر الأرانب الخجولة. لكني لم أر غزالاً فيما جاور الواحة مباشرة، وإن كنت رأيت غزالتين أليفتين تطوفان شوارع المدينة حين كنت فيها - يجلبها البدو من الصحراء، وهي مرغوبة جداً كحيوان أليف منزلي.

إن منطقة المدينة، وحسب التعريف الموروث لها، تمتد من اللابة[1] إلى الغابة. والأخيرة غابة كثيفة من الطرفاء في الطرف الشمالي القصي للواحة في

---

(١) اللابة: الحَرَّة. (المراجعون).

البطن الرملي الواسع لوادي العقيق، حيث يلف غرباً أسفل النتوء الأخير من جبل أحد ليلتقي بالقناة الكبرى، لوادي الحمض، الذي كان داوتي قد اكتشف منبعه في جبال الحرات في خيبر. ومن هذه النقطة تمتد الواحة جنوباً نحو عشرة أميال إلى خليج في الحرات الواقعة بقرب قبا، إلى الجنوب الشرقي منها. ويشكل هذا الخليج رأس مثلث متساوي الساقين، قاعدته واقعة بمحاذاة القاعدة الجنوبية لجبل أحد تقريباً، وعرضه نحو خمسة أميال. ووراء هذه القاعدة، فإن وادي العقيق، الآتي من الجنوب الغربي، ووادي شعب أبي جيدة، الآتي من الجنوب مخترقاً منطقة المدينة، ووادي قناة، الآتي من الشرق بمحاذاة أسفل جبل أحد، تكون جميعها بروزاً مثلثاً جهة الشمال عرضه نحو ثلاثة أميال. ويقع القطاعان الجنوبي والأوسط من الواحة حتى "الخندق" التاريخي في حوض يسده من الغرب والجنوب والشرق فيض من الحرات القديمة. وشمال الخندق يمتد القسم الأوسع من المنطقة من سلسلة الجَمَّاوات[1] ووادي العقيق من الغرب إلى امتداد شريط الحرات من الشرق بما يكاد يصل سفح جبل أحد. وتنتشر في هذه المنطقة مزارع متفرقة، ولكن الشريط الرئيس من بساتين النخيل الشمالية، التي تعرف جميعها باسم واحد هو العيون، يحاذي الضفة اليمنى لوادي قناة تحت طرف جبل أحد حتى ملتقى هذه القناة بوادي العقيق، ثم بعد ذلك يمتد شريط كثيف من النخيل على جانبي الوادي حتى منحناه غرباً. ومنذ عهود قديمة كانت الواحة مزدهرة بسلسلة من القنوات الجوفية، تغذيها عيون غطتها الحمم البركانية المتدفقة، إضافة إلى الآبار التي حفرت في كل من الحوض الجنوبي وأنهار الأودية.

---

(١) هي جبال الجَمَّاوات وهن ثلاثة: (جماء تضارع، وجماء أم خالد، وجماء العاقر- أو العاقل). (المراجعون).

وفي هذا المكان، تحت سفح جبل أحد بعينه، وفوق مجرى القناة، كانت المدينة القديمة لليهود، يثرب[1]. إن أطلال أول مستوطنة لليهود في المنطقة، وقد فصلها عن جبل أحد شريط كثيف من النخيل المزدهر - تتخللها البيوت الضخمة لأصحابها، المبنية من الحجارة - مدفونة الآن (ليس بعمق كبير) في الرمال والطين اللذين قذفت بهما سيول قرون طويلة، ويمكن متابعتها بسهولة على جانبي مجرى السيل لنحو ميل، أو شيء من هذا القبيل، إلى الغرب من قبر سيد الشهداء حمزة. والمنطقة التي تغطيها ليست واسعة.

أما أسوار المدينة وبيوتها، فقد استخدمها الناس خلال العصور كمحجر تجلب منه الحجارة للمباني التي تشيد من حين لآخر في المنطقة المجاورة. إن الحفريات التي قام بها البناءون كشفت عن الحجارة الأصلية هنا وهناك. وما عدا ذلك فليس هناك ما يعثر عليه على السطح، الذي تجولت فيه بلا طائل في مناسبات عدة. إن رحاءين مصنوعتين من حجر الحرات محفوظتان الآن بالمتحف البريطاني. ولقد رأيت في بيوت عدد من سكان المدينة بعض بقايا الأواني المنزلية قيل إنه قد عثر عليها في القرى التي سكنها اليهود. وذلك كل ما تبقى ليحدثنا عن الاستيطان اليهودي في هذه المنطقة، الذي ربما كان قد بدأ في بداية العصور الميلادية، حين كان هادريان قد أجلى بني إسرائيل عن فلسطين (١٣٦م). ولم يدم الاستيطان كثيراً بعد محمد ﷺ، الذي شهدت سنواته في المدينة طرد قبيلتين من اليهود - بني النضير وبني قينقاع - والقضاء على

---

(١) لم تكن يثرب القديمة سكناً خاصاً لليهود كما يزعم المؤلف وإنما كان اليهود جزءاً من سكانها، إلاّ أن غالب سكان يثرب كانوا من العرب الوثنيين وغيرهم، وتشير الروايات التاريخية إلى أن يثرب أسسها رجل من أحفاد نوح -عليه السلام- وروايات أخرى تذكر أن العماليق أسسوا يثرب. انظر: عبدالباسط بدر، التاريخ الشامل للمدينة المنورة، الجزء الأول، ص ص١٤-٤٠. (المراجعون).

الثالثة بني قريظة لغدرها وتواطئها مع العدو في غزوة الخندق. إن هذه القبيلة التي ظل اسمها وحدها باقياً في حرة قريظة[١]، يبدو أنها كانت تسكن الطرف الجنوبي للمنطقة، حيث ترى آثار قريتها في العوالي، قربان وقبا. ففي قربان أطم، وهو كومة من الحجارة أعلاها مسطح نوعاً ما، تصعب معرفة الغرض منه بالتحديد. إنه ليس عالياً العلو الكافي ليكون برج مراقبة، ويكاد يكون أصغر من أن يكون بناءً، وإن كان مغرياً للمرء أن يحسبه لا بناءً فحسب وإنما معبداً يهودياً محلياً.

وهناك ركام آخر مشابه له يقع إلى الشمال، في طرف الحرات، قريباً من مقبرة علي العريض ومسجده. فهذا لايزال يعرف باسم يهودي، مرحب، الذي ربما كان ذلك الشخص نفسه الذي سقط عندما هاجم المسلمون خيبر، التي كان قد أوى إليها بعض بني النضير بعد إجلائهم عن المدينة. والمسجد الحالي تحيط به منطقة واسعة من الأرض الصالحة للزراعة، ويبدو أنها كانت بها آبار أكثر بكثير من العدد القليل الموجود الآن. ولا يبدو لي أن هذه المنطقة كانت مركز بني النضير الذي كان لهم ممثلون مقيمون في المدينة نفسها. ويبدو أن يثرب كانت موطناً للقبيلة الثالثة، بني قينقاع، الذين كانوا أقل حرصاً على الزراعة منهم على الحدادة، التي كانت لهم فيها شهرة. لقد كانوا ذوي علاقة بالعرب الخزرج، الذين كانوا يملكون البساتين الغنية والحقول في القطاع الشمالي من المنطقة. ويقال إنهم أعانوا جيش المسلمين في معركة أحد[٢]. لقد

(١) حرة بني قريظة وتسمى حرة واقم، تقع شرقي المدينة المنورة. (المراجعون).

(٢) المشهور والراجح في كتب السيرة أن الرسول ﷺ أجلى بنو قينقاع من المدينة بعد معركة بدر، وعلى هذا فلم يكونوا موجودين في المدينة عندما وقعت معركة أحد. وهناك رواية تذكر أنهم كانوا موجودين وأنهم خرجوا مع عبدالله بن أُبيّ بن سلول، لكن الرسول ﷺ عندما علم بخروجهم أعادهم وقال لا نستعين بالمشركين على المشركين وعلى كلا الروايتين لم يحصل منهم مشاركة أو إعانة للمسلمين في معركة أحد (المراجعون).

كانوا هم أول من أجلوا عن المدينة من اليهود، فنجوا بذلك من مصير أسوأ انتظر إخوتهم الذين كانوا في الجنوب، والذين كان شأنهم شأن بني النضير، في ولاية الأوس وحمايتهم. لذا، فبينما هاجر بعض بني النضير إلى خيبر ليجربوا عناية الله مرة ثانية بنتائج مهلكة[1]، فإن بني قينقاع نفضوا تراب الجزيرة العربية عن أرجلهم نهائياً وعادوا من حيث كانوا قد أتوا أصلاً - سوريا وفلسطين. لقد كانت القرون الثلاثة عشر كافية لإزالة كل آثار سطحية للاستيطان اليهودي؛ وعرب اليوم لايشجعون دراسة الحقبة اليهودية في تاريخ المدينة. وسيمضي وقت طويل قبل أن يبدأ الجاروف في الكشف عن تلك الأسرار. وقل أن يدرك الزائر لقبر حمزة أنه على مرمى حجر تقريباً من العاصمة القديمة لليهود[2].

لقد كانت موقعة أحد في ٦٢٥م، بعد ثلاث سنوات من ترك الرسول ﷺ لمكة، وعلى مرأى من حصون اليهود في واد على شكل إسفين (وتد) يهبط من جبل ضيق في قلب الجبال إلى وادي قناة. وكانت قريش الغازية قد تبعت وادي العقيق منحدرة إلى السهل حول يثرب، بينما كان جيش النبي ﷺ -وتصدياً لتهديدهم- قد سار من المدينة ليتخذ موقعاً في وادي قناة بحيث أصبحت ميمنته مرابطة على الأطراف الدنيا من جبل أحد. وهناك مسجدان، يعرفان باسمي مسجد الدرع والمستراح، في وسط الطريق ما بين المدينة وميدان المعركة يخلدان المكانين اللذين كان الرسول ﷺ قد توقف فيهما ليلبس درعه

---

(١) الصواب أن الرسول ﷺ أجلى بني النضير بعد أن تآمروا على المسلمين، بل إنهم حاولوا اغتيال الرسول ﷺ عندما طلب منهم المشاركة بدفع دية قتيلين. (المراجعون).

(٢) سبق التعليق على ذلك حيث بينا أن اليهود سكنوا في هذه المنطقة ولم يؤسسوها، ولم يكونوا أصلاً فيها. (المراجعون).

أولاً وليستريح. وبعد هذين يدخل المرء بستان نخيل القرية، التي نمت بمحاذاة الضفة اليسرى للوادي حول البقعة المسماة قبة المصرع، حيث قتل حمزة ودفن بعد المعركة. أما قبره الحالي، الذي كان قد نقله إليه العباسيون، فإنه على الجانب الآخر من مجرى السيل، وكانت تغطيه قبة حتى هدمها السعوديون في ١٩٢٥م[١]. وبقي القبر وحده ليكون معلماً على البقعة، بناءً بسيطاً من حجر الجرانيت، نحو ثلاثة أقدام في ارتفاعه، مقبب السطح بشيء يسير.

وبالقرب منه سوران من الحجارة يحتويان على رفات شهداء المعركة الآخرين، وقبر واحد لعقيد بن أبي نماس[٢]، وهو من الأشراف، كان والي المدينة أيام العباسيين، وخص تخليد ذكرى حمزة ومعركة أحد باهتمام خاص. وقريباً من هذا الموضع يقوم مسجد الثنية وحوضها، اللذان يخلدان المكان الذي كان قد جرح فيه الرسول ﷺ في وجهه، ففقد إحدى ثنيتيه. إن الحوض يحظى بتعظيم خاص، وهو مليء دائماً بماء صاف يأتيه من عين، إلى جانبها حمام للزوار من الحجاج. وهناك حوض آخر قريب أيضاً، كانت تغذيه قناة مسقوفة في الماضي، جفت الآن. وعند صعود الممر الضيق في الجبل يجد المرء موقعاً أو موقعين متعلقين بالمعركة. أحدهما مسجد - مسجد التفسح أو الغسل - حيث غسلت جروح الرسول ﷺ وهو ينسحب إلى المكان العلوي الضيق من الممر الجبلي، والآخر مسجد صغير اسمه الطواقي، الذي يخلد ذكرى المكان الذي ضاعت فيه عمامة الرسول الملفوفة حول خوذته. والثالث كهف طبيعي، نحو ١٠٠ قدم على الصفحة المنحدرة من التل، على الجانب الأيمن (والمرء ينظر إلى مصدر الماء) كان قد أوى إليه الرسول ﷺ مع جماعة من أصحابه حتى زال خطر

---

(١) هدمت القبة لأنها كانت مدعاة للتقديس ومن البدع التي نهى عنها الشرع. (المراجعون).

(٢) لم نتمكن من التعرف على هذا العلم بوصفه أحد ولاة المدينة في العصر العباسي. (المراجعون).

أي هجوم آخر من قريش بعد انسحابها. ولقد حفرت درجات ليرقى بها الحجاج زوار الكهف، وفتحته نحو قدمين، وارتفاعه نحو ستة أو سبعة أقدام. وبهذه المناسبة، فإن جنديين يقفان باستمرار بجوار قبر حمزة لمنع أي عمل مفرط فيه غير لائق بالزيارة. فهذه هي العلامات الظاهرة لموقعة أحد، التي أثمرت عن نتيجة غريبة، هي انسحاب المنتصرين، دون أية محاولة منهم لمواصلة جهدهم وتحقيق انتصارهم الشامل[1].

(١) أحداث معركة أحد في السنة الثالثة من الهجرة معروفة في كتب السيرة، حيث انتصر المسلمون في بدايتها، لكن نزول الرماة، الذين طلب منهم الرسول ﷺ عدم ترك مواقعهم حتى لو انتصر المسلمون، أدى إلى هزيمة المسلمين بعد أن أخذ المشركون مكانهم فوق الجبل. (المراجعون).

٦ - جبل أحـــد

إن أحداً -وحسب ما ورد في الأثر- أحد جبال الجنة السبعة[١]. ومن البقية الأخرى، أربعة في منطقة مكة، هي أبو قبيس، وثور، والنور والرحمة (في سهل عرفات). والسادس رضوى، الذي يطل بنحو ٦٠٠٠ قدم، أو ربما أكثر من ذلك، على ينبع، والسابع ورقان، وهو جبل حقيقي أيضاً غير بعيد، إلى الجنوب الغربي من المدينة، في الطريق إلى رابغ. إن أنهار الحمم البركانية، القديمة والحالية، التي تراكمت في فترات عدة حتى وصلت طرف حوض المدينة، يبدو أن مصدرها كان مكاناً ما قريباً من الأخير هذا، ولكني لم تتح لي الفرصة لفحص هذه البقعة من الأرض بنفسي. إن أجمل منظر عام، على الإطلاق للمدينة يمكن أن يراه المرء هو ذلك الذي يتحقق من قمة جبل أحد، التي يقوم فوقها بناء مربع من الحجارة يطلى بالأبيض أحياناً اسمه قبة هارون.

إن هذه البقعة تشرف على الأرض تحتها من ارتفاع نحو ١٥٠٠ قدم، وبذلك تكون ٣٥٠٠ قدم فوق سطح البحر تقريباً. إن الأشخاص الأكثر طاقة في المدينة عليهم أحياناً مجابهة المهمة الصعبة، لبلوغ قمة الجبل. ولكن قبر هارون ليس في برنامج زيارة الحاج. لذا فإنه لا تكثر حوله أية زيارات على أي حال هذه الأيام. وأعتقد أنه يحق لي أن أدعي أني أنا الأوربي الوحيد الذي وصل (أو حاول أن يصل) القمة. ففي وقت زيارتي في يونيو، ١٩٣١م، أسعدني الحظ برفقة رجل كان أقرب إلى السبعين منه إلى الستين، كان قد طلع الجبل قبل نصف قرن تقريباً، ولم يفقد شيئاً من طاقته البدنية خلال كل هذه الفترة

---

(١) يشير المؤلف إلى حديث موضوع. انظر: الأحاديث الواردة في فضائل المدينة للدكتور صالح الرفاعي، ص ص٥٧٢-٥٧٩. ومن فضائل جبل أُحد الثابتة قول النبي صلى الله عليه وسلم: (هذا جبل يحبنا ونحبه) رواه البخاري ومسلم. (المراجعون).

بعد، اسمه محمد السقاف، الذي كان قد عاد مؤخراً إلى الحجاز بعد أربعين سنة من الإقامة في القسطنطينية وغيرها في الخارج. وكان معنا خادم يحمل قربة ماء لسقينا في القمة فيما لو كان الحوض الحجري الصغير الموجود في القمة خالياً من الماء. وقد كان كذلك فعلاً.

وكنا نحن الثلاثة بعد زيارتنا لقبر حمزة بالسيارة وصعودنا الوادي السحيق لنحو ميل بالسيارة أيضاً، ترجلنا في مكان داخل الحاجز الجبلي حيث تنحدر الصخور انحداراً عمودياً تماماً فوق الوادي الرملي في سلسلة من الخوانق الضيقة. لقد كان الجو حاراً جداً بكل المقاييس في ذلك الوقت من السنة، ولكن كل كتف من الجبل أو طبقة منه، أمتعتنا بلمحات رائعة من السهل الغني أسفلنا، بالمآذن الرائعة الأخاذة والقبة الخضراء لمسجد الرسول ﷺ كما لو أنها خارجة من سجادة خضراء - رءوس بساتين النخيل المحيطة بها. وصعدنا الجبل في تأن، بل كنا نجمع نباتاته الجبلية ونحن نصعد، والتي لم يزل السقاف المسنّ يذكر أسماءها المحلية التي عرفها في طفولته، حتى وصلنا القمة فيما يقل عن ساعتين على الأرجح، بعد سير مضن ليس فيه سمة من سمات تسلق الجبال. وهناك، بعد قليل من الطعام والماء لإنعاشنا، ظللنا هناك ما يزيد على الساعة تقريباً نتأمل منظراً لايقل في بهائه عن أي منظر آخر في الجزيرة العربية.

وفي قلب هذه اللوحة تماماً وقف المسجد النبوي والمدينة، في إطار من النخيل، ومحاطين بيدين صارمتين من الحمم البركانية المنتشرة، التي يراها المرء من هذا المكان منتشرة جنوباً وشرقاً في فضاء لاتحصره العين. ففي الشرق يمتد منها لسان ليدخل بين منطقة المدينة ووادي العقيق، بينما كان ظهرها كله مكوناً من السلسلتين البلوريتين لعَيْر والجَمَّاوات، اللتين زيدتا نحو الشمال بجبلي

حبشي وشظف المنخفضين البازلتيين، اللذين يتعرج خلالهما خط السكة الحديدية في طريقه شمالاً، عابراً وادي العقيق بقنطرة منخفضة قريبة من المطار التركي القديم في سلطانة. ومن الشرق، تحت سفح جبل أحد مباشرة، ممر ضيق بينها وبين المد المتحجر من الحمم، يسير فيه الطريق المتجه شرقاً، إلى حائل، والقصيم وبغداد، فوق سلسلة من القمم الصحراوية. وإلى الشمال من القمة التي كنا واقفين عليها انبسط وادي نقمي الرملي، وخلفه الأسوار العالية من وَعيْرَة[1]، وعيرية[2] وجبل البيضاء، والذي يلتقي بوادي العقيق في الطرف النائي لأحد بين زراعة الزبير المروية بالبئر، ونخيل الغابة وطرفائها. ففي هذا الإطار الرائع يقع حوض المدينة الخصب : فهنا رقعة واسعة من ملح أبيض متبخر، في خلفية من النخيل المتلاصق ؛ وهناك مجموعة من الحقول، كل واحد منها ملتف حول بئر ؛ ثم الأنهار العريضة من بطون السيول، مانحة الحياة، كلها متجهة لتلتقي كالسيف في الفرجة الضيقة في الشمال، التي تنحت خلالها طريقها إلى البحر البعيد.

وهكذا كان المنظر أمامنا - مهد لعقيدة عظيمة، يدين بها ثلث الجنس البشري : وعاء لحركة إنسانية عظيمة أثرت تأثيراً عميقاً في تاريخ ثلاث قارات بين المحيطين الهادي والأطلسي. ولكن ما كان أهون أن تسير الأمور في غير

---

(١) وَعيْرَة : اسم جبل شرقي جبل ثور، وهو أكبر من جبل ثور، وأصغر من جبل أحد -وجبل ثور يقع خلف جبل أحد وهو غير جبل ثور المشهور بمكة- الفيروز آبادي، المغانم المطابة في معالم طابة ص٤٣٠. (المراجعون).

(٢) لم يذكر في معاجم البلدان المعروفة موضع باسم عيرية، أو وعيرية، وإنما ذكر الفيروز آبادي عن عرَّام قوله : وعير جبلان أحمران عن يمينك وأنت في بطن العقيق تريد مكة. ونقل أيضاً عن بعض أهالي الحجاز أن بالمدينة جبلين، يقال لأحدهما عَيْر الوارد، وللآخر عير الصادر، وهما متقاربان. انظر المغانم المطابة ص٢٨٨. ونقل في هامشه عن وفاء الوفا أنهما يسميان : عيرين. (المراجعون).

مسارها. فبشيء يسير من قسوة الطبيعة، وتقدم يسير من النهر الذائب من جوف الجبل - لكان السهل قد تأثر بالمصير القاتم الذي يحيط به. ولم تكن المدينة ستحيا لترى عقيدتها الوليدة. ومرة أخرى لو أن ذلك المد لم ينحسر قبل بلوغه سهول فرنسا البعيدة، ويلفظ أنفاسه عند حاجز جبال البرنيز[١]، لكانت ديانة محمد ﷺ قد بلغت باريس ولندن. ولكانت كنيسة إثلبيرت، شأنها شأن أياصوفيا بعد ذلك بعدة قرون، قد وجهت وجهتها نحو القبلة في مكة، ولساد الإسلام أوربا. ولكن ذلك لم يقدر. بينما أعادت المدينة -التي نورت لفترة وجيزة بدورها الذي قامت به- لمكة حقها الشرعي كمولد مضافاً إليه ولاء الشرق. إنه لمن العجيب جداً أن تأسر هذه المدن الثلاث الواقعة في خط طول واحد من أرض صحراء خيال كل العالم تقريباً وتستحوذ على ولائه. ومن الثلاث كانت المدينة أكثرها معاناة من غوائل الدهر وأقلها تغيراً. إن أموال محبي القدس ومعجبيها طورتها حتى أخفت معالمها الأصلية، أما مكة التي عليها استقبال آلاف الزوار في أوديتها الضيقة، في أوقات معلومة، فإنها غدت ضاحية واسعة مختلطة -لبنائها الرئيس- بسكان خليط، يسعى المرء بينهم بلا طائل بحثاً عن أولئك السكان القدامى الذين كانوا قد أخرجوا الرسول ﷺ من بينهم ثم استقبلوه بالترحاب ليدخلوا في الدين.

عدنا إلى قبر حمزة من الطريق نفسها التي كنا قد سلكناها لصعودنا. ولم أجد الوقت إلا في زيارتي الثانية في ١٩٣٥م لمتابعة وادي قناة حتى الغابة التي

(١) تعد جبال البرنيه -جنوب فرنسا بنحو ثلاثين كيلاً- أقصى نقطة وصلها الفتح الإسلامي، بقيادة عنبسة بن سحيم الكلبي الذي قتل هناك سنة ١٠٧هـ. (المراجعون).

يستحيل اختراقها. وإلى تلك النقطة، فالطريق سالكة للسيارات، ولكن محاولات التوغل أكثر من ذلك انتهت بكارثة. فالسيارة، التي كان عليها السير في المسافات الضيقة بين أشجار الطرفاء، استحال التحكم فيها، فتوحلت في بقعة من الرمال الناعمة. ولم نتمكن من إخراجها في نهاية الأمر إلا بمساعدة بعض الزراع السود، العاملين في إحدى بساتين النخيل المجاورة. وفيما عدا أشجار النخيل المتلاصقة التي ذكرناها من قبل - ولكل بستان اسمه الخاص به - فإن الظاهرة الوحيدة التي تلفت نظر المرء في هذا الجانب الأسفل من الوادي حوض طبيعي كبير، مساحته نحو ١٠٠ خطوة، غير عميق هو أم سديرة. ويقال إنه يمتلئ كله حين تكون السيول المتجمعة فيه كثيرة. ولكنه كان جافاً حين زرته. إن الوادي هنا عرضه نحو ثلاثة أميال ما بين سلسلتي الجبال على جانبيه، ويتكون من المجاري الثلاثة لحوض المدينة. وعلى بعد ميل أو نحوه فيما وراء أقصى نقطة تمكنت من بلوغها، يلتقي به وادي نقمي، الذي يمتد بمحاذاة الجانب الشمالي من أحد. وبعد ذلك بمسافة، وقبل بلوغ محطة السكة الحديدية بالحفيرة، يلتقي المجريان المتحدان بوادي الحمض، الآتي من بين التلال المحيطة بجبل البيضاء، ليواصل سيره بذلك الاسم إلى البحر.

وبين هذا الوادي والخندق أرض واسعة منبسطة نوعاً ما، تفرقت فيها بساتين، لبعضها أهمية لما اقترنت به من أشياء تاريخية أو موروثة. وكنا قد ذكرنا مطار سلطانة الواقع على الضفة اليسرى من مجرى وادي العقيق. لقد كان مهجوراً منذ الحرب. ولكن في ١٩٣٦م استأنف المهمة التي كان الأتراك قد بنوه من أجلها، حين زارته طائرات شركة بنك مصر، لترى مدى إمكانية تقديم خدمات جوية للحجاج المصريين. فالرحلة إلى جدة أمكن قطعها في

ساعتين، مقارنة ببرنامج اليومين بالسيارات، وهو نفسه الذي يقارن برحلة الأحد عشر يوماً بالجمال. لقد ثبت بما لايدع مجالاً للشك إمكانية توفير خدمة جوية؛ ولا شك أن الأغنياء من الحجاج سيزورون مسجد الرسول ﷺ بهذه الطريقة في المستقبل القريب. في واقع الأمر، تشرفت الأميرة خديجة عباس حلمي، أخت خديوي مصر السابق، في مارس من العام نفسه، بأن تكون أول من يحج بالطائرة، مقلعة من جدة إلى المدينة، ومنها إلى مصر.

وغير بعيد من سلطانة تقف أطلال حصن، يبدو كأنه من العصور الوسطى، مسمى باسم سعيد بن العاص، القائد المشهور للجيوش الإسلامية المبكرة، الذي قاد الجيوش لفتح مصر بعد وفاة الرسول ﷺ[1]. إنه مبني بناءً صلباً من قطع مربعة من الحمم البركانية، وله برج دائري في الركن الشمالي الغربي، ويمتد لنحو أربعين خطوة من الشمال إلى الجنوب، ولثلاثين خطوة من الشرق إلى الغرب. وربما كانت به ثلاث أو أربع غرف وفناء واسع، يقع في نصفه الجنوبي، للجمال والخيل الخاصة به. ولأنه يشرف على مسيل وادي العقيق، فإنه مكان ربما اختير لأسباب دفاعية في زمن الرسول ﷺ ليحول دون سلوك جيوش مكة لهذا الطريق السهل. فإن كان الأمر كذلك، فإنه لابد وأنه اختير بعد معركتي أحد والخندق اللتين كان الغزاة قد جاءوا إليهما بهذا الطريق. ويبدو، على الأرجح، أن هذه الأطلال لحصن العهد العثماني المتأخر، في الثلاثينات من القرن الماضي، حين كان خالد باشا مشغولاً بمجابهة مناكفات بني محمد، من بني سالم حرب. وعلى أية حال، فإنه لهذا الوقت من الزمان

(١) الصحيح أن الذي كان له فتح مصر في خلافة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- هو عمرو بن العاص -رضي الله عنه- وليس سعيد بن العاص. (المراجعون).

ينسب حصن لؤاب، الذي يحتل موقعاً بارزاً من بين أطلال يثرب، وفيه برج دائري جميل بالقرب من بستان نخيل المدنية، المعروف بشقيم الذيب، أو مجرد حصن خالد. فهذه، مع حصن سعيد بن العاص، وحصن آخر في قرية عروة، إلى جانب برج عصيفر وحصن آخر كبير على الحرة في الطريق إلى قبا، كلها تمثل سلسلة متصلة من مواقع دفاعية تواجه جبال بني محمد إلى الغرب، ابتداءً من جانبي أحد، حيث يقوم على أرض مرتفعة في كل منهما حصن، إلى ما وراء طريق رابغ.

وفي وسط هذا السهل يقوم مسجد رومه، وهو مكان مفضل لزيارة الحجاج. وقريباً منه، وعلى لسان ممتد من الحمم البركانية، مسجد القبلتين. ولعله أشهر أثر منفرد في كل منطقة المدينة. إنه بناء صغير، لايمكن الاعتقاد بأنه كان على حالته تلك منذ زمن الرسول ﷺ. ولكن من الجائز أنه يقوم في موقع مسجد قديم منذ ذلك العهد، حين كان الناس من المنطقة المجاورة له يصلون متجهين نحو بيت المقدس حين نزل الوحي على محمد ﷺ بتحويل القبلة إلى مكة. فتحول المصلون نحو مكة فوراً، وعمل محراب جديد في الحائط الجنوبي، بينما بقي المحراب الأول في موضعه، وإن لم يستخدم بعد ذلك. لذا يعرف المسجد بمسجد القبلتين، اللتين يعرضهما المرشدون للزوار بكل فخر. والمحراب الشمالي متجه جنوباً حسبما أظهرته بوصلتي، بينما اتجاه المحراب المتجه نحو مكة ينحرف مقدار خمس درجات جنوب شرق.



٧ - مسجد قباء

إن هذا التحول في القبلة يفترض فيه أنه حدث في آخر السنة الأولى من الهجرة (يقول البعض في الشهر الحادي عشر منها) . ولكن لايبدو أن هناك اتفاقاً حول المكان الذي وقع فيه هذا التحول . يقول البعض إن الرسول ﷺ كان يصلي في مسجده نفسه (الحرم النبوي)، متجهاً نحو بيت المقدس كعادته آنذاك، واستجابة للوحي، استدار للخلف واتجه نحو مكة، وفي هذا مشكلة صغيرة وهي أنه سيكون قد أكمل باقي الصلاة وظهور المصلين نحو الإمام[١] . وثمة تفسير أيسر يقدمه مسجد قباء، الذي يعرف عنه أن الرسول ﷺ كان يصلي فيه مرات عديدة، والذي لا يزال يحتفظ بموضع قبلة بيت المقدس -وإن لم يكن محرابها كما في مسجد القبلتين- وبقبلة ثانية جنوبية، تسمى «كشف مكة»، تواجه البقعة التي يقال إن الرسول تجلت له فيها الكعبة والمسجد الحرام فعلاً، بمعجزة. وهذه المشكاة في الطرف الشرقي من الحائط الجنوبي، الذي يقع في وسطه المحراب العادي الذي يؤم منه الإمام المصلين في الصلاة، وعلى المصلين صلاة ركعات السنة أمام قبلة «الكشف» .

ويمكن أن يكون مسجد قباء هو مكان هذا التحول المهم ويعضده أثر آخر في المسجد، يعرف بمنزل الآية، ويعتقد بأنه المكان الذي تلقى فيه الرسول ﷺ الوحي ببناء المسجد، وكما في الأثر فإنه أول مسجد بني في الإسلام، حيث كان أوائل الصحابة يصلون فيه قبل قدوم الرسول إليهم، فإن القول بأسبقية مسجد قبا لن يجد ما يدعمه، لأن موقع الحرم بدأت الصلاة فيه من أول يوم وصل فيه الرسول المدينة. لذا، فالذي يبدو أنه الأرجح هو أن النبي محمداً ﷺ، في زيارة له لقباء،

(١) ما ورد في كتب السيرة عن تحول القبلة هو أن الرسول ﷺ صلى الظهر في بني سلمة، وبعد أن صلى ركعتين نزل عليه الوحي بالاتجاه نحو الكعبة فاستدار وهو في الصلاة واستدار معه أصحابه. (المراجعون).

صلى بالناس متجهاً نحو بيت المقدس في ذلك المكان حين جاءه الوحي بتحويل القبلة ترافقه معجزة رؤيا الكعبة، التي تحدد اتجاهها بذلك تلقائيّاً.

وبالقرب من منزل الآية أثر آخر يميل إلى تعضيد الرأي القائل بأنها كانت مكاناً لمحراب كان موجوداً في وقت قدوم الرسول ﷺ. ذلك هو مبرك الناقة، البقعة التي بركت فيها ناقته باختيارها عند قدومها بين المسلمين. والبقعة معلمة بمحراب للصلاة تحت قبة مسطحة تشبه المنصة التي يقف عليها المكبر في بعض المساجد، الذي يردد التكبيرات وغيرها بعد الإمام لإيصال الصوت إلى الجماعات الكبيرة التي لايمكن أن تسمع كلمات الإمام. وفي الجزيرة العربية على أي حال، فإن مكبرات الصوت، وإن كانت واسعة الاستخدام الآن، فقد يأتي اليوم الذي يعم فيه استخدامها في المساجد الكبرى.

والأثر الآخر الوحيد الذي بداخل مسجد قباء هو المنبر غرب المحراب الأوسط. إنه يستخدم فقط للخطب التي يواجه فيها الخطيب المصلين، أما في مكة فإن المنبر يتجه شمال شرق. ومسجد قباء بناء متين جيد، مبني من قطع مكعبة من الحجر البركاني لنحو نصف ارتفاعه، وبآجر من الطين المحلي، سمك الواحدة نحو بوصتين، فوقها، مع شرفات حول السقف. وله مئذنة واحدة، رائعة. وقرب المدخل، وعلى الجانب الغربي، يقف بناء مقبب صغير، كان مسجداً سابقاً، بني لعلي أو فاطمة. وبعد أن انقطع استخدامه كان يستخدم كمطحنة للحبوب، ثم أصبح في الوقت الحاضر مخصصاً لإقامة قوة صغيرة من الحرس ذات مهام متعلقة بالمسجد.

إن للمسجد منظراً رائعاً لوقوعه وسط حدائق على بعد نحو ثلاثة كيلومترات من باب قباء في المدينة. تمتد خلفه بيوت شبه مهدمة، مبنية من الحجارة

البركانية، لقرية صغيرة، يحفها النخيل. وعلى بعد نحو نصف ميل، وعلى الطريق التي تخترق القرية وتؤدي إلى حقل الحرات، تقف أطلال مسجد صغير لا سقف له تعرف عليه الخبراء الأتراك، الذين كانوا قد أرسلوا في وقت بناء خط سكة حديد الحجاز، بأنه مسجد الضرار (أو المسبّح)، الذي كان اقترن بواقعة ما في زمن الرسول ﷺ مست الصحابة بضرر ما أو أذى[1]. إن هذا التحديد لموقع معقد كهذا لمشكوك فيه. ثم إن المنظر العام الذي يقف فيه المسجد محزن لأقصى ما يمكن أن يتصوره المرء. فعلى أحد جانبيه تقع الأطلال المتهدمة من القرية وبعضها مسكون. وعلى جانبه الآخر يقف جدار من الكسر البركانية يفصل الطرف النائي من بساتين النخيل عن الحرات بعدها، ويمتد بامتداد البصر. إن مساحة بناء المسجد تقدر بعشر خطوات في سبع، مع محراب للصلاة في الحائط الجنوبي الطويل، يقابلها المدخل. وهو بلا قبة أو مئذنة أو سقف. وربما كان مكاناً مكشوفاً لصلاة أهل القرية.

وفي الخلاء، في الحرات، ربما أبعد من ميل إلى الجنوب، يقف تل صغير اسمه الحصن كان فخري باشا، المسئول عن حماية المدينة وقت الحرب، قد بنى عليه حصناً صغيراً. وفي مسافة قريبة جداً، في طرف الحرة، تقع أنأى بساتين قباء من ناحية الجنوب، التي كان يصدر منها في وقت زيارتي صوت عالٍ من ماكينة رستون هورنزبي، مثبتة إلى جدار. وعند تفقدي للبستان تفقداً وثيقاً،

---

(١) قصة مسجد الضرار تتلخص في أن المنافقين بنوه قبل سفر الرسول ﷺ إلى غزوة تبوك، وقالوا إننا بنينا مسجداً للحاجة وللتسهيل، وطلبوا منه أن يصلي فيه، فوعدهم بذلك بعد العودة من غزوة تبوك. وفي الطريق نزل عليه الوحي بعدم الصلاة فيه بقوله تعالى ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾. فأرسل الرسول ﷺ اثنين من الصحابة فأحرقوه. (المراجعون).

وجدته رائعاً حقّاً، صاحبه شخص اسمه صالح القاضي، الذي سره قدوم زائر له، فأخذني في جولة ليريني ما فعله وما ينوي فعله. والماكينة، التي كان وقودها من الفحم النباتي، كانت تعمل بلا انقطاع من الخامسة صباحاً حتى الثامنة مساءً، بلا تأثير يذكر على الكمية التي لاتنفد من ماء البئر العذب الصافي الواقع على بعد عشرين أو خمسة وعشرين قدماً من السطح. والماكينة نفسها كانت غائرة لنحو عشرة أقدام تحت سطح الأرض، في مجرى جانبي.

إن أهم ما في البستان هو مجموعات الزهور المتفتحة - وهو نقيض عجيب لتيه الحرة الكئيب البالغة لطرفه فعليّاً ولقرى الحرة على الجانب الآخر. ويجاور البستان نفسه بستان آخر، مشابه له نوعاً ما اسمه العمارية، بينما امتدت بساتين النخل الأخرى منهما لتحيط بقباء من الجانب الشرقي.

وما من بقعة في المنطقة أكثر شعبية لدى الحجاج من قباء. فالطريق قصير، والثمرة عظيمة. لقد وصف الرسول ﷺ ثواب من يتوضأ في بيته ويمضي إلى قباء بثواب عمرة[1]. لذا فإن الحجاج يكونون هناك دائماً في الموسم. إن قلة منهم تفوتها زيارة بئر الخاتم، التي يقال إن خاتم الرسول سقط فيها. وتقع في طرف البستان في الجهة المقابلة من الطريق المؤدي إلى المسجد. ويبدو أن ماءها يأتي من العين نفسها التي تغذي المدينة بقناة عين الزرقاء المغطاة. إن النفق الذي به رأس العين لايكاد يكون إلاّ على مرمى حجر من البئر الدائرية، وهناك مخرج ومجرى فوق مستوى الماء الحالي متصلان بقناة عين الزرقاء في مسافة ليست

---

(١) يشير المؤلف إلى الحديث الذي رواه ابن ماجة: (من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان له أجر عمرة). وانظر الأحاديث الواردة في فضل مسجد قباء والصلاة فيه كتاب الأحاديث الواردة في فضائل المدينة للدكتور صالح الرفاعي ص ص٥٢٧-٥٥٦. (المراجعون).

بالبعيدة. أما لماذا انخفض الماء ذلك الانخفاض بحيث لم يعد يبلغ المخرج فأمر لا تفسير له.

ويمكن متابعة قناة الزرقاء بفتحات التهوية في كل الطريق إلى المدينة، وخلالها إلى نقطة ما غير بعيدة إلى الشمال من باب دمشق [1]. وتتولى صيانتها لجنة رسمية، تحت تصرفها ميزانية خاصة، تتزايد باستمرار من هبات المحسنين. وللجنة مكتب دائم في ساحة العينية، التي تسمى بهذا الاسم لوجود الحوض المركزي (المغطى) الذي تزوده القناة المغطاة، والتي كانت تروي حديقة العينية قبل أن تزال ليحل محلها الشارع الذي كنا قد ذكرناه من قبل. وبالإضافة إلى هذه القناة المغطاة فإن المدينة تنتشر فيها بكثرة الآبار العامة والخاصة. ويقع كثير من الصنف الثاني من الآبار في أفنية البيوت الخاصة.

(١) كذا بالأصل. يقصد «الشامي». (المترجم).



٨ - بعض الضواحي الأخرى للمدينة

في المنطقة المجاورة لقباء توجد قريتان قديمتان، هما العوالي[١] وقربان[٢]، اللتان يزورهما المقيمون أكثر مما يفعل الزوار العابرون، الذين ليس لهم وقت للاستمتاع بالحدائق. يقف في وسط مساكنها البائسة المبنية من الأحجار البركانية مرتفع من التراب والحجارة، ارتفاعه نحو خمسة عشر قدماً، أعلاه مسطح، كما في علي العريض، الأعلى منه قليلاً. وربما لم تكن هاتان القريتان سوى ضاحيتين زراعيتين، وربما كانت البيوت قد بنيت من جديد مرات ومرات منذ إبادة أصحابها اليهود[٣]. والحدائق تضاهي ما بالمدينة. ولم أزر التل المسمى حرة قريظة، وهو على بعد ميل أو ميلين من القريتين في وسط الحرات. ولكن قيل لي إن أطلالاً مهجورة لحصن يهودي أو قرية يمكن أن ترى على سفحه. فربما كان ذلك مسرح حصار بني قريظة واستسلامهم.

وعند متابعة المرء لطرق الحرة شمالاً، ومروره بشريط صغير منعزل يعرف بحرة دشم على اليسار، يأتي إلى المسجد الواضح الصغير لعلي العريض، الذي كنت من قبل قد قلت ما فيه الكفاية عن صلاته اليهودية. ففي الطريق إليه من باب الصدقة، وقرب القناة المغطاة غير المستخدمة الآن، رأيت حوضاً من

---

(١) العوالي: جمع عالية، تقع في أعلى المدينة حيث يبدأ وادي بطحان -المسمى الآن أبو جيدة- وهي أرض زراعية خصبة تشتهر بالنخيل. معجم معالم الحجاز، ج٦ ص١٨٥. (المراجعون).

(٢) قُربان: قرية عامرة بالمدينة في الجنوب الشرقي منها، امتد إليها العمران الآن. معجم معالم الحجاز، ج٧، ص١١١. (المراجعون).

(٣) لفظ إبادة من المصطلحات التي استخدمت في العصر الحديث تعاطفاً مع اليهود الذين قتلهم النازيون. أما ما حصل لليهود في عهد الرسول ﷺ فإنه مبيّن في كتب السيرة. وما حصل لبني قريظة من قتل مقاتليهم فإنه كان نتيجة لخيانتهم في غزوة الخندق، لكن لم يحصل قتل جماعي أو إبادة كما ذكر المؤلف. (المراجعون).

الحجر، ربما كان تابوتاً أصلاً. وهنا يتفرع الطريق إلى جهة اليمين من الطريق الرئيس الشمالي الشرقي، وسرعان ما يصل المسجد الواقع في منطقة مزارع للقمح، مع قليل من النخيل تسقى من عدة آبار، قطر فم الواحدة منها نحو عشرة أقدام، وماؤها وفير في عمق نحو خمسة عشر قدماً تحت مستوى الأرض. ولقد كان عدد هذه الآبار أكبر من ذلك في وقت سابق، أما الآن فإن المنطقة منظرها منظر البائسة المهجورة، وإن كان بأحد المجاري مضخة آلية.

ويقع مرتفع مرحب على نحو ١٠٠ متر من الركن الجنوبي الشرقي من البناء، المكون في بعضه من المسجد نفسه، الذي يشغل قسمه الجنوبي الغربي، وفي بعضه الآخر من مسكن طويل من ثلاثة أجزاء. وهناك باب ضخم من الحديد، يؤدي إلى هذا الجزء من البناء، سريع الحركة، كاد أن يتسبب في كارثة حينما كانت المرأة التي استقبلتنا تعرِّفني بالمكان. فبينما هي تشرح لرفاقي شيئاً ما، رجع الباب الضخم ببطء دون أن تفطن إليه. ولحسن الحظ قفزت في الوقت المناسب لأنقذ طفلها الصغير من ضربة ربما كانت موجعة. كانت هناك بضع نخلات في فناء البناء حيث كان القسم الخاص بالمسجد على جانبه الذي كانت أهم سماته القبران المتواضعان لعلي العريض (ابن الإمام جعفر الصادق) وابنه عبد الرحمن[1]، وكذلك ثلاثة قبور متواضعة لأنصار الرسول ﷺ. وترتفع مئذنة واحدة وسط الجانب الغربي للبناء، الذي يكونّ شكل مستطيل طوله خمس وخمسون خطوة وعرضه ثمان وعشرون.

---

(١) تكرر اسم علي العريض في هذه الصفحة والصفحة السابقة، وبعد التحري من خلال الكتب والأشخاص لم نقف على ذكر لاسم علي العريض. أما ما هو موجود الآن فهو مسجد العريض في الشمال الشرقي من المدينة المنورة بالقرب من مسجد مهجور. وللمزيد من المعلومات عن أبناء جعفر الصادق وعن العريض. انظر: فرق الشيعة للنوبختي ص٦٧ وكذلك وفاء الوفاء للسمهودي ص١٢٦٥. (المراجعون).

عند عودتنا للمدينة بطريق أكثر مباشرة، توقفنا لبرهة في أطلال مسجد صغير، اسمه مسجد الإجابة، الذي يخلد المكان الذي دعا فيه الرسول ﷺ وبشر بالنصر على بني قريظة. ولهذا السبب كان هذا المكان مفضلاً للتوسل حتى هدمه السعوديون في ١٩٢٥م، لقبته[١]، وإن لم تكن هناك قبور بالبناء أبداً. وفي هذه المنطقة نفسها، وبالقرب من مقبرة البقيع وباب الجمعة، ثلاثة مساجد صغيرة يفترض أنها ذات علاقة بمولد الحسن والحسين من فاطمة، ابنة الرسول ﷺ. وتسمى البقعة جز المعدة.

تقع دار الفيروزية وحديقتها، حيث كنت قد أقمت في زيارتي في يونيو ١٩٣١م، في مكان ما في يمين طريق الشمال الرئيس خارج باب دمشق[٢]. وكما سبق ذكره، فإن فتحة التهوية الأخيرة للقناة المغطاة للعين الزرقاء تقع على مسافة في أعلى الطريق بجوار كومة من التراب، كانت قبراً ذا قبة لزكي الدين، ابن الإمام الحسن، قبل دخول السعوديين للمدينة. وبعد ذلك بمسافة قصيرة، وعلى ربوة بجانب ممر ضيق (ثنيات الوداع، حيث يلتفت الزوار المودعون ليلقوا تحية الوداع على مسجد الرسول ﷺ)، يقف مسجد الراية، حيث كان الرسول قد وزع الرايات قبل غزوة الخندق. ووراءه تل صغير اسمه جبل أبي عبيد الأكبر، وبين الاثنين منخفض من الأرض يعتقد أنه كان جزءاً من الخندق نفسه، الذي لايعرف أحد مجراه الفعلي وإن كان كثيرون من العلماء المحليين، بمن فيهم صديقي أمين المكتبة، قد تأملوا في الأمر كثيراً ووصلوا إلى

---

(١) العلة في سبب الهدم واضحة من النص، حيث كانت قبة هذا المسجد مكاناً لممارسة البدع والتوسل بغير الله مما نهى عنه الإسلام، ولذلك كان من أهم واجبات الحكومة السعودية، القيِّمة على أمر الإسلام في هذه البلاد، أن تزيل جميع ما يمس العقيدة الإسلامية. (المراجعون).

(٢) كذا بالأصل، يقصد «الشامي». (المترجم).

ما يبدو أنه تخطيط مناسب له. فإلى اليمين والشمال من هذه البقعة، حين ينظر المرء شمالاً، يمتد الخندق، الذي كان الرسول ﷺ ورجاله قد حفروه ليستر عورة المدينة، في شكل قوس ضحل يصل حرة الشيخين البارزة قرب علي العريض بمكان المجمع الحالي لمحطة اللاسلكي، ويستمر من هناك متجاوزاً الطرف الشمالي لثنيات الوداع إلى الطرف الشمالي النائي من جبل سلع (يعلوه حصن الآن)، ومنه إلى الطرف الشمالي من اللسان الغربي للحرة في المنطقة المجاورة لمسجد القبلتين. وكان جزء من الخندق في الجانب الأيمن من الطريق من هذه النقطة قد صار مكاناً لدفن أنقاض مسجد الرسول ﷺ بعد أن دمرته النيران قبل قرن من الزمان وبذلك عاد وامتلأ مرة أخرى إلى مستواه القديم، وبعد مسافة قصيرة أيضاً يأتي المرء إلى البوابة التي تشبه الحصن لمحطة اللاسلكي، وبعدها يلتف الطريق حول السور الغربي لمجمعها، ويستمر مخترقاً الحقول المكشوفة حتى يصل إلى حصن خالد، القريب من الطرف الشرقي لبساتين نخيل العيون. ويتفرع طريق الشمال الرئيس من هذا الطريق نحو رومة من نقطة قريبة من ربوة أبي عبيد، التي تسمى القرين.

وبعد أن فرغت من وصف المناطق المحيطة بالمدينة بالتفصيل، ينبغي علي أن أقول شيئاً عن المنطقة الوحيدة خارج حدودها، التي يمر بها المرء مروراً عابراً في تشوقه للوصول للمدينة، والتي يمكن أن يقضي المرء وقتاً فيها للتأمل. تلك هي أبيار علي، الواقعة على ضفتي وادي الحسَاء (وهو اسم وادي العقيق قبل دخوله المدينة) في الفجوة الواسعة ما بين سلسلتي عَيْر (وعلى ما أعتقد، المعروف بتل الجحيم) والجَمَّاوات، التي كانت صخورها الوردية قد بني منها مسجد الرسول ﷺ في هيئته الحالية. وبخروج المرء من باب العنبرية وسيره

بمحاذاة فناء المحطة إلى طرف الحرة، يأتي بعد نحو كيلومترين ونصف إلى مسجد عروة وقريته على الضفة اليمنى لوادي العقيق. ويقال إن ماء البئر الكبيرة هناك أطيب ما في المنطقة كلها، وأن الوجهاء من أهل المدينة يبعثون بمن يذهب ليأتيهم بمائهم من ذلك المكان البعيد. وبعد كيلومتر آخر يمر الطريق بحصن قديم، قائم فوق الربوة السوداء على الضفة اليمنى للوادي. لذا، وعلى بعد مسافة طولها ثماني كيلومترات من العنبرية، يصل المرء قرية أبيار علي البائسة. ووراء القرية، وفي وسط رائع من النخيل على الضفة اليمنى للمجرى، يقف مسجد مطلي باللون الأبيض، بمئذنة تسر المرء، وباستراحة تعرف بالديوان، جدرانها مليئة بكتابات تذكارية من الزوار. وفي اتجاه منبع الوادي، وبصفة خاصة على الضفة اليمنى، بعض مزارع الواحات الصغيرة - قرية الذيانية على الضفة اليسرى قرب بستان النخيل الرئيس في أبيار علي نفسها والفضية والحمية والعويدية، على الجانب المقابل، وعلوة بعد مسافة أيضاً، حيث ينحني المجرى بمحاذاة أسفل سلسلة الأسمر. وبعد ذلك ينحني الوادي مرة ثانية جنوباً حول جبل حمراء الأسد، التي كانت مكان معسكر القنصل البريطاني (س. ر. جوردان) في آخر ١٩٢٦م للمفاوضات الأولى الفاشلة حول اتفاقية بين المملكة العربية السعودية وبريطانيا العظمى.

وفي السنة التالية بعث السير جلبرت كلايتون لاستئناف المفاوضات التي انقطعت، فكانت اتفاقية جدة هي الثمرة. أما من أين ينبع وادي الحِسَاء فأمر لا أعرفه، ولعله من المنحدرات العالية لجبل ورقان، أو مما جاورها. وفي أبيار علي ينبغي على الحجاج العائدين من المدينة إلى مكة ارتداء ملابس الإحرام للعمرة - والسكنى هناك في أكواخ من القصب، وقلال الفخار، والمرطبات

ونحو ذلك. ويناقش الشيخ إبراهيم الخربوطي قائلا بأنه وإن كان الإحرام من أبيار علي جائزاً، فإنه لمن الأفضل فعلاً في حالة الحجاج العائدين من المدينة تأجيله حتى رابغ، وربما من المكان المعروف بالجحفة، نحو عشرة أميال جنوبها، وهو ميقات حجاج مصر، القادمين بطريق الساحل إلى مكة. وبما أن الجحفة لم تعد واقعة في طريق الحج، وبخاصة في زمن السيارات هذا، فلعل لأبيار علي الآن الحق في طلب هذا الشرف مثلها مثل أي مكان آخر. ولكن الرحلة الطويلة بالجمل، حاسر الرأس - وبنزر يسير من الملابس - سواء أكانت في حر الصيف أم في البرد أم المطر - لابد أن تكون مرهقة تماماً لأولئك الحجاج غير المحظوظين الذين لايقدرون على نفقة السفر بالسيارة. وبهذه المناسبة، فإنه لابد من سابقة يبدؤها أحد بالسفر جواً، ذلك لأن أبيار علي ليس بها تسهيلات للهبوط، وربما تكون الجحفة مثلها أيضا. لذا فلا بد من أن تحل محليهما رابغ أو جدة - وربما مطار سلطانة في المدينة نفسها.

ملكة الصحراء - الرياض

مهما بلغت معرفة المرء بالمحيط الطبيعي لعاصمة الصحراء الرياض، فإنه لايستطيع الاقتراب منها مرة ثانية بعد غيبة لفترة من الزمن إلا بشهقة من الدهشة. إنها تظل كامنة لاتراها العين حتى يدنو منها المرء مسورة ومدفونة في تيه تعصف فيه الريح من أرض جيرية متموجة لا شكل ولا خصائص، ممتدة شمالاً وشرقاً بلا تضاريس لنحو خمسين كيلومتراً. وفي وسط ذلك كله يجري وادي حنيفة بين ضفتين سحيقتين متعريتين ومتخفياً في رحم القفر المحيط به، وإن كان الوادي قريباً من طريقنا فإننا لم نتمكن من رؤيته طوال الطريق ولو للمحة. وكان أول ما وقع أمام ناظرنا المتعب بعد السير المغبر نحو ساعتين من الجبيلة كان نخيل الشمسية، وهي أشجار النخيل الواقعة في أقصى الطرف الشمالي من بساتين الرياض، التي ترى من نحو أربعة كيلومترات. وبعد قليل ظهر لنا منظر شامل كامل للجزء الشمالي من الواحة، بما في ذلك المدينة بأسوارها ذات الشرفات، عندما صعدنا مرتفعاً يسيراً.

كان هناك غطاء خفيف من الغبار معلق في الجو يعلو المنظر، الذي لم نتبين منه شيئاً لافتاً من ذلك البعد. لقد كانت الصحراء، لا المدينة، هي التي ملأت عقل الإنسان التي ترى عليها آثار الخطوط الطويلة الآتية من مختلف الاتجاهات والملتقية من آثار القوافل والوفود منذ قديم الزمان، وقد حرثت فيها وسائل المواصلات الحديثة مجاريها هنا وهناك، بعد أن جاءت لتبقى للتطور، وإن لم تقض بعد على الوسائل القديمة التي كانت مألوفة لدى أجداد العرب الحاليين. وكم من جماعة، مكونة في معظم الأحوال من نحو عشرة أشخاص على العدد نفسه، من الدواب أو ما يزيد عليه أو يقل عنه، كانت تشق تلك الصحراء

نحو الهدف نفسه الذي كنا نسعى إليه، في سرعة توحي بأنهم ينوون الوصول في صباح الغد، بينما كنا نحن نبدو وكأننا لن نصل قبل ساعة أو ساعتين من غروب الشمس. فأينما توقفنا، كانت الريح التي تتبعنا، ولا نشعر بها في سيرنا، تغطينا لفترة وجيزة تغطية كاملة بغبارها الأصفر الخفيف. وربما كنا على حق حين نغبط منافسينا الأبطأ منا، على مسافة منا يمنة ويسرة، وهم يتهادون في سيرهم بتؤدة بلا قلق أو غبار.

لقد كان علينا أن نسبقهم إلى غايتنا المشتركة، ولكنهم سرعان ما سيدخلون معنا في مظلة الكرم نفسها. لقد علمت أن آلافاً منهم - بلغني تقدير كلي بنحو ٨٠٠٠٠ شخص - كانوا قد جاءوا ومضوا قبلهم. بل وفي تلك اللحظة نفسها كان بقايا الضيوف - وقد زانوا الصحراء بألوان زاهية بخيامهم، البيضاء أو السوداء أو المخططة، وبنسائهم وأطفالهم وأغراضهم - يربون على ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ شخص. فمنذ عودة الملك في تاريخ مبكر من يوليو فإنهم كانوا يتدفقون من كل أنحاء البلاد ليقدموا ولاءهم ولينالوا ما يستحقونه من هبات - جيش ضخم، مستعد في أي وقت، يتلقون أجورهم بالجود بمشيئة الملك، ولكنهم مع ذلك يكافأون على فترات منتظمة بقدومهم شخصيّاً. وبما أن المكافأة تكون حسب عدد أولئك الذين يأتون لتقديم ولاء الطاعة في الرياض، فإن شيخ كل قبيلة أو بطن -وبطبيعة الحال- يحضر معه من أبنائه وأبناء إخوانه وأقاربه كل من كان في سن يقدر معها على الركوب منفرداً على ذلوله ليقدم ولاء الطاعة للملك بنفسه شخصيّاً. إنه نظام قديم عظيم، وهو الآن في أيد أمينة تصرفه بذلك المزيج من الكرم والاقتصاد الذي لايعرف سره إلا ذلك الملك بالفطرة.

إنه لشيء محير فعلاً، قال ابن سعود يوماً من تلك الأيام في حفل جمع كثيرين من شيوخ البدو في انتظار الإشارة ببدء العشاء، إن التصدق مضر كثيراً بالبدو،

كما هو ممارس الآن في العراق وشرق الأردن، بينما النظام المماثل له من دفع مكافآت منتظمة مقابل خدمات معلومة، كما هو الحال في نجد، يقتضي شيئاً مقابلاً لما يقبضه البدو.

وطيلة الشهر الماضي كانت البطحاء وأماكن الإقامة الأخرى حول العاصمة مكتظة بما فوق طاقتها برجال القبائل المخيمين من أركان الدنيا الأربعة. لقد خف الضغط كثيراً الآن، ولكن مدخل المدينة كان مكتظّاً بمئات من الناس. ولقد تمكنت سياراتنا بعد زحف شديد وسط تلاصق بشري لا مثيل له أن تشق طريقها في الشارع الرئيس من بوابة الثميري إلى مدخل القصر.

وكما كنت قد تحسبت سماعه نوعاً ما، فإن الملك كان خارج المدينة في تلك الساعة (بعد صلاة العصر أو نحو الرابعة مساءً) ولا تنتظر عودته قبل ساعة أو نحو ذلك بعد الغروب. لقد كان في البديعة (الباطن)، وهو قصر بناه ابنه الأكبر، سعود، في بستان نخيل واسع كان قد اشتراه أو ورثه. فكان صعباً علينا أن نقرر ما نفعله في مثل تلك الظروف. وكان من البدهي استحالة ذهاب مجموعتنا الكبيرة كلها إلى الباطن لزيارة الملك. ولما علمت من بعض الحرس في البوابة أن الجناح نفسه الذي كنت قد أقمت فيه في أول السنة قد خصص لي هذه المرة أيضاً، فإني قررت ترك أمتعتنا في تلك الغرف، وانطلقت ومعي جابر إلى الباطن. وتخلف كردي ليحرس الأمتعة، بينما تعهد الطبيشي بالقيام بكل الترتيبات لاستقبال بقية مجموعتنا ورعايتهم حين يصلون. ورافقنا، أنا وجابر، رشيد الهويدة وابن عمرو في بحثنا عن إبراهيم بن جميعة لأخذ موافقته على هذا الإجراء. وصادف أن كان جملان، محملان بحطب الوقود، سائرين في الشارع الجانبي نفسه في الوقت ذاته. وكما فعلت الجمال أيضاً،

فإننا بدأنا بذل مجهود مضن لم يثمر عن شيء سوى اعتراض سبيل بعضنا البعض. وفي نهاية الأمر ترك الجملان حمليهما متناثرين في الشارع، ليكونا عائقين لتقدمنا، وفرا في شبكة من الأزقة يستحيل فيها اللحاق بهما. وبحث ابن عمرو عن إبراهيم، وعاد منه بخبر مفاده ضرورة ذهابنا للملك؛ وفي دقائق قليلة، وبعد تركنا أمتعتنا في القصر، تجاوزنا بوابة الثميري في الوقت المناسب في طريقنا إلى الباطن - وهي مسافة تسعة كيلومترات وربع الكيلومتر، في طريق طيب وإن لم يكن رائعاً، يقع في الصفراء، ذات التربة الجيرية، شمال حوض الرياض، وشرق وادي حنيفة.

وكان الملك آنذاك جالساً بجوار النافذة ذات الشباك الخشبي، من غرفة الجلوس الواسعة، في الطابق العلوي من قصر سعود الصيفي، فرآنا بينما كنا نهبط ذلك الطريق شديد الوعورة إلى بطن الوادي كثير الرمل الذي كان علينا عبوره قبل وصول الباب. وبالرغم من تحذيرات ابن عمرو لنا بأن معظم السيارات تسلك طريقاً أطول، وأقل وعورة، إلى جهة اليسار لتجنب أسوأ بقعة في الرمل، الذي كان قد راح ضحيته كثيرون، فإني وجهت سيارة الفورد الصغيرة نحو الطريق المباشرة، فاستجابت بشجاعة وبنجاح تام. وفي لمحة كنا لدى الباب، وفي الطابق العلوي حيث حييت الملك بما هو واجب، وهو القبلة التقليدية على الجبهة، ثم سلمت على البقية الذين كانوا قد اجتمعوا إليه بعد الغداء.

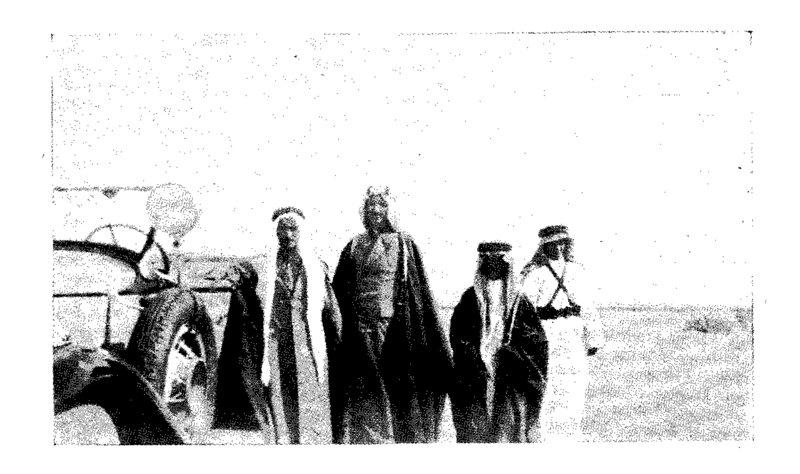
لاشك أن جلالته كان أحسن حالاً بعد غيابه شهراً عن مكة، حيث كانت الأحوال الجوية والاقتصادية قبل سفره قد أكسبته حالة من الحدة والاكتئاب. وبوصوله للجو الروحي والطبيعي الصافي في نجد، انقشعت سحائب التشاؤم

التي كانت قد تجمعت وتراكمت بصورة واضحة في الشهور الأخيرة في مكة. ولشيء واحد، فإن نقل البلاط من الحجاز إلى نجد خفض نفقاته بما لايقل عن ٦٠ أو ٧٠ بالمئة. ولقد بدا لي في خلال تلك الأيام القليلة أن نجداً كانت بمنأى تماماً عن الهبوط الاقتصادي الذي كان قد شمل العالم كله في تلك الأيام الصعبة. وعلى أي حال، ولأسباب بعضها عضوية، وبعضها الآخر نفسية، فإن الملك أصبح في صحة جيدة مرة أخرى، وإن لم يكن هو نفسه مسلماً بشعوره باللياقة أبداً. لقد ركن مؤخراً، وبدرجة كبيرة، لحياة الاستقرار في القصر، متنقلاً فقط بين عمله وأسرته وعمله مرة أخرى. بل إنه، وفي البديعة نفسها، بوسطها الرائع، أصبح يرضى بالبقاء داخل القصر بدلاً من الاستمتاع بجمال الحديقة وجوها المنعش. لقد بدأ الآن يعزف عزوفاً شديداً عن الطبيعة، ولكنه كان قد قضى في الصحارى قدراً من حياته السابقة مما وفر له مخزوناً طيباً من العلم بالطبيعة - وإن لم يكن ذلك يقارن بمعرفة خصمه السابق بها، المغفور له الملك حسين. وكذلك لم تكن لديه أية رغبة في التريض بأية صورة من الصور. إن الحياة التي قضاها، خلال نحو ثلاثين سنة من النجاح المنتظم، تحقق بمجهود رائع من عزيمة وطاقة، تغيرت فجأة لحياة رتيبة منتظمة من تاريخ حافل في ذروته.





الملك عبدالعزيز مع السيربيرسي كوكس
في العقير في ١٩٢٠م



ولي العهد (الأمير سعود) مع عمه وابن عمه



وزراء الملك للدولة : من اليسار إلى اليمين : خالد الحكيم، رشدي ملحس، الدكتور محمود حمودة، يوسف ياسين، خالد الهود، عبدالوهاب النايب



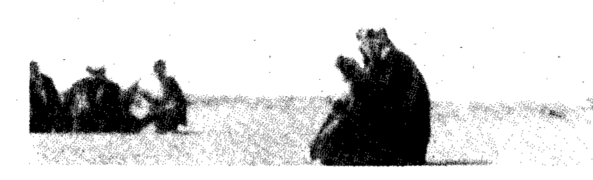
الأمير فيصل ، نائب الملك في الحجاز ، الابن الثاني للملك



لقاء في الهواء الطلق، في قرية حجازية



موظفو حكومة المملكة العربية السعودية



الملك يدعو ربه



الملك يؤدي عرضة الحرب



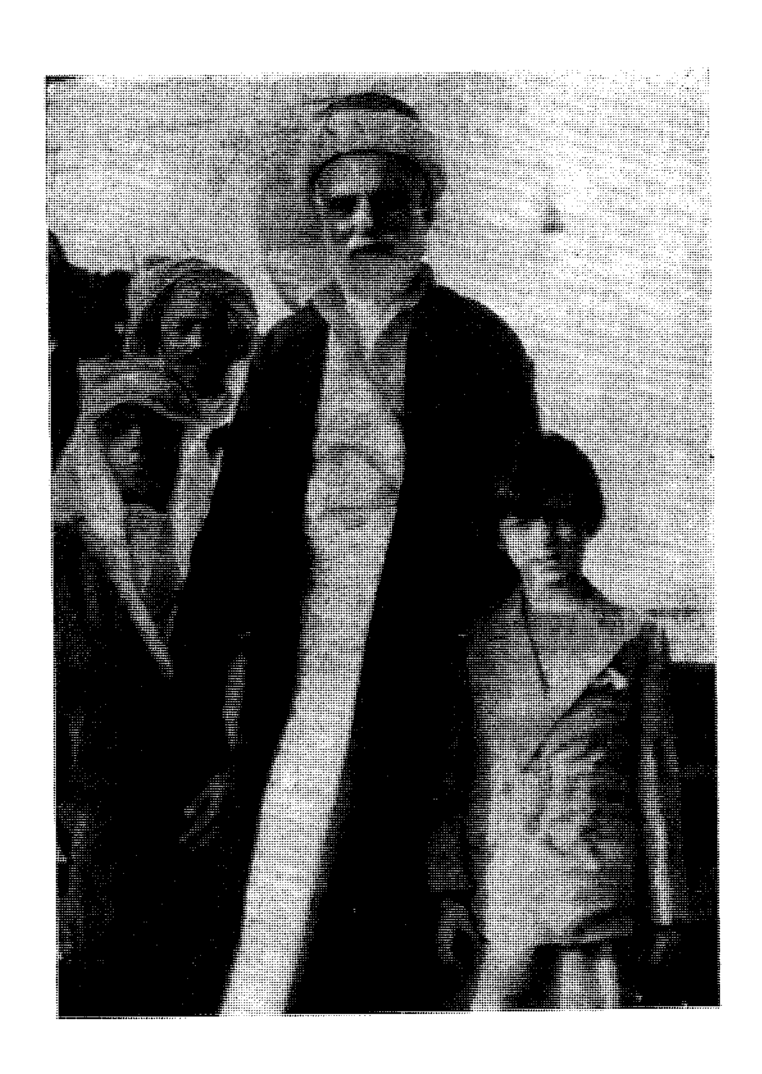
الملك مع أبنائه الصغار



ثلاثة أجيال لعائلة قرشية في مرتفعات الطائف



امرأة صلبية لدى آبار الدويد الصحراوية



الحاج عبدالله علي رضا، حاكم جدة، في عهود ثلاثة
ملوك مع ابنه الأصغر وابنته



دار الجمارك في جدة



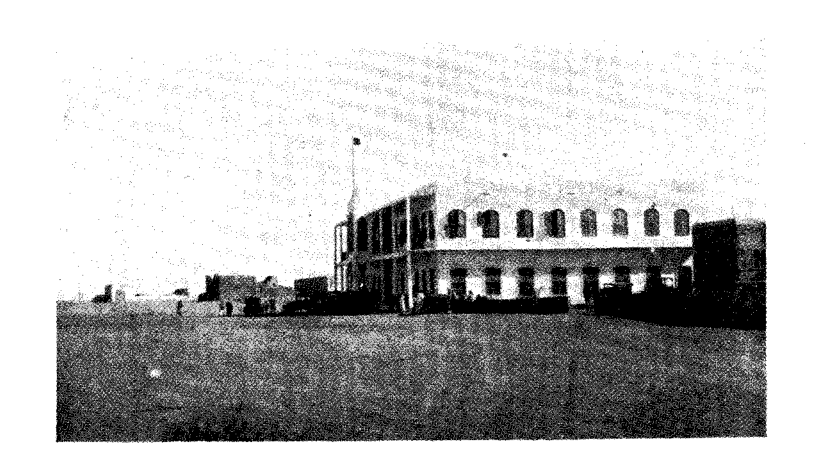
أطفال جدة



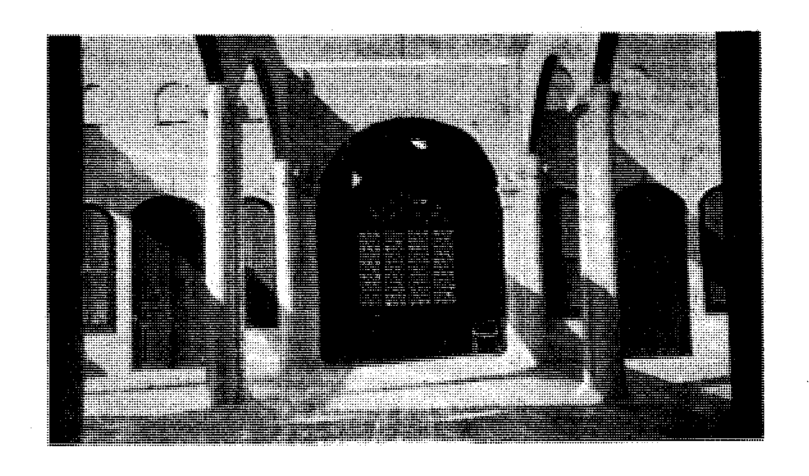
المؤلف في الطائف



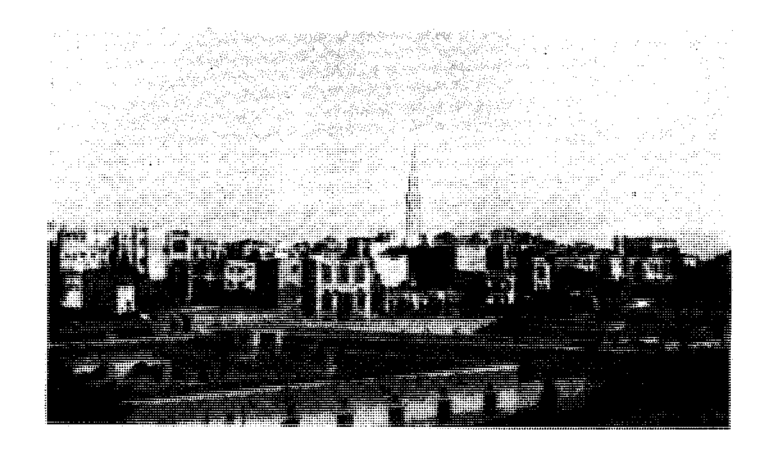
زوجة المؤلف في ثياب عربية



بيت المؤلف في جدة؛ قبر حواء في الخلف إلى اليسار



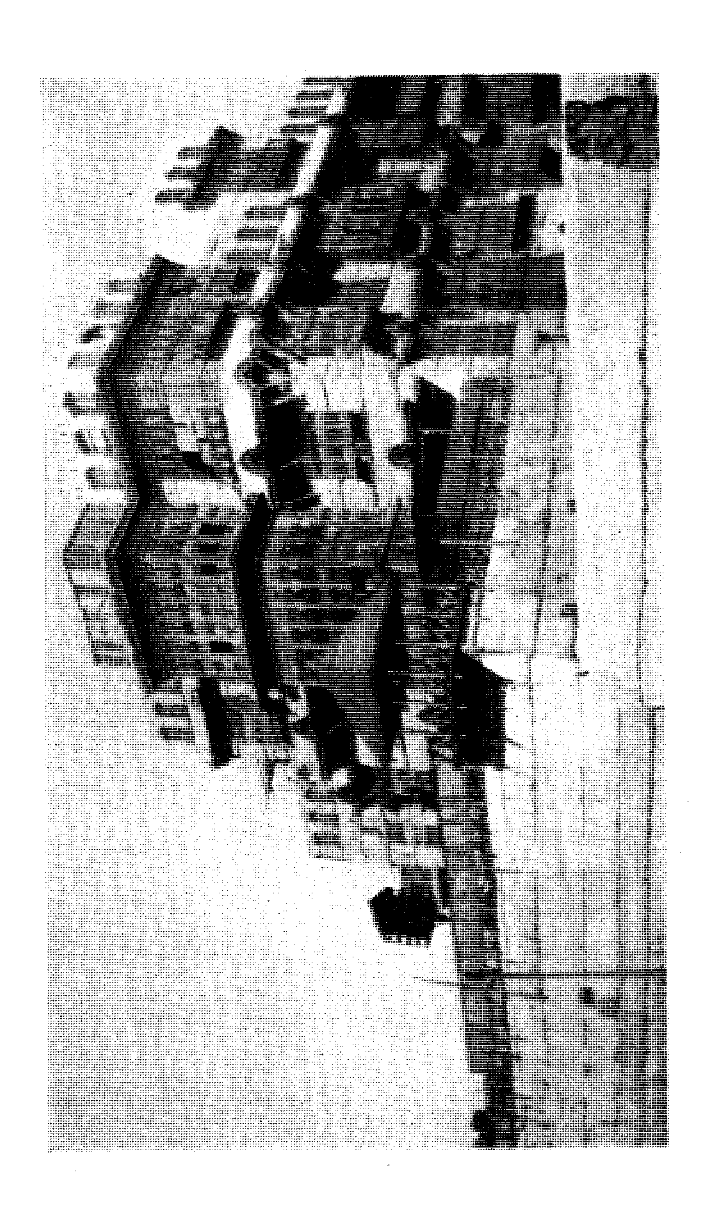
داخل بيت المؤلف في جدة: فناء مكشوف بأعمدة في الدور الأرضي

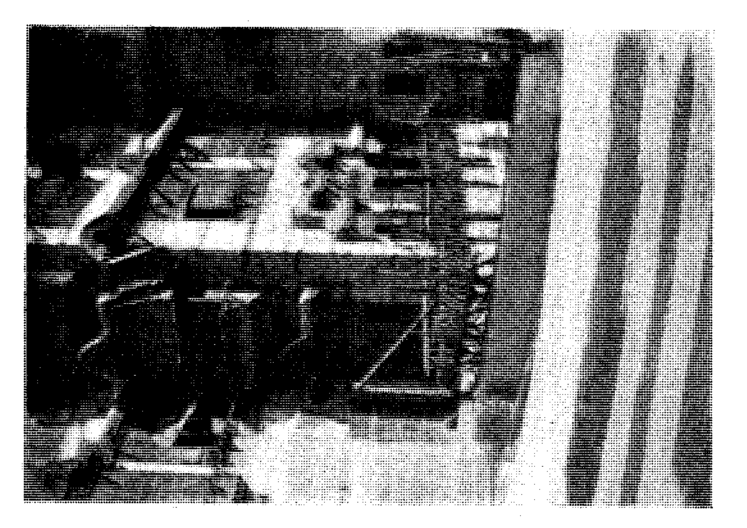


منظر عام لجدة



جدة من الجو

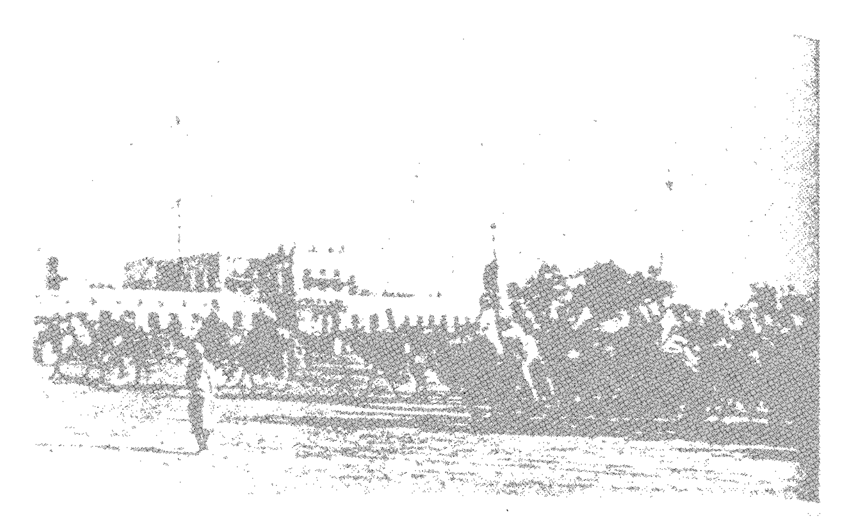




عمارة نموذجية لبيت في جدة



شارع في جدة



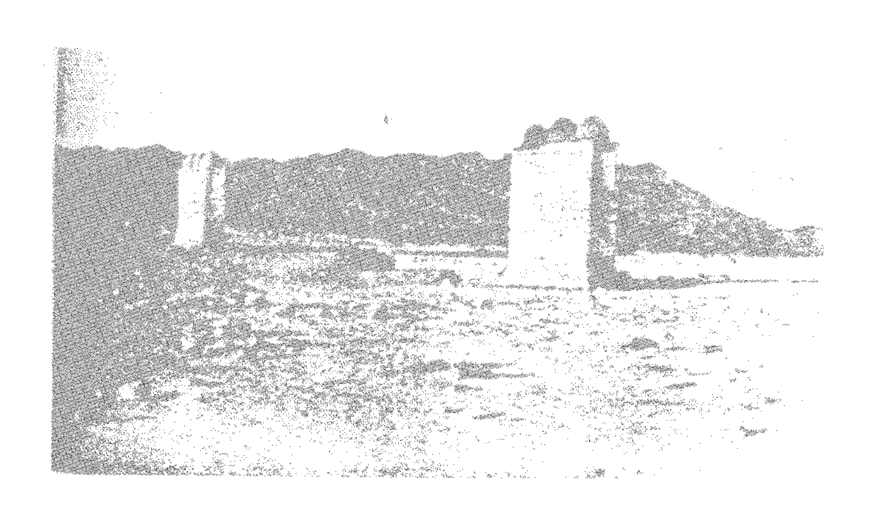
عرض لسلاح الفرسان وسلاح الهجانة أمام الثكنات في جدة



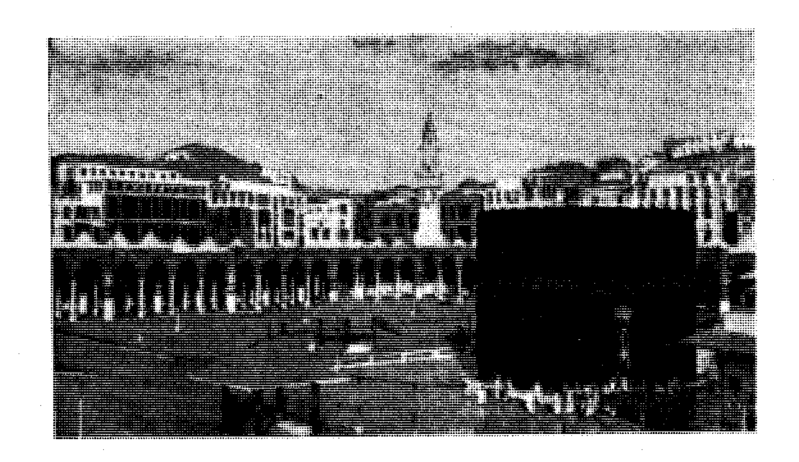
عرض لسلاح المشاة السعودي في جدة



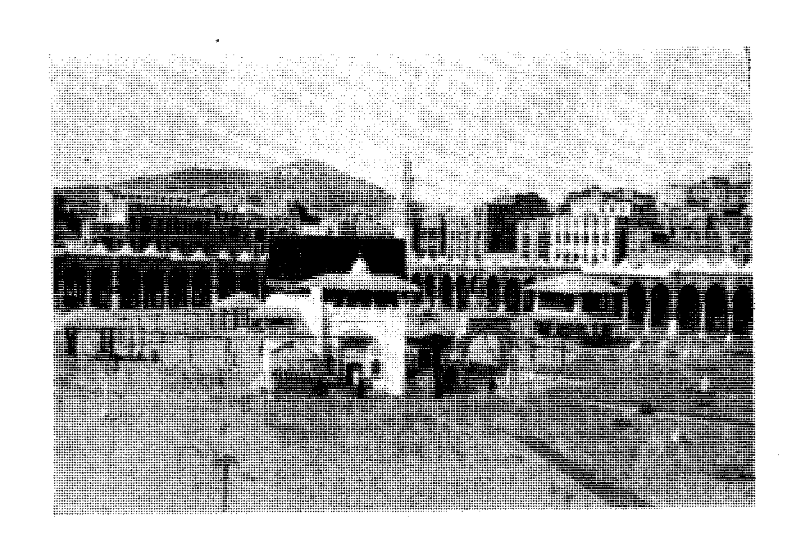
قافلة تغادر جدة بحجاج في الهوادج



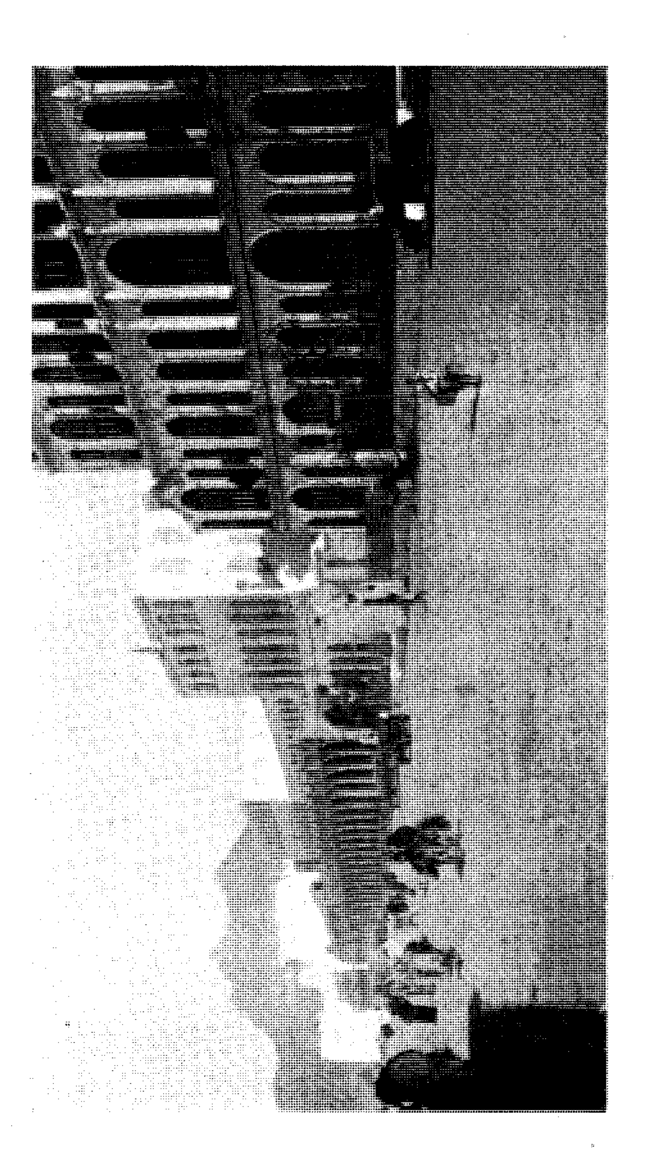
أعمدة حدود منطقة الحرم في مكة



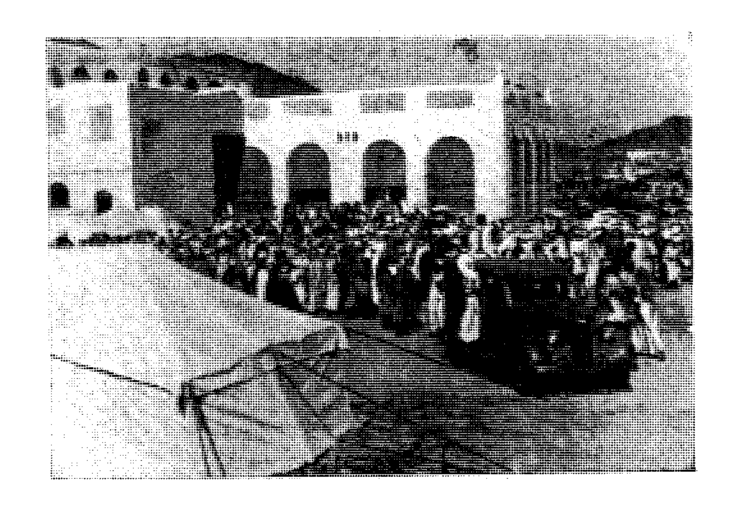
(١)



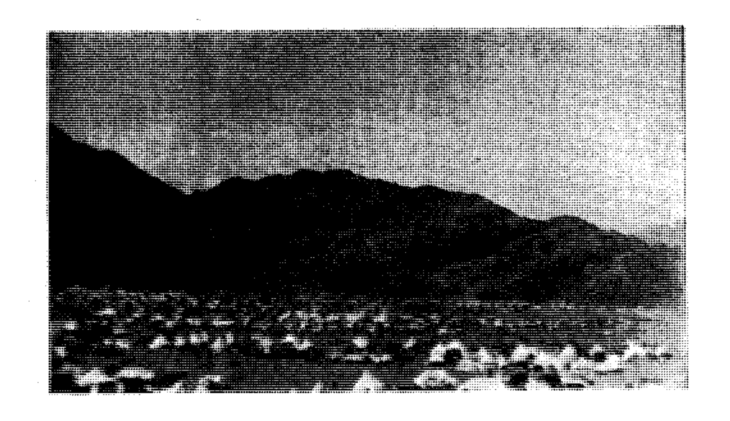
(٢)
المسجد الحرام في مكة المكرمة ١-٢



القصر الملكي في مكة



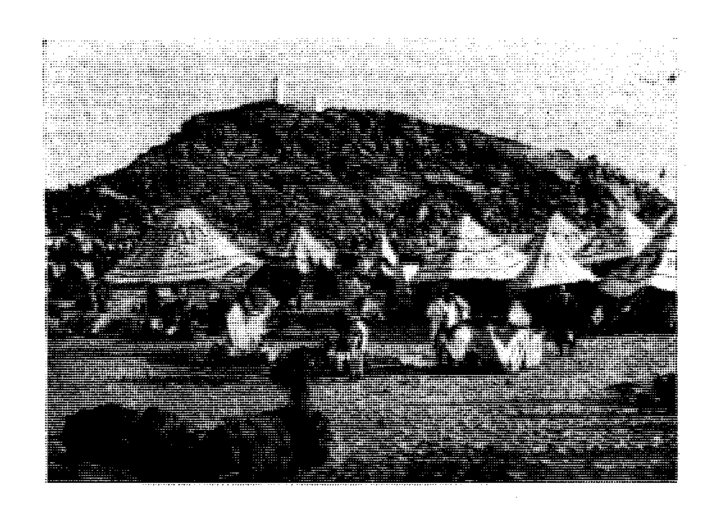
قصر الملك في منى أثناء الحج



مخيم الحجاج في منى



الحجاج يصلون سهل عرفات



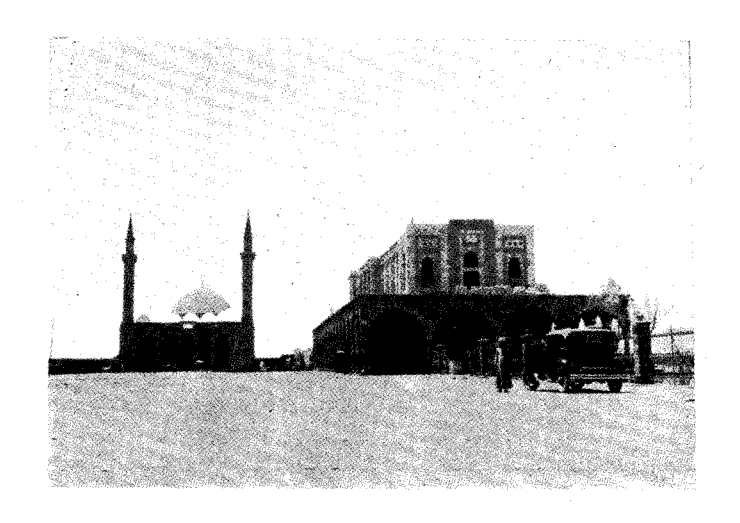
جبل الرحمة- عرفات أثناء الحج



المرجم أو العقبة الكبرى ومجرى الكبش في منى



الأغنام تهبط من الجبل ليوم الأضحى



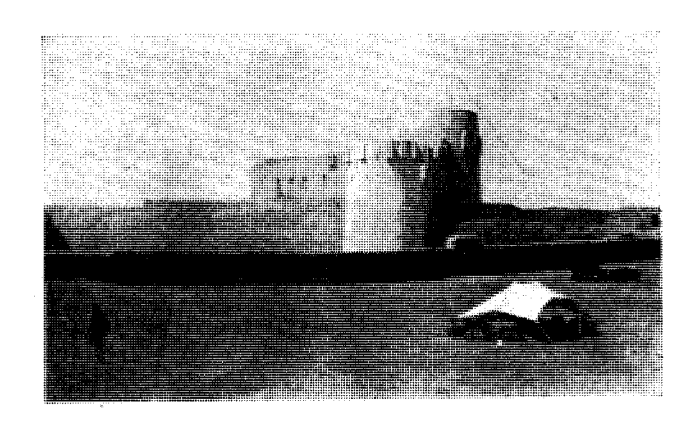
محطة سكة الحجاز في المدينة



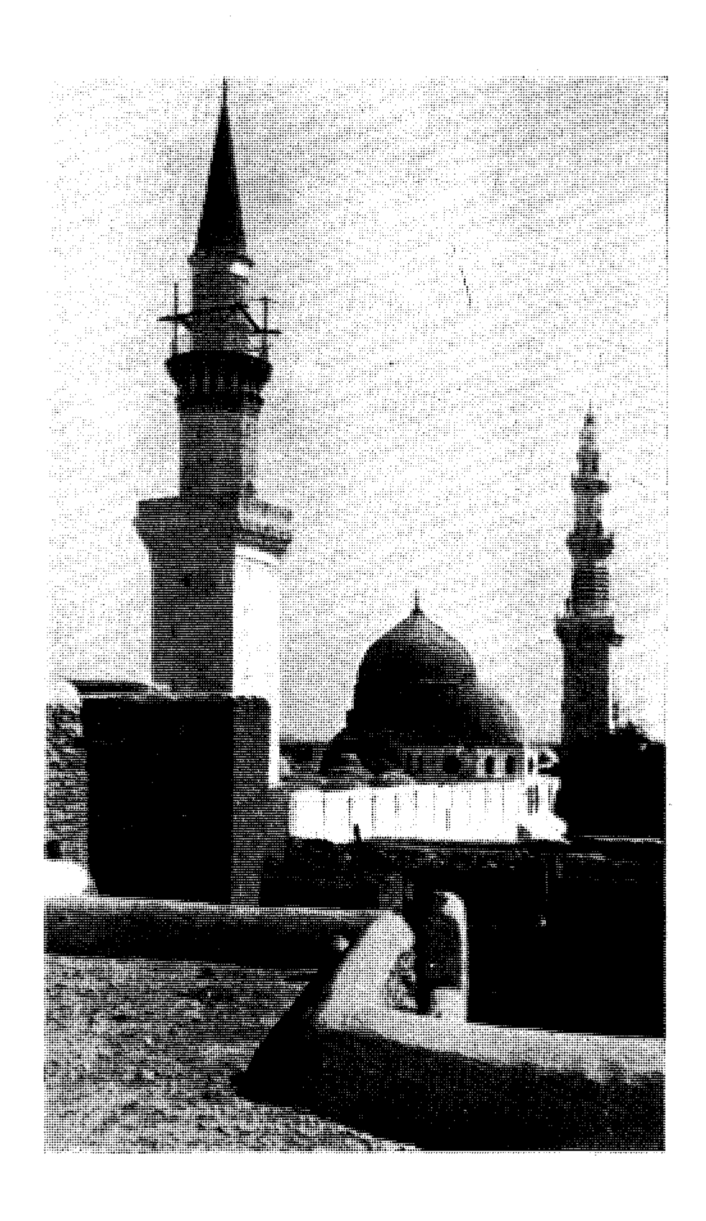
الشارع المؤدي من محطة المدينة نحو المسجد النبوي



المناخة، مخيم الحجاج في المدينة



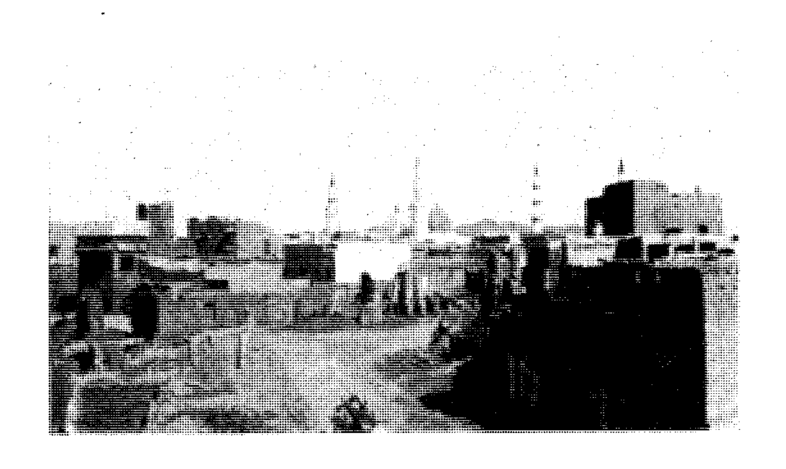
قصر السعيدي : حصن المدينة الرئيس



قبر الرسول ﷺ في المسجد النبوي



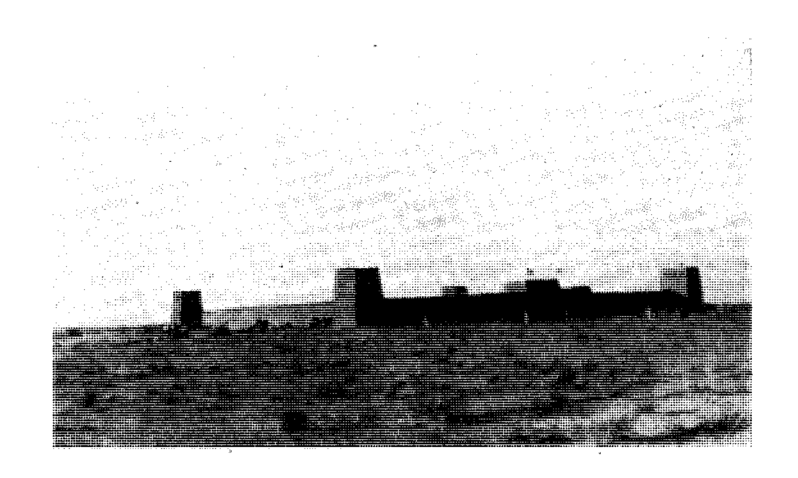
شارع مؤدٍّ للمسجد النبوي



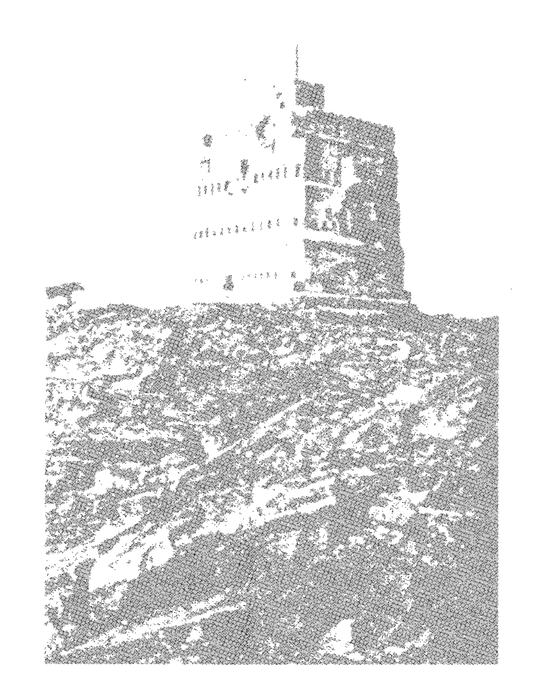
المسجد النبوي في المدينة



مخيم مهد الذهب بين المدينة ومكة



القصر ومحطة الوقود بالدوادمي على طريق السيارات من
مكة إلى الرياض



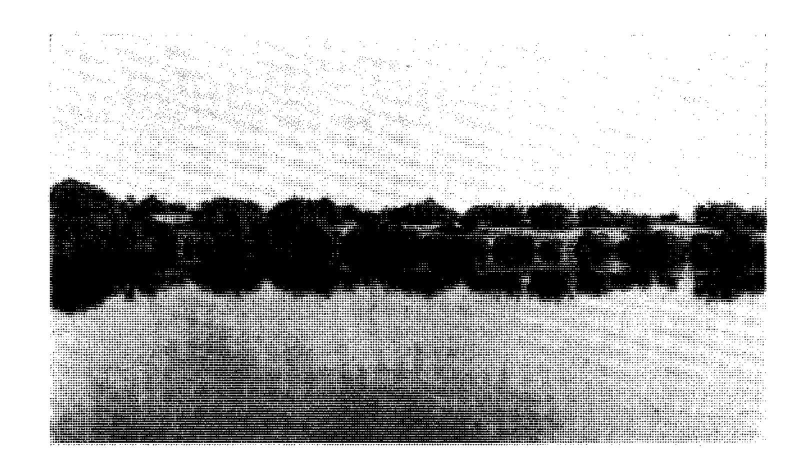
مخفر على الطريق من المدينة إلى قباء



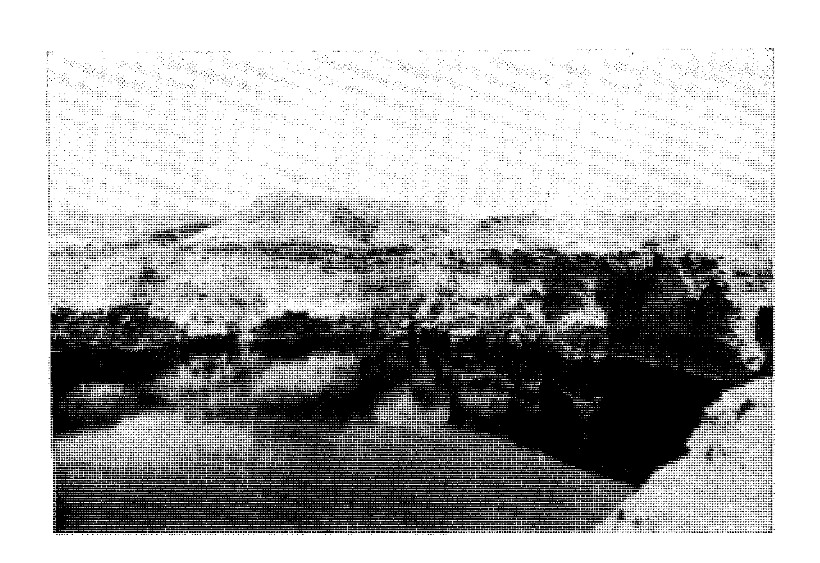
مسجد قباء



منظر عام للمدينة متجه غرباً



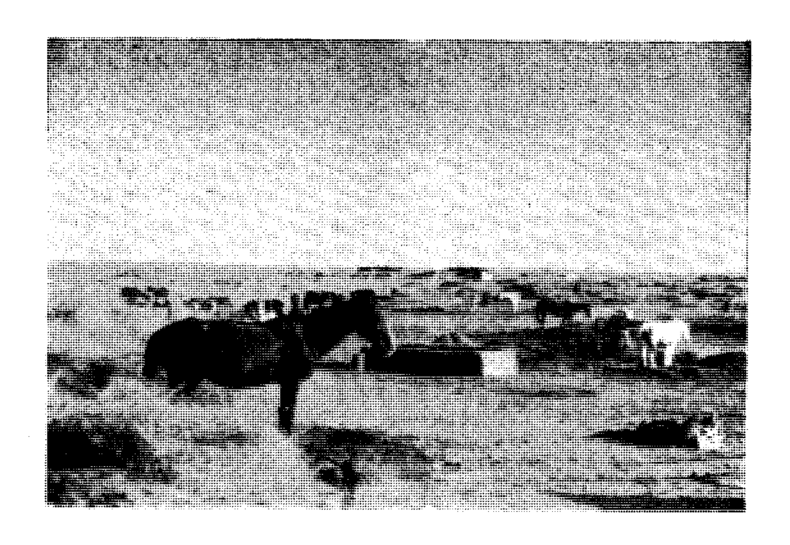
بحيرة مخيسة الإرتوازية في الخرج



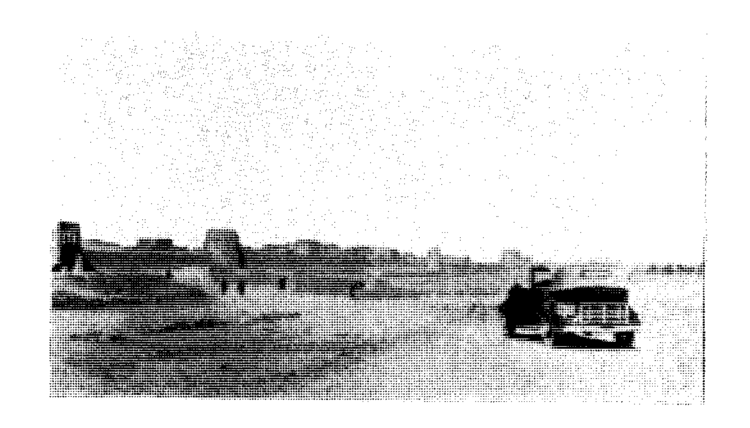
بركة عين سمحة الإرتوازية في الخرج



بئر المحدثة في الصحراء شرق مكة



خيول من مربط الخيول الملكية في الخرج جنوب الرياض



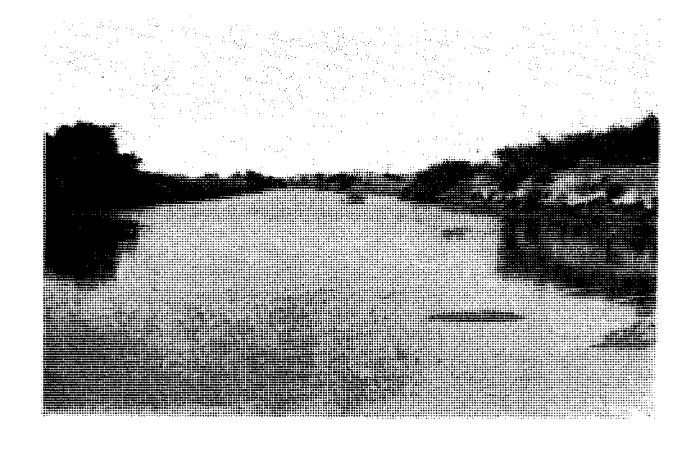
مدينة الرياض



بستان نخيل في واحة الرياض



سيارات توحلت في الصحراء الغارقة بالمياه قرب الرياض



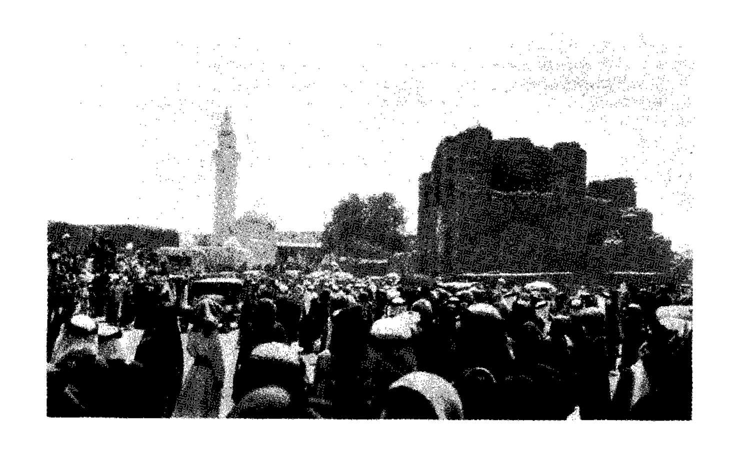
نهر في الصحراء بعد أمطار غزيرة



سانية في بساتين النخيل بالرياض



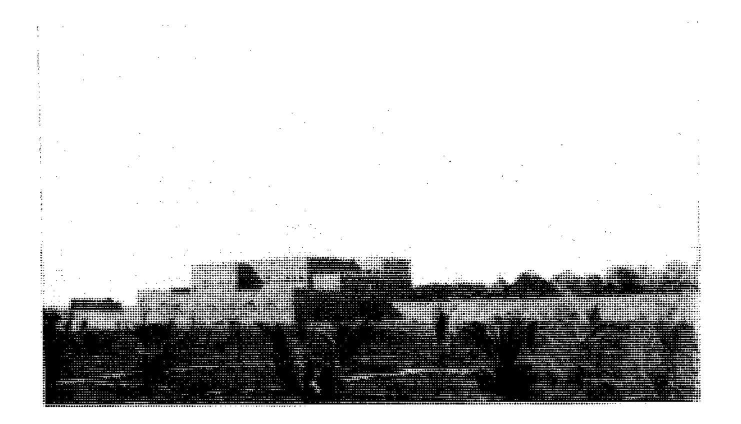
مقبرة العود بالرياض



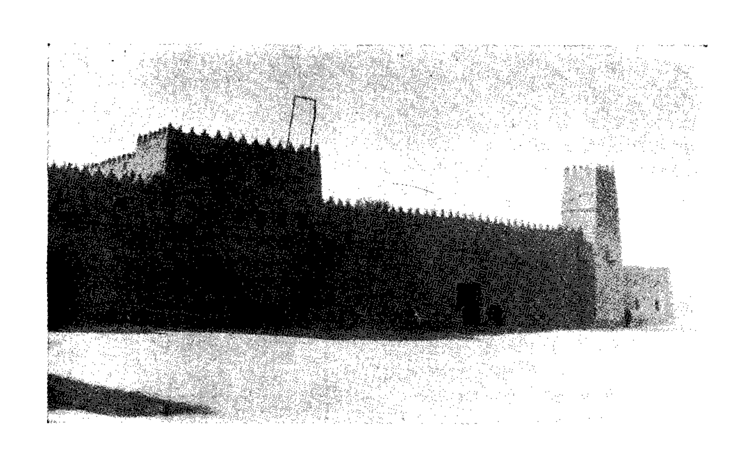
صلاة الجمعة في الجامع الكبير بالطائف



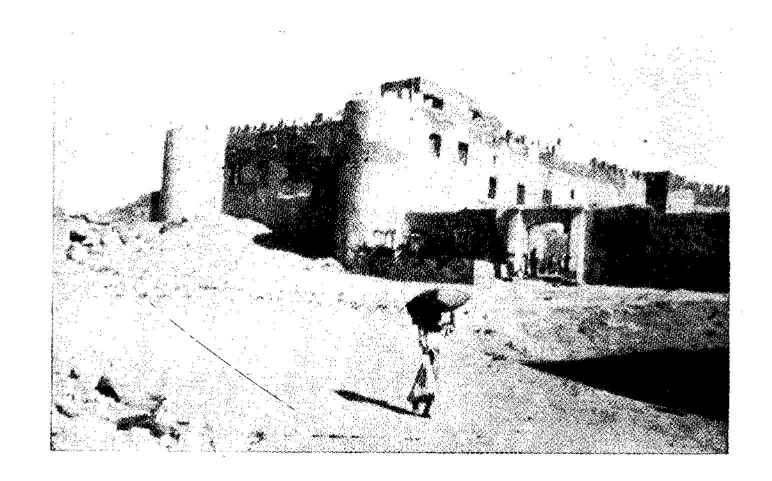
مدينة الطائف



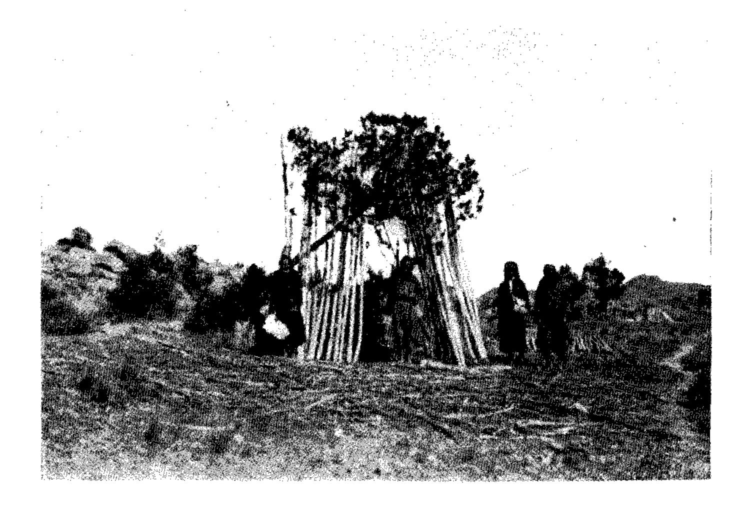
قصر الملك الصيفي في الباطن قرب الرياض



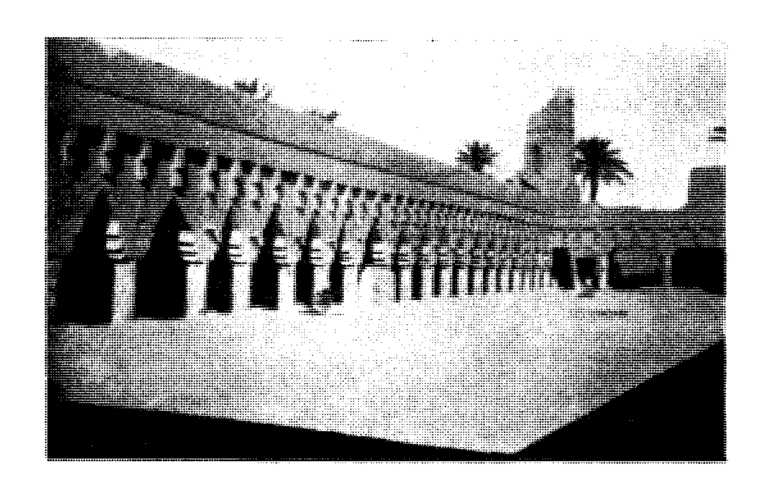
قصر أكبر إخوة الملك الأمير محمد بن عبدالرحمن
في الرياض



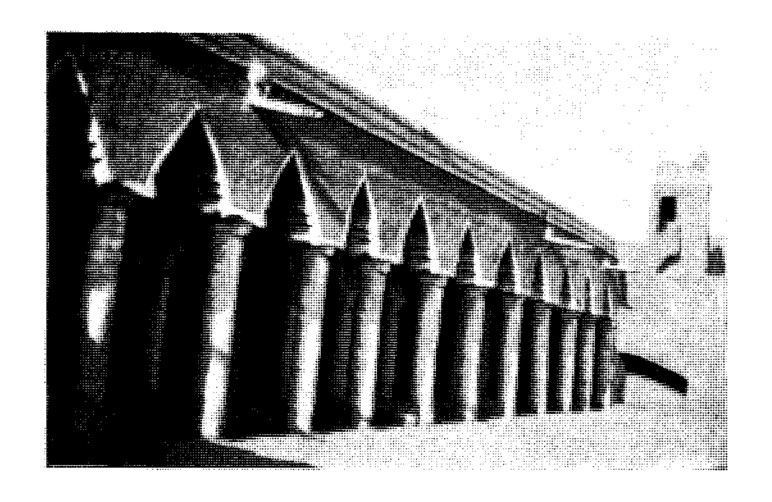
حصن الطائف



تكديس أخشاب العرعر في مرتفعات الطائف لسوق مكة



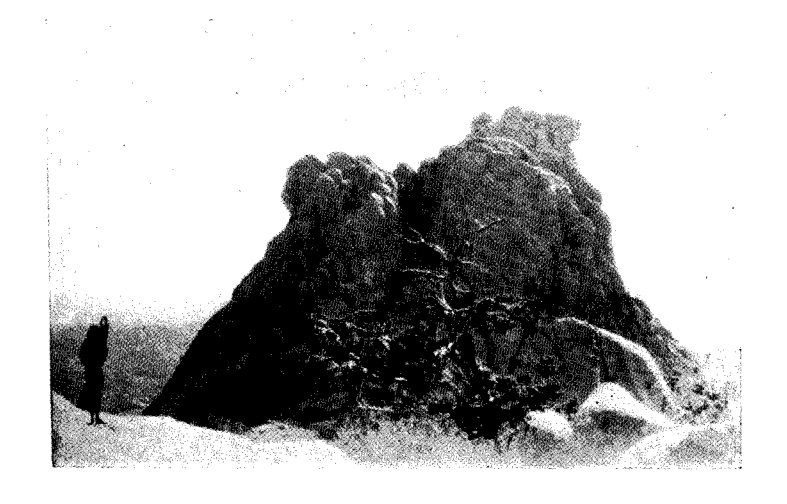
المسجد الجامع بالرياض



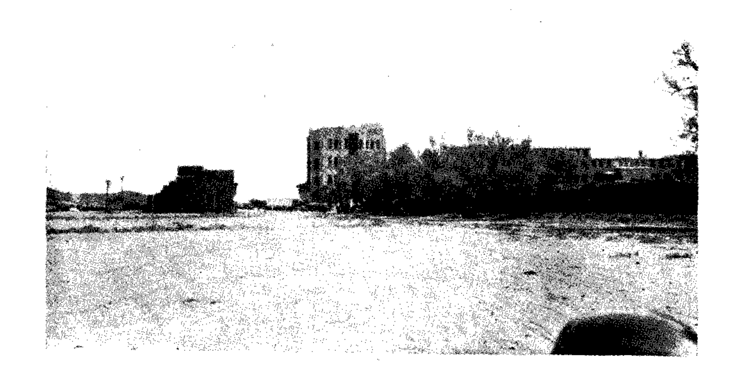
مسجد آخر بالرياض



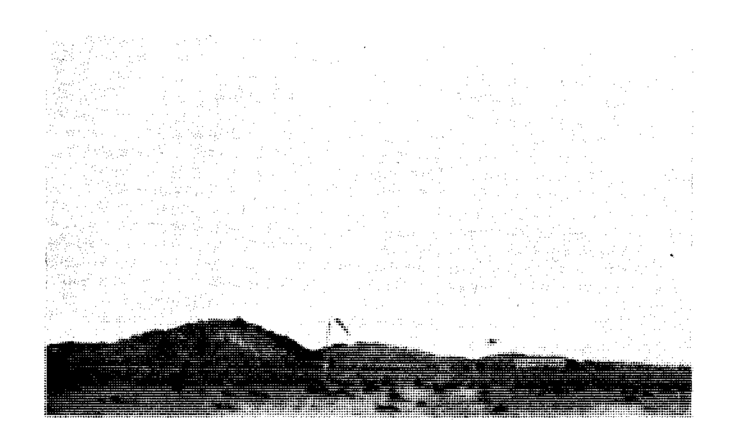
جبل قرنيت (٨٠٠٠ قدم) قرب الطائف



الذروة الفعلية لقرنيت



قصر الملك بالطائف (قصر شبرا)



مطار الطائف



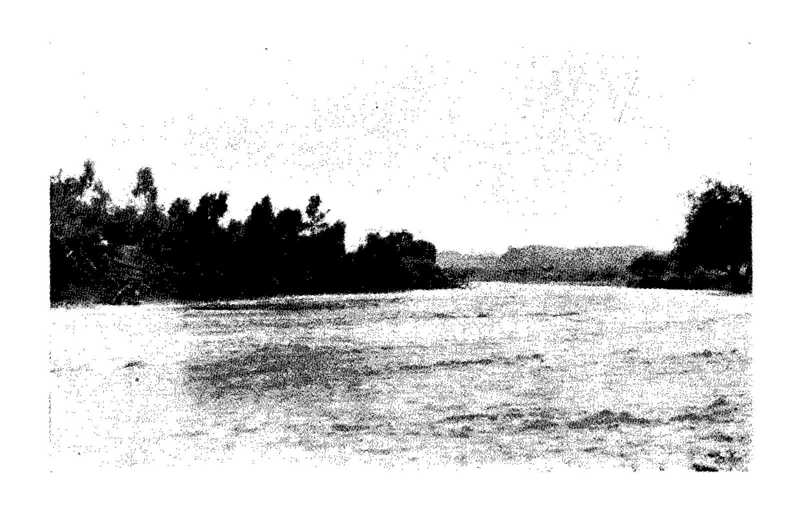
مرتفعات الطائف، يبدو قرنيت في وسط الخلفية



قرية الدلم في هضبة قارا



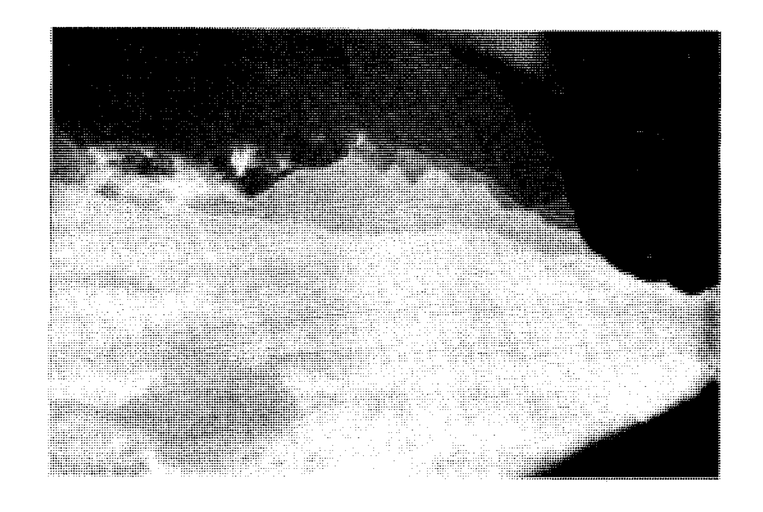
قرية جبلية قرب الطائف



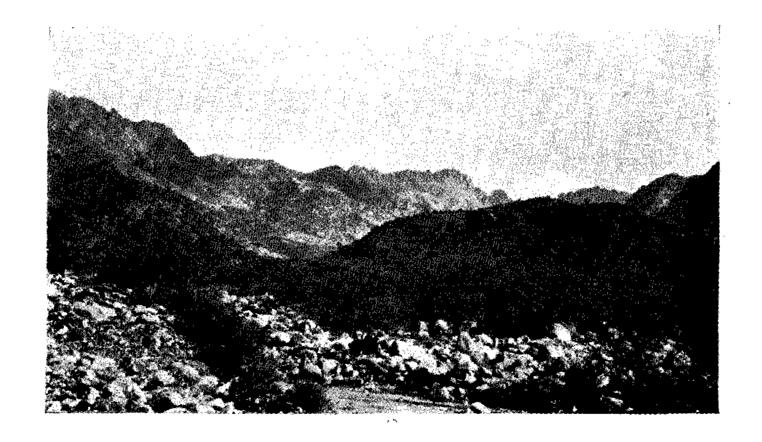
سيل الطائف (وادي وج) وقت الفيضان



قرية جبلية (نخب) قرب الطائف



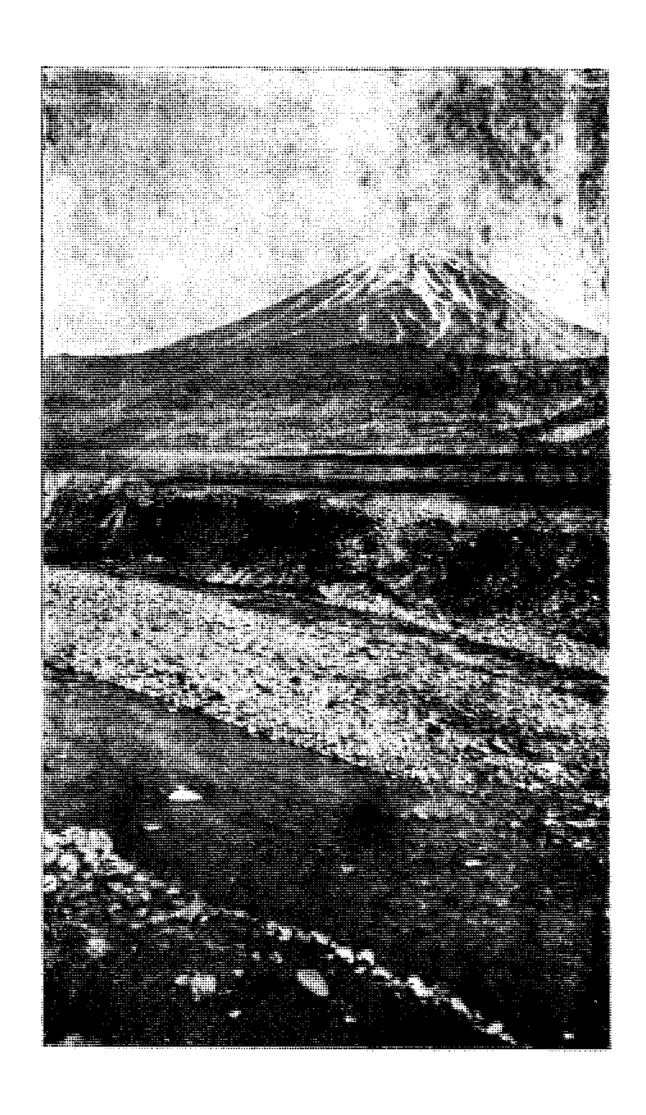
جبال الحجاز، كما ترى من قرنيت



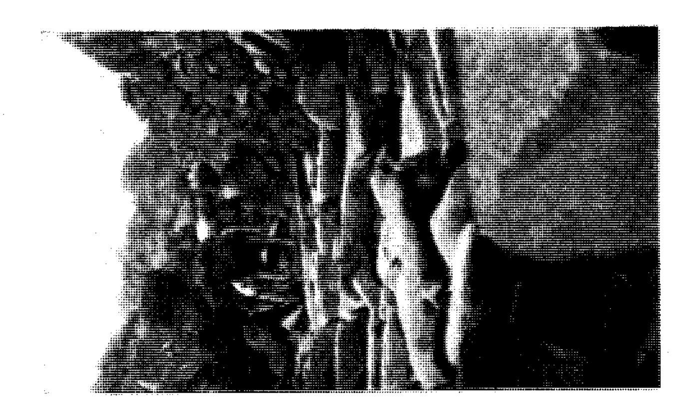
حاجز جبال الحجاز كما يرى من الأراضي المنخفضة



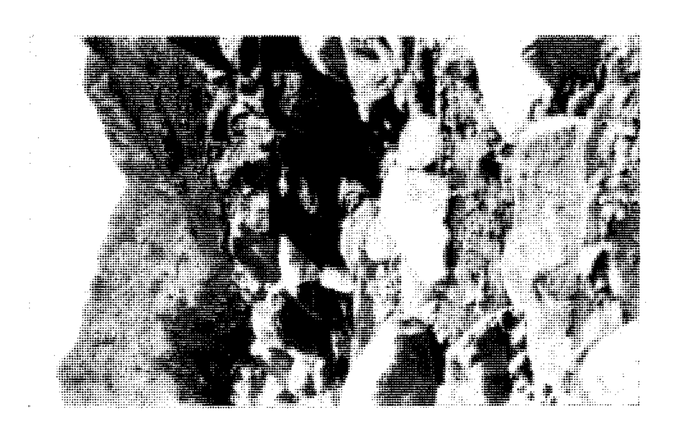
(نتوءات) دعائم جبال الحجاز



جبل دموند (أكثر من ١٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر) في شمال فارس



طريق ممهد في قمة ممر قارا



الاقتراب من قمة ممر قارا بين مكة والطائف

لم يزل ابن سعود هو رجل الجزيرة العربية البارز؛ ولا يزال يعد الرجل الذي لا غنى عنه لتقدمها في نظام الحكم الجديد. ولكنه لم يعد هو الوحيد الكافي للمهمة العظيمة بين يديه. لقد كان مؤخراً يسعى لإنجاز ما فوق طاقته، فأدى ذلك إلى نتيجة حتمية هي شعوره بضيق مزمن لا يظهر دائماً، ولكنه تحت السطح تظهره أية مسة طائشة. ففي أيام مصاعبه الأولى والأشد حين كان كل شيء في خطر بما في ذلك الحياة نفسها، كان (وكما لا أزال أذكره في فترة ما بين ذلك) بشوشاً، متفائلاً، واثقاً، مغامراً وديمقراطيّاً. أما الآن، بعد أن استقر هانئاً على شجرة المجد البشري، وليس هناك ما يخسره، أصبح متمسكاً برأيه، قليل الكلام غير منطلق (إلا في الأحايين التي يترك فيها نفسه على سجيتها، كسابق عهدها، في المجتمعات البدوية، في الحديث عن الحرب وتجاربه المتعددة). وبالرغم من ذلك، وبعد أخذ حساب كل شيء، فإن هذا الرجل، وقد حباه الله بسلطة مطلقة في عهده، يشعر بها ويدركها، لم تأت أو تحدث صدفة، وإنما هي نتيجة جهود شخصية مضنية، لم يفقد شيئاً من إنسانيته، وهو ما يثير العجب.

وفوق ذلك كله، فإنه نموذج راق للمروءة العربية التي كانت في العصور القديمة. فالمرأة، والخيل، والجمال، واللبن، والتمر، وغارات الصحراء، والحرب - تلك كانت الخلفية الأساسية لسيرته حتى زجت به حماقة حسين وظهور القومية العربية في ساحة السياسة والدبلوماسية العالمية والإمبريالية. لقد بدا مرهقاً وهو في بداية الخمسين من عمره. لقد حقق ما كان يمكن تحقيقه، إنه في الظروف الحالية لم يضطرب أبداً منذ البداية، ولكنه صار ضجراً، وذلك

لافتقاره لرجال، يقدرون على تحقيق إرادته، ويشرحون له بكل أمانة وشجاعة حقائق الأوضاع الجديدة، الغريبة. لذا، وهو في عمره المتقدم، فإن العبء الذي كان يحمله كان فوق طاقته. فلم يعد مرحاً كعادته. لقد بذل كل ما في وسعه، فهو الآن في الحادية والخمسين، ولم يبق خارج ملكه سوى اليمن من كل الجزيرة العربية (باستثناء مناطق الانتداب والحماية). فإن كان ذلك كل ما في وسعه، فإن أولئك الذين كانوا يحلمون بجزيرة عربية عظمى، متحدة ومزدهرة تحت حكم عربي واحد، عليهم توريث أحلامهم تلك لنسل لم يولد بعد، ورثة أجيال ودنيا متغيرة جداً.

لم يعد هناك أحد يشك في أنه من بين كل المرشحين لسيادة الجزيرة العربية وقت الحرب أن ابن سعود وحده كانت له المزايا الضرورية لذلك. ومن أدرك ذلك من أولئك الناس آنذاك فإنه فرض عليه واجباً ومصيراً لا يقدر عليهما أحد إلا شخص خارق للعادة. ولكنهم لم يفطنوا لعامل واحد، لم يكن وارداً في الخاطر آنذاك - موقف القوى الأوربية من قيام دولة عربية قوية عظمى من أشلاء الحرب. إننا نعرف الآن أن بريطانيا وفرنسا لم تريدا قطعاً أن تريا الجزيرة العربية حرة، موحدة، مستقلة؛ ولقد عرفنا أن ابن سعود كان سيضيع وقته في مقاومة غير مجدية للانتدابات والحمايات. إن موقف القوى الأوربية قد يكون عقبة مميتة لتوحيد الجزيرة العربية في زمننا الحاضر. وما كنا إلا لنشعر بأن معظم المعاناة الحقيقية لابن سعود هذه الأيام - حالات حدته وضيقه - كانت معاناة الأسد الذي أحس بالسياج المحيط بالحديقة التي خصصت لسيادته. فالضغط الاقتصادي، الناتج عن الصرف الإداري المسرف أيام الوفرة، والحاجة الفعلية

للأموال أديا دوريهما في ما يحس به الملك مؤخراً. لكن المشكلة الفعلية كانت الحاجز الخفي الذي سبب له المصاعب. فلو أن مهمته كانت قد أنجزت لكانت سبباً لأسى فعلي (لحساده)، ولكن نقاده كانوا سيصيبون حين يشيرون إلى عجزه البين في وقت الأزمة الاقتصادية. إن الذين يطمحون في أن يكونوا قوى عظمى في العالم، بطبيعة الحال، عليهم أن يظهروا قدرتهم على لعب اللعبة - وعلى المرء أن يعترف آسفاً أن العراق وفلسطين آنذاك (وعلى سبيل المثال) كانتا ستصدهما التجربة الحالية في الحجاز عن المطالبة بالحكم السعودي كبديل لنظام الانتداب الحالي أو بأية بدائل محلية أخرى عنه.

كانت مغادرة الملك مكة المكرمة في نهاية شهر يونية تتسم كعادة جلالته بالتهيئة والاستعداد من فك وتركيب وتجهيز للمياه والطعام وغيره. وكما كان يحلو لجلالته أن يقول: إن التحرك ذاته كان اقتصاداً. إن نصف نفقته اليومية في الرياض كانت ستكون ولو في غيابه - نفقة بيوته، رواتب الموظفين والخدم، والصرف على بيت الضيافة - بينما هنا يمكن التوفير بقيود صارمة على استخدام السيارات. ويبدو أن نحو عشر سيارات فقط كانت في الخدمة الدائمة، بينما كانت نحو عشر أخرى، أو أكثر، مخصصة للسفر إلى الحجاز، أو الأحساء، أو الأماكن الأخرى. كما كان عدد أكبر من ذلك مخزوناً لحاجة قد تعن في المستقبل، وإن لم يكن واضحاً أنها كانت معتنى بها أو في أمان من سرقة بعض قطعها الصغيرة.

لا يستطيع أحد ما أن ينكر أن عودة البلاط بكل ما فيه إلى نجد كان تحسناً كبيراً عن الحال في مكة لو أنه سيظل كذلك بصفة دائمة، وأن تصبح زيارات الملك إلى مكة مقصورة على الحد الأدنى الضروري أو ما يشابه ذلك.

وبالإضافة إلى الجانب الاقتصادي في التغيير، وبما أن الاتصال اللاسلكي بين الرياض وجدة (منذ ١٩ أغسطس ١٩٣١م) قد اكتمل وأصبح عاملاً، فإن الإدارة العامة لم يعد لها شيء تخسره، بل كانت هناك كل الفائدة من تحكم الملك فيها من بُعْد، فلا يعطي اهتماماً زائداً على الحاجة لكل صغيرة وكبيرة.

وكما سبق ذكره، فإني حين وصلت الباطن، وجدت الملك مستمتعاً بالجو غير الرسمي في قصر البديعة وسط أعداد غفيرة من أعضاء الأسرة المالكة، والبدو، وآخرين من أصحابه العاديين. وكان حاضراً من البدو نافع بن فضلية من حرب (الذي كان قد لحق بالملك من القصيم بعد عودته إلى الرياض مباشرة) ومطلق بن زيد من مطير الدوشان (كان متمرداً قبل عام بقليل ولكنه الآن تابع لا ينفصل عن مليكه). وفي مناسبة أخرى من هذه المناسبات انتبهت لغياب مطلق. وكان -وكما علمت- قد انطلق في الصحراء بقوة من راكبي الجمال من معسكر الملك في مهمة لا يعرف أحد تفاصيلها. وتهامس الناس بأنه قد مضى بحثاً عن فتاة يتزوجها - استعداد للغوص في أية مغامرة زواج جديدة. ولكن، في هذه الحالة، أحسبه قد سافر في مهمة مغايرة. ومما يثير الغموض فعلاً أنه اتجه نحو الحدود العراقية، بحثاً عن ذلك النوع من المتاعب الذي يناسب مثله من الناس، في حنين دائم لأية فرصة لاشتباك يتخلل ذلك الركود في فترة السلام الذي غطى البلاد. وفوق كل شيء، فإن مطلقاً من أولئك المتشددين في الجزيرة العربية، الذين لن ينسوا تلك الأيام غير البعيدة حين كانوا ينطلقون ليضربوا ضربة في سبيل الدين، ولو كان الثمن هو الموت. وأما محمد بن سحمي القحطاني، ذو العين البراقة، فقد كان ثالث الثلاثة، وبعد ذلك بأيام قليلة قدم مذكر الحشري (من قحطان)، لعله جاء ليعلن قرب

قدوم فيصل ؛ لقد لفت نظري عدد آخر من البدو المهمين في تلك الأيام، منهم ماجد بن خثيلة، شيخ قبيلة عتيبة، بلحيته السوداء التي تكاد تخفي ابتسامة خفيفة دائمة شديدة السحر. لقد كان مسئولاً مسئولية خاصة عن كل إبل الملك، ذا خبرة تامة بكل مصايد الغزلان والحبارى في كل المواسم. لقد كان فيصل بن حشر (الذي توفي منذ فترة وخلفه في مشيخته لفرعه من قحطان ابنه، خالد. وهو شاب على وجهه آثار من الجدري) هو عميد الجماعة - معين لا ينضب لقصص المغامرات في الصحراء في الأيام الخوالي. لقد عودته الحياة الشاقة مع طاقة عالية خارقة على تحمل العطش - بل إنه، وفي الظروف العادية، لايكاد يقرب الماء. لم يكن يكره أن يأخذ فنجالاً من القهوة من حين لآخر، ولكن اللبن والتمر كانا غذاءه الرئيس، مع اللحم، بطبيعة الحال، متى ما تيسر. يقال عنه إنه قتل ما يربو على مئة رجل في المعارك، ومنافسه الوحيد في هذا الاتجاه معاصره فيصل بن دويش - وهو الآن مسجون لخروجه على الملك، فقضي عليه بالموت في حبسه بعد عام أو عامين.

ومن القوم المتحضرين من حاشية جلالته، بل أهمهم بلا منازع كان يوسف ياسين، السكرتير الخاص الأول للملك، ورفيقه المخلص. وهو شاب من اللاذقية، ذو مظهر لافت للنظر وسرعة بديهة. إن كفاءته وإخلاصه لسيده لاشك فيهما ؛ ولكن الأمر خاضع للنظر وذلك إن لم يكن قد أضعف شخصيته بالقدر الذي لايؤهله لأن يكون رجل دولة، وذلك حين يقتضي الأمر مناقشة الملك أو يكون في الأحاديث العامة التي تؤدي دوراً مهمّاً في الإدارة. فالملك -ولاشك في ذلك- كان إداريّاً صعباً، على المرء ملاطفته، وبخاصة

أمام الناس، ومن حين لآخر. ولكن نجاح الحكومة السعودية أو فشلها في المستقبل كان يشارك فيه أناس مثل يوسف ياسين والشيخ عبد الله السليمان (وزير المالية)، وفي كليهما لايخفى على المرء تبين ميل مفرط فيه للاتفاق مع كل كلمات الحكمة الصادرة من الشفتين الملكيتين. لكن الاختلاف بين الاثنين ربما كان في أن الشيخ ياسين، وإن كان يحاول -إن اقتضى الأمر- بذل كل ما في وسعه لإقناع سيده، بخطأ ما في تنفيذ شيء ما كان قد أمر به، فإنه ينفذ جزئيّاً وبإخلاص الأوامر التي يتلقاها؛ أما عبد الله السليمان، المغامر بالفطرة، وبكل ما له من حاسية المغامر وتوتره، فإنه كان في استعداد تام ليوافق على كل ما قاله ابن سعود، ولينفذ، وعلى مسئوليته الشخصية، خلاف ذلك، أملاً منه في أن يقبل نجاحه كمقابل لطاعته. لقد كان الخوف يملؤهما - ومم الخوف؟ الخوف على وظيفتيهما [1]. على أنهما قد افتقرا للمعنى الجوهري لعظمة الإنسان. ولئن كان التاريخ سيذكرهما أبداً، فإنه سيذكرهما بما يستحقانه من منزلة. على أن الخوف في نظر الملك، منبع الأداء الجيد، فلا أحد يؤدي وظيفته أداءً جيداً إلا خوفاً من عواقب المعصية وعدم الكفاءة. قال محمد بن شلهوب، أمين الخزانة في الرياض، يوماً للملك: "والله! أخافك أكثر مما أخاف الله". أجاب ابن سعود: "قلت الصدق، لأنك حقيقة لا تخاف الله".

إن الخوف من الملك ليس إلا امتداداً طبيعيّاً للخوف من الله الذي هو أساس الإسلا؛ وفي الوقت نفسه، فإن فلسفتهم الفطرية لا تميز بين كون الله غنيًا عن

(١) هذه مبالغة من المؤلف، والواقع أن هذين الرجلين خدما الملك عبدالعزيز بكل إخلاص واحترام للملك كغيرهما من الموظفين الرسميين في الدولة. (المراجعون).

عباده وليس في حاجة إليهم وأنه أحق بأن يخافه المخالف لإرادته، وبين عدم صحة ذلك في حالة الملوك، الذين كثيراً ما يحتاجون للنصيحة من غيرهم.

إن يوسف ياسين، في توليه خدمة الملك بعيداً عن مكة، أصبح كما لو كانت حكومة الحجاز ونجد وما يتبعها جنيناً في الرحم. وكان لسان الملك في كل المراسلات التي تعود إلى الطائف ومكة. وإلى جانبه كان هناك عدد من الموظفين الأصغر منه سناً، كتبة وسكرتارية وناسخين، ولم يكن هناك أحد ما يقاربه مستوى أو أهمية. ولم يؤدِ الطبيب الخاص للملك، الدكتور مدحت شيخ الأرض، ومساعده، أحمد ياسين (المسئول عن مستشفى الرياض)، أي دور سياسي أبداً، وإن كانا يحضران المجالس الخاصة بحرية تامة. وإلى جانبهما، كان آنذاك رجل طرابلسي، متوسط العمر، كفء وذكي ومن أسرة طيبة، اسمه خالد القرقني، كان مقيماً في الرياض، ضيفاً مثلي. إن دم الحكام السابقين لإسبانيا (بني هود) يجري في دمه. وكان قد صرف معظم حياته وماله يحارب الاحتلال الإيطالي لوطنه (الذي اكتمل الآن باحتلال الأجانب في ظروف أدت إلى احتجاجات شديدة وقوية في كل أنحاء العالم الإسلامي). وفي وقت ما في عام ١٩٣٠م تولى منصباً رسمياً كأحد مساعدي نائب الملك في الحجاز. ولكنه لم يكن راضياً بلجامه الرسمي، الذي لم يجلب له الدخل الكافي لإعاشة عائلة كبيرة اشتهرت ببناتها الجميلات، اللائي أصبحت إحداهن زوجة لعبد الرحمن عزام، تاجر الأراضي المشهور في مصر. وبعد حين استقال من منصبه ليشارك الشركة الألمانية دي هاس وشركاه في جدة، وفي صيف ١٩٣١م، حين توقف العمل التجاري تماماً، قرر مرافقة الملك إلى نجد،

ويبدو أنه يؤدي بعض المهام الاستشارية. ثم رافق المهندس الأمريكي ك. س. تويتشل في بعثة للقيام بمسح تقريبي وسريع لإمكانات البلد المعدنية. ولكنه هو أيضاً، ولسوء الحظ، تعامل مع الملك بقدر مفرط من دبلوماسية البلاط، مما أضاع عليه فرصة أداء دور مهم ومؤثر في شؤون وطنه بالتبني.

إن هذا المسح السريع لدائرة البلاط في الرياض في تلك الأيام ترك في نفسي شعوراً بأن الملك، الذي كان عملاقاً، هو أبرز شخصية في الحكومة السعودية التي لا يوجد فيها شخص عنده من العزيمة والقدرة ما يؤهله لتقديم خدمات محسوسة للقضية العربية. فكلهم معتمدون على ابن سعود للقيام بالمعجزة المطلوبة (وهي بالإجماع العام توحيد العرب في حكومة واحدة)، ويجمع العرب في كل مكان بأنه إن لم يقدر عليها فإنه لا أحد غيره سيقدر عليها، ولا شيء يهم بعد ذلك. ولم يحدث لي أبداً أن شعرت باكتئاب عن مستقبل الجزيرة العربية كالذي شعرت به خلال تلك الشهور القليلة بعد رجوعي من الحج. لقد حدث كل شيء فجأة مع مجيء الأزمة الاقتصادية في البلاد، نحو نهاية موسم الحج. فحتى ذلك الحين، كان هو ذلك التفاؤل الصامت والأمل المبني على أضعف الأسس، الذي أبقى الناس أحياء ومتيقظين.

لقد انتهت رحلات الصيد العديدة التي كانت تحدث في برد التيه في بنبان والسلي ليحل محلها روتين حمل من خمود الصيف. ورجعنا، بطبيعة الحال، إلى الالتزام الصارم بصلاة الجماعة. فبعد الساعة الثالثة صباحاً بقليل، وعند ظهور أضعف شيء مما يشابه الضوء في الأفق الشرقي، نوقظ لوضوء مستعجل واندفاع إلى المصلى الخاص للملك، الذي يقع فوق المسجد الصغير في مباني

القصر . وهذا المصلى من قسمين ، قسم مسقوف ومغلق للشتاء ، وآخر مكشوف للسماء للصيف . فهنا ، إن جاء المرء مبكراً ، صلى ركعتي السنة ، وانتظر وصول الملك ، فعند ظهوره يندفع أحد رجال الحاشية إلى النافذة المطلة داخل المسجد ويصيح : "أقم" . بعد ذلك تصلى ركعتا صلاة الفجر ، وبعدها يأتي التسبيح بالمسبحة . ولا تلي صلاة الفجر أية صلاة سنة بعد ذلك ، ولعل ذلك لئلا ترد الصلاة قبيل طلوع الشمس الناس إلى طريق الوثنية . وبعد الصلاة يعود كل واحد (أو كل واحد بلا استثناء) للنوم . وفيما يتعلق بي فإني أبقى بالسطح حتى الساعة السادسة صباحاً ، حين تكون الشمس قد ارتفعت بالقدر الذي يزعجني . وبعد ذلك بقليل ، نحو الساعة السابعة صباحاً أو السابعة والنصف صباحاً ، يستقبل الملك الناس ، وفيما يبدو في أربع غرف منفصلة ، واحدة بعد الأخرى . يتم الاستقبال الأول في مكتبه نفسه ، وهي الغرفة التي تعارفت فيها معه ومع والده لأول مرة في ١٩١٧م ، وذلك لتصريف الأمور مع كتبته وسكرتاريه وللقاء الزوار الخاصين . بعد ذلك ينتقل إلى المجلس المجاور لها . وهو غرفة واسعة ، يقوم سقفها على ستة أعمدة ، مبطن بقماش ، حيث كان الزوار جالسين . وعادة ما يستغرق هذا الاستقبال وقتاً قصيراً . فإن كان هناك من يستحق مقابلة خاصة ، فإنها تكون في الغرفة المجاورة ، وهي مجاورة لمكتب يوسف ياسين نفسه ، حيث يكون الاستقبال الأخير والأخص . وهناك يأتي سعود ، ولي العهد ، وغيره من أعضاء الأسرة المالكة ، وآخرون مثل خالد ، الطبيب الخاص للملك ، وشخصي وأي أشخاص آخرين منحوا شرف "الدخول الخاص" .

وحين ينتهي عمل اليوم نحو الساعة العاشرة صباحاً، أو بعد ذلك بقليل، يعود الملك لقصر البديعة وحديقته، حيث الجناح المفضل لأهل بيته. وهناك يبقى لبقية يومه لنحو السابعة مساءً، حين يعود للرياض بالسيارة، للمبيت فيها مع إحدى زوجاته. إني لم أقل " الجناح المفضل " بلا مبرر. فالملك نفسه كثيراً ما يصف أهل منصور (أي أم منصور) بأنها القسم الأهم والأساسي في داره، القسم الذي يعيش فيه بصفة دائمة ويتناول فيه كل وجباته. وأبناء هذا القسم من البيت كانوا منصور، وبندر، ومشعل، وطلال (رضيع عمره سنة واحدة، عوض عن أخ شقيق بالاسم نفسه، كان قد مات في الطائف قبل عام) ؛ والأم (أم منصور) اسمها شهيدة [1]، كان لها حظ وافر من حب الملك لما يزيد على عشر سنوات. كما كانت هناك ثانية هي أم بندر، وثالثة، أم طلال. ولكن من هؤلاء، كانت شهيدة هي الأثيرة عنده. وكان لكل واحدة من زوجاته الأخريات (وكلهن عربيات المولد) جناحها الخاص في الرياض بينما ازدادت مساكن الملك العائلية بسكنى أكبر بناته غير المتزوجات الأثيرة عنده، العنود، أخت محمد وخالد، وابنة زوجته الجميلة الجوهرة، التي لم يشغل فؤاد زوجها بعد وفاتها في ١٩١٩م سوى شهيدة، ولم يكن ذلك إلا بعد سنوات طويلة. وعرف عن العنود أنها كانت فارعة الطول، سريعة البديهة. وقدر لها بعد ذلك أن تتزوج ابن عمها الوسيم سعود بن سعد، الأقل منها طولاً. فكان هو آنذاك في الثامنة عشرة، وربما كانت هي في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرها في الأكثر.

(١) توفيت في ١٩٣٨م. (المؤلف).

بعد صلاة العصر نحو الساعة الثالثة أو الرابعة، كنت ويوسف والآخرون نذهب بالسيارة إلى الباطن لننضم إلى مجموعة الملك. وبعد نصف ساعة يقدم الغداء، ويقضى بقية العصر في الجلوس والتآنس، عادة في أشياء غير مهمة، أو الخروج للتنزه لفترات قصيرة في بساتين النخيل أو في أرجاء الوادي، بينما يخلد الملك إلى الراحة مع أهله. وبعد ذلك تحين صلاة المغرب، ومزيد من الأنس حول صحون تمر اللون أو البسر، ثم الذهاب إلى المدينة في سيارة الملك الهدسون، وعادة ما نكون نحو أحد عشر شخصاً داخل السيارة وفوقها، وأحيانا تسعة أو عشرة - وهذا أمر غير مريح، ذلك لأن من يركب منا في صندوق السيارة -والملك راكب فيها- يكون جالساً مما يسفر عنه آلام مبرحة من الخدر فيما بعد. وعلى أي حال، فإن الملك كان يعترض دائماً على عدم ركوبنا معه في المقعد الخلفي ذي الوسائد المريحة. إن المسلم غير ملزم بتحمل مشقة يمكنه تلافيها، ولا حاجة له فيها. اسع إلى اليسر ما أمكن وتجنب فقط تعمد ارتكاب المحرم. ولا تفكر في عمل ذلك تعللاً بالذرائع.

وحال وصولنا القصر، يذهب الملك إلى غرفه الخاصة، بينما نذهب نحن إلى السطح الذي خصص لنا لاستخدامه في الليل. ونحو الساعة الثامنة مساءً نهبط إلى مصلى الملك الخاص لنصلي معه العشاء، وهو تسليمتان كاملتان[1]، تسبقهما تسليمة واحدة سنة، وتليهما تسليمة أخرى، بعدهما نتجمع في فناء ليس بالفسيح في الدور نفسه لنصف ساعة من القراءة في الحديث والتفسير يقوم بها قارئ الملك، وهو شاب له صوت جميل رتيب، لكنه عموماً كان ذا

(١) يقصد المؤلف أربع ركعات بتسليمة واحدة. (المراجعون).

تأثير قوي، تغلب على كل جهودي لمتابعة القراءة بالتفصيل. تكون المجموعة لهذه القراءة غير كبيرة عادة، جالسة على كنبات خشبية عالية، منجدة بخيوط قديمة وغير نظيفة من القطن. وتمر القهوة في فترات، ويختم الملك كل جزء من القراءة بقوله: " بارك الله فيك " . وبعد انتهاء القراءة بقليل ينهض الملك، وينفضّ المجلس. وأحياناً يصرف الملك المجلس، ويظل جالساً يصرف أي عمل له مع يوسف ياسين، أو الشيخ عبد الله العنقري، الشيخ الضرير، الذي كان معنا آنذاك، ويحضر جلسات القراءة بانتظام.

وكيفما كانت ملاحظة المرء، فإن الوجبة الوحيدة المنتظمة في اليوم كانت العشاء في قصر البديعة في وقت متأخر من العصر. وفي الصباح الباكر يقدم إفطار خفيف من الخبز، والعسل، والتمر واللبن الرائب، وبعد صلاة الظهر يقدم التمر واللبن الرائب أيضاً. ويمكن للمرء أن يطلب أرزاً، ولحماً أيضاً، وإن كان ذلك مما يقدم للموظفين والخدم. وفي المساء، قبيل النوم يشرب كل واحد منا طاسة كبيرة من حليب الناقة. وبصفة عامة فإن نظام الأكل كان مناسباً تماماً لفصل الصيف.

في السابع والعشرين من أغسطس جاء الملك مندفعاً في غرفتي، يتبعه يوسف وخالد، قبل أن أتمكن من أخذ حمام الصباح. سمعت صوته ينادي من بعيد في الممر : "أين فيلبي؟ . فيلبي ! أين أنت ؟ " . وقبل أن أجد أي وقت لأضع كوفيتي على رأسي كان قد وصل الباب شاهراً برقية كانت قد وصلت لتوها باللاسلكي من الطائف. " اقرأ هذه ! " هكذا قال لي، فقرأت خبر استقالة حكومة العمال الثانية، والنية بتشكيل حكومة ائتلافية لتعالج الأزمة المالية والاقتصادية هناك. وكنا في اليوم السابق نناقش الموضوع نفسه في

البديعة، ولم أكن قد قرأت أية صحيفة بعد الثالث والعشرين من يوليو، وهي آخر ما كان قد وصل قبل مغادرتنا مكة - وكنت قد وضحت رأيي بأن مثل هذا التطور مستبعد جداً. والآن، وفي خلال أقل من اثنتي عشرة ساعة، جاء خبر الأمر الواقع، وكان الملك في نشوة لذلك، إذ كان كثيراً ما يعارض بشدة توجهي الاشتراكي.

ولأيام عديدة كانت الحياة الفكرية في القصر في أدنى مستواها. فقلّت مناقشة المواضيع الجادة، وكان هناك تحاشٍ نوعاً ما، متفق عليه، للمسائل الاقتصادية والسياسية، وإن كان الملك قد لخّص الوضع في أوربا يوماً بتوقعه حدوث حرب عامة قبل الخريف! إن خبر استقالة الوزارة البريطانية، قد جعلت عجلة التخمين تدور مرة أخرى. وفي تلك الأمسية نفسها، وعلى سطح القصر الملكي صرح الملك بإسهاب لي وليوسف وخالد عن الوضع الحالي بين الدول العربية والقوى العظمى قائلاً: " لاتعتقدوا ولو للحظة واحدة أن أي جزء من العنصر العربي في أي جزء من العالم العربي له رغبة في التعامل مع فرنسا أو إيطاليّة أو أية قوة أخرى عظمى أو صغرى، فهم جميعاً بلا استثناء يريدون الاستقلال ومعه دعم بريطانيا العظمى وصداقتها. وهذا أساسي، ولكن بريطانيا العظمى لايبدو أنها تفهم الوضع. إنها الآن تجمع كل الشيوخ وغيرهم في الساحل من عدن إلى الكويت لتناقش معهم كيفية إدارة مصالحهم المشتركة تحت السيطرة البريطانية. ثم إن لديها ترتيباتها مع شرق الأردن والعراق. والآن، لماذا لا تبعث لجنة أو ممثلاً يطوف الدول العربية (لا موظفاً يعمل في هذه المناطق وإنما تبعث واحداً من لندن مباشرة يمثل الحكومة المركزية) ليقرر أي السبل أفضل لإقامة عالم عربي موحد تكون صداقة بريطانيا

هي البند الأساسي في سياسته . إني أتعهد بأن أعطي مثل هذا الممثل فكرة عن كيفية تحقيق هذا الهدف دون فرض أية تضحية بأي استقلال محلي لأي واحد من أجزاء العالم العربي . ولكن بريطانيا لايزال لها استعمارها لترعاه . فبينما هي تتحدث عن استقلال الهند تراها الآن مشغولة بلم تحالف يضم صغار المشايخ في الساحل العربي لتكوين وحدة استعمارية أخرى . وفوق ذلك ، فهي تخافني - إنها لا تعلم ما قد أفعله إن صرت قوياً وعظيماً . لكني أؤكد لكم أني لن أغتصب بوصة واحدة من أرض خارج ما لدي . لا واجب علي للعرب ، ولا شيء أخشاه منهم - إني راض تمام الرضى بأن أظل كما أنا عليه وأن أخدم ربي ومصالح بلدي " .

لقد كانت هذه صيحة اليأس مما حوله . لقد رجعت عقارب الساعة للوراء فعلاً خلال هاتين السنتين الماضيتين . والسبب في ذلك أن الناس قد تركت الملك ليصمد وحيداً ، لا يشد عضده أي امرئ شجاع بقول كلمة الحق . بل إن يوسف نفسه ، لم يقل شيئاً سوى إعادة خطبة الملك الطويلة نفسها ، وخالد ، لسبب لا يعلمه إلا الله ، صرح بقناعته بأن كثيراً من العرب في سوريا ، وغيرها ، في تشوق تام لأن يصبحوا تحت حكم السعوديين لو تفسح لهم دول الانتداب الطريق وصمت أنا لفترة . ثم حاول الملك أن يجرني إلى الحديث ، بأن عدم تنميته لصلات دبلوماسية وثيقة ووطيدة مع ممثلي القوى العظمى في جدة ، قد أضاع الفرصة (لأي تفاهم وثيق) التي كان يعد بها رفع مستوى القنصليّات إلى مفوضيات . فهلا تحدثت معهم مرات عدة ، وغير رسمية ، في كل الموضوعات مثلما كنت تحدثني عندما كنت في الوضع نفسه بالنسبة لك؟ "

" ماذا ؟ أتريدني أن أقول لهم إن موظفيكم في الخليج لا أمل فيهم ؟ إن حديثي الصريح معهم في مثل هذه المسائل هو الذي جعلهم أعداءً لي .

وذلك كان لب كل المشكلات. فابن سعود لم يستطع بعد بناء علاقات شخصية ذات مودة صادقة وعدم كلفة بالأجنبي مع حكومته. لذا، فإن المرء لايستغرب أبداً إن لم يكن بتقاريرهم في العموم وتوصياتهم تحامل، وإن قل، على السعوديين. والحق يقال إن الملك السعودي يقف وحيداً في مواجهة تخطيطات القوى العالمية. وبالرغم من كل جاذبيته الشخصية، وكرمه الفياض، وسخائه الغامر، واستقامته التامة، فإنه لايلقى سوى التزلف والنفاق في الداخل لا لشيء سوى أنه كان كثيراً ما يقول الحق بسياط صراحته. إن قضية العرب الكبرى بدت وكأنها تنزلق نحو حافة أكبر هاوية - العجز النفسي والسياسي. إن هناك رجلاً واحداً فقط قادر على بذل المجهود المطلوب لإنقاذها.

إن خير صورة للعجز المنتشر في البلاد كلها آنذاك كانت الكيفية التي عولجت بها مسألة اللاسلكي. فلعدة شهور بعد وصول المهندسين والأجهزة لم يتم شيء لبناء المحطة المراد بناؤها، إذ إن كل الطاقات كانت مبذولة في انتقال للأجهزة المتحركة. وبعد حين من الزمن تمكنا من استصدار أوامر من فيصل بنقل جهازين متحركين إلى الرياض، والاثنين الآخرين إلى الطائف. وتم تنفيذ هذه الأوامر، وفي التاسع عشر من أغسطس كان الجهازان المتحركان في الرياض على اتصال بالآخرين في الطائف. لقد انفعل رجال الطائف انفعالاً شديداً بهذا الحدث التاريخي، مما حدا بهم لإرسال عدة برقيات تهنئة إلى الملك. أما في الرياض (وبالرغم من المعارضة الخفية لهذا الاختراع) فإنه بدا كأن الاتصال كان هناك منذ قرون طويلة - فلم يكن هناك صدى بهذا الحدث التاريخي. بل إن البرقية الصحفية التي أعددتها لترسل إلى الديلي هيرالد،

معلناً فيها إمكانية اتصال العاصمة السعودية ببقية العالم ظلت حبيسة وقتاً طويلاً جعل إرسالها بعد ذلك شيئاً لا معنى له . ثم أن النقل بالسيارات (للبريد وغيره) بطيء جداً. ولكن إن دخلت ذرة من الرمال في «الكاربوريتر» ، أو حدث أي عطل بسيط ما مما يمكن أن يحدث لأية آلة من أي نوع ، أعلن يوسف أن الجهاز لم يعد صالحاً للعمل . ولم يكن مجدياً الإيضاح بأن الجهازين في الواقع في حالة ممتازة في وقت الكلام نفسه . لذا فقد صار وضعي حتماً أصعب فأصعب . ولم يكن أمامي شيء سوى الصمود ليقيني الراسخ بأن الزمن وحده كفيل بمعالجة كل المشكلات المؤقتة ، وإن كانت هذه المشكلة المتعلقة باللاسلكي ، قد جعلت من المستبعد جداً أن أستعيد مكانتي الاستشارية عند الملك السابقة للحج . لذا ، فإني -بلا أعباء رسمية لي- كنت عضواً غير رسمي في المجلس الملكي الخاص .

وهكذا كانت الحياة خلال تلك الأيام . وتمكنت ذات يوم من تخصيص صباح يوم لاصطياد الفراشات في بستان العطنة بين حي القري الجديد (كان بستان نخيل في زيارة ١٩١٧م - ١٩١٨م) وبستان الوسيطى ، الذي كان قد تقرر قطع نخيله لتحويل الأرض لمنطقة سكنية . وقدر لبستان العطنة أن يكون مكاناً لمحطة اللاسلكي الجديدة ومستودعها . لقد كنت مستغرباً جداً لندرة الحشرات في الضوء بالليل على سطح القصر . ولكن في الفصْفصَة[1] في بستان العطنة كانت الفراشات في أعداد كثيرة - معظمها زرقاء (مَن نوعين أو ثلاثة) وفصيلة بيضاء - والجندب كذلك . لقد استمتعت بصباحي ذلك بينها ، وجمعت منها نحواً من سبعين فراشة وثلاثين أو أكثر من الجندب . وفي عصر ذلك اليوم (السادس والعشرين من أغسطس) ، حدث تغير في النظام اليومي

(١) الفصفصة : نبات عشبي جمعه فصافص يعطى للدواب . (المراجعون) .

بدعوة كانت وجهت للملك للغداء في أحد البساتين خارج السور الغربي للمدينة. وكنا مدعوين أيضاً، وذهبنا إلى هناك، أنا ويوسف وخالد، مشياً في حر الظهيرة. لقد كانت تغييراً جميلاً لنا أن نجلس في حديقة بدلاً من القصر في البديعة. وكان الغداء وليمة كالعادة، عدنا بعدها لحديقة العطنة ليرى الملك الموقع الذي ستكون فيه محطة اللاسلكي. وهناك صلينا المغرب، وأكلنا من تمر الوسيطى، وأمر الملك ببناء الحيطان والدعائم.

إن نمط الحياة الذي وصفته سابقاً يتغير تغييراً جذريّاً أيام الجمع. فمن نحو الثامنة إلى التاسعة صباحاً يجلس الملك جلسة خاصة، ثم يعود لمقره ليستعد لصلاة الجمعة، في نحو الساعة الحادية عشرة والنصف إلى الحادية عشرة والدقيقة الأربعين في هذا الموسم. لقد تجاوز عدد سكان الرياض طاقة المسجد الجامع، أو المسجد الرئيس، مما اقتضى أن يكون هناك مسجدان آخران للجمعة. إن أرضية المسجد الجامع، قبالة القصر، مغطاة بحصى صغير مثلها مثل أرضيات المساجد الأخرى في الرياض. لكن الملك يؤدي صلاة الجماعة في مصلاه الخاص، وهو غرفة ضيقة وطويلة مبنية فوق سطح المسجد، تمتد من ركنه الجنوبي إلى نحو نصف حائطه الجنوبي الغربي، يصلها بالبناء الرئيس للقصر (بطرفه الغربي) ممر مسقوف، قائم على أعمدة. وهنا نجتمع أنا ويوسف وخالد مع أتباع الملك في وقت مبكر كالساعة العاشرة أو العاشرة والربع صباحاً. وبعد ركعتي السنة يجلس المرء يقرأ القرآن. وبعد حين من الزمن، يدخل الملك، مع بعض أفراد أسرته (وعادة ما يكون منصور بينهم)، ويجلس أمام المحراب، وهو امتداد علوي للمحراب الرئيس للمسجد، وجهته إلى الجنوب الغربي على أن الاتجاه الصحيح للقبلة غرب الجنوب الغربي (٢٤٥ درجة) - وهي حقيقة. وبعد

انتهاء الملك من ركعتي السنة ينضم إلى جماعة التلاوة، وتستمر قراءة القرآن حتى يجيء الصوت الأول للمؤذن، فيعم المكان، العلوي والسفلي، صمت فجائي. عند ذلك يعلن صوت المؤذن الحاد النداء للصلاة. وما أن ينتهي حتى يملأ صوت الخطيب العالي الرخيم المكان بالخطبة، والمواعظ، ثم يختمها بالدعاء. وعندئذ تقام الصلاة بصوت جهوري قوي في نغمة الكلام العادي. وبعد ذلك تؤدى صلاة الجمعة. بعدها نصلي ركعتي السنة، ونجلس حتى ينتهي الملك من أدعيته الطويلة. وبعد الصلاة يجلس الملك برهة من الزمان لاستقبال عامة الناس. وبعد ذلك يحق للناس أن تنصرف، لتناول طعام الغداء أو تنام أو تقضي فترة الظهيرة حسبما ترى.

وفي أيام الجمع يقوم الملك بزيارة المقبرة الكبيرة عادة، وهي واحدة من عدة مقابر تلاصق العاصمة، وتعود لعهد فيصل، الذي ربما كان أول من دفن فيها من أفراد الأسرة الملكية، بينما دفن أبوه تركي في المقبرة القديمة خارج السور الشمالي وبوابة الظهيرة. وتحتل المقبرة الجديدة مساحة كبيرة من الضفة اليسرى من البطحاء وليس لها باب أو سور، وكنت قد رافقت الملك في إحدى هذه الزيارات في الجمعة الثانية بعد وصولي. فحين وصلنا بالسيارة إلى المقبرة، تركنا أحذيتنا في طرف منطقة القبور وتجولنا حفاة وهو شيء مؤلم أحياناً. وكان الإمام الرسمي، الشيخ محمد بن حمد بن فارس، يرشد الملك، ويسمي له أصحاب القبور التي ينبغي زيارتها. وبهذه المناسبة فإن الرسول قد سمح بزيارة القبور كوسيلة لتذكير الأحياء بالموت -المصير الحتمي-، وإن كانت عقيدة السلفيين وممارستهم لايسمحان بتقديس تراب الموتى[1]. ومن بين

(١) منهج السلف هو الالتزام بسنة الرسول ﷺ التي تنهى عن البدع، ومنها التبرك بالقبور والتوسل إليها، فجاءت الدعوة السلفية لتحيي السنة المطهرة. (المراجعون).

أولئك الذين حظوا بشرف الزيارة كان مشايخ الرياض، أحفاد الإمام الكبير محمد بن عبد الوهاب وتلاميذهم. لقد رأيت لقبور هؤلاء المشايخ تأثيراً عاطفيّاً واضحاً على الملك حيث كان يدعو لهؤلاء الشيوخ بالجنة، جزاءً لما عملوه في هذه الدنيا. ومن القبور الأخرى كانت قبور أمه، ابنه فهد (توفي ١٩١٩م)، ابنه الأكبر وولي عهده لبعض الوقت تركي (توفي ١٩١٩م) بجوار الجميلة الجوهرة (توفيت ١٩١٩م)، التي كانت يوماً ما ملكة كل هذا العالم الصحراوي. وهناك أيضاً أبوه عبد الرحمن، في قبر معتنى به نسبيّاً - ليس لأي قبر شاهد أو أية زينة أخرى، وإن كان بعضها تحيط به الحجارة وغيرها من الأشياء بحالة أحسن من غيره - وغير بعيد فيصل نفسه مع ابنه الأكبر وخليفته عبد الله بجواره. ومن النساء المدفونات أيضا أم فيصل، نائب الملك في الحجاز، وهلم جرا، حتى عدنا مرة أخرى للسيارات، وسرنا بها إلى بعض التلال قرب غار جبل أبو مخروق لتمضية الوقت حتى المغيب حين صلينا وشربنا القهوة في البيت الصيفي لسعود العرافة في الشميسي. إن سعود بن فيصل، وفيصل بن عبد الرحمن، وعدداً من أعضاء الأسرة الملكية يرقدون في المقبرة القديمة حول تركي، قريباً من الموقع الأصلي لبداية سكنى الرياض، ولبئر حجر اليمامة وبستانه.

وبعد يوم أو يومين صادفت رجلاً في رحلته الأخيرة للمقبرة، وذلك حين كنت ألف في الحي السكني الجديد بالقري، في طريقي إلى العيادة الصحية الصغيرة التي كانت قد بدأت هنا في ١٩٢٩م، والتي أثبتت أهميتها بما يفوق الوصف، إذا قاس المرء الأمور من سجل الزائرين. وكنت قد اتفقت مع الدكتور أحمد ياسين وصيدليه، الدكتور نديم، على زيارتهما في موقع عملهما، فوجدتهما في قمة الانشغال فعلاً. لقد كان أحد أفراد حاشية الملك هو المريض الذي يفحص آنذاك،

فسلمت عليه وصافحته باليد واكتشفت بعد جلوسي على كرسي الشرف الذي كان قد أخلاه أنه يعاني من مرض معد كان قد أصابه قبل عشر سنوات في الكويت، وتلقى علاجه هنا وفي مكة، وإن كانت هذه هي زيارته الأولى لمستشفى الرياض فقد انصرف على أن يعود مرة أخرى لأخذ حقنة علاجية ثانية بعد أسبوع، وفي تلك السنة -من الخامس عشر من ديسمبر إلى الخامس عشر من يوليو تقريباً، أو في مدة سبعة أسابيع- بلغ عدد المرضى ٩٧٨٠ شخصاً بمعدل ١٤٠٠ مريض في الشهر، وأقل من الخمسين تقريباً في اليوم، ولكن في ربيع الأول ارتفع العدد ارتفاعاً مزعجاً لموجة عامة من الدنجو[1]، فبلغ العدد في الفترة من السادس عشر من يوليو إلى نهاية أغسطس نحو ٣٣٢٠ تقريباً. بمعدل نحو سبعين مريضاً في اليوم. أما مرض الزهري، فإني تحصلت على الإحصاءات لثلاثة شهور، تظهر ١٩٣ مريضاً به من كل ٣٨٤٠ مريضاً أي بنسبة خمسة في المئة من المجموع العام. أما السل الرئوي والجدري (بموجات من وباء الدنجو من حين لآخر) فإنهما كانا بلاءً على البلاد، بينما أعطت أمراض العيون، مختلفة الأنواع، للطبيب كل المجالات الطبية التي تأهل لها. ولم يكن عندهما نقص في الأدوية أو المؤن، ولكن الوقت لم يكن قد حان بعد لمستشفى كامل في الرياض. وذلك لحسرة الدكتور أحمد ياسين الذي أوشكت سنوات عقده الثالث على الانتهاء، ولأسباب لا ضرورة لذكرها، لا يرغب قضاء بقية حياته في الرياض.

ويوماً بعد يوم كانت تمضي رتابة حياة عصر كل يوم في قصر البديعة، وكنت قد بدأت أشعر بشيء من الضيق منها. إلى أن لاحت بعض التغييرات. ففي عصر أحد الأيام مثلاً كان الملك قد قبل دعوة غداء في أحد البساتين الغربية بالرياض. وفي مرة أخرى، في العصر بعد الغداء قام بنزهة في البساتين المجاورة

(١) يسمى أبو الركب. (المترجم).

المعروفة باسم المحطة، التي يقال إنها كانت موقع الاستحكامات التي كان قد أقامها السعوديون في الدرعية، في القرن الثامن عشر، لصد هجوم القوات النجرانية بقيادة حسن بن هبة الله، التي هزمت شر هزيمة في آخر الأمر في مذبحة عظيمة في الحائر، الذي سمي بهذا الاسم لتبخر برك الدماء التي كانت في منخفضه[1]. وكانت في هذا البستان شجرة تين ضخمة، يبدو أنها كانت قديمة، لم تثمر تيناً جيداً ذلك الموسم، وإن كان الملك يتذكر أنه قبل سنة أو سنتين كان قد رأى فيها تيناً ضخم الحجم يتقطر عصارة حلوة. وكانت بعض أشجار النخيل (العمر الأقصى للواحدة ١٥٠ عاماً) قد اجتثتها السيول هنا وهناك فحلت محلها أخرى أصغر منها. لكن البستان كان أقرب للغابة منه لأي شيء آخر، فأشجار الفاكهة - الخوخ، والتفاح، والعنب - متزاحمة في تشابك وغير مقلمة. وفي يوم آخر، وبعد الغداء، ذهب الملك في جماعة إلى بستان في أعلى الوادي، على ضفته اليسرى، لابن مطرف، أحد حاشيته. لقد كان منظره رائعاً، بجذوع النخيل الباسقة خارجة من حقل الذرة، مقطوعة الرءوس، التي تزرع وتقطع لتكون علفاً. وابن مطرف، وهو رجل مسن الآن، كان حامل راية الملك، فكان جلالته يقول له: "ياعم"، بأدب شديد. فكم من معركة كان يحمل فيها راية سيده، وكم من جرح عليه يشهد على معاناته. أما ابنه، وهو شاب رشيق حسن البنية ووسيم، فقد كان في السنوات الأربع أو الخمس الأخيرة تعلق بقيادة السيارات. وهو الآن في خدمة الملك، كأحد السائقين الملكيين.

وفي الباطن، وعلى جانبيه ابتداءً من البديعة، تنتشر بساتين النخيل لبضع كيلومترات في التربة الطينية التي ترسبها السيول الموسمية. فقد قيل إن السيول

(١) ليس صحيحاً ما ذهب إليه المؤلف أن تسمية الحاير جاءت من تلك الحادثة بل إن اسمه قديم ويعرف به إلى الآن. (المراجعون).

في ذلك العام جاءت ما لايقل عن أربع وعشرين مرة، مستمرة في واحدة أو اثنتين منها ليومين بلا انقطاع. وفي بعض الأماكن كست جانبي المجرى جلاميد من الصخور الجيرية من التلال، كما أن بطنه من الرمال والحصى - وهو بكل ما فيه وادٍ رائع، غطته آنذاك خيام البدو.

وليس في البساتين كلها ما يفوق بستان البديعة، الذي كانت تغرس فيه أشجار النخيل حين زرته قبل أربع عشرة سنة. ويبدو أنه كان ملك الأمير سعود، الذي ذكر أن له ١٢٠٠ نخلة، كلها في كمال خصوبتها. وفي الطرف الأقصى من البستان من جهة النخيل بئر كان سعود قد نصب ماكينتي بتر بقوة ثمانية أحصنة، تعمل بمضخات جنزير من نوع أكواتول بدلاً من الحمير والجمال التي كانت تروح وتجيء في المجر المهجور. فباستهلاك تنكة من الكيروسين كل ثماني ساعات، فإن الماكينتين تعملان معاً لأربع وعشرين ساعة في اليوم في شهور الصيف الحارة حين يكون النخيل في أشد حالات الظمأ. ولقد عزل جزء عن القسم الرئيس للبستان ليكون حديقة للفاكهة، زرعت فيها أشجار الخوخ وغيرها، وإن كان موسم الفاكهة لم يكن جيداً ذلك العام. وفي يوم من الأيام، بعد صلاة العشاء، حيث كان من عادة الملك أكل التمر وهو في حالة اللون - يأكل واحدة أو اثنين بعد غسلهما قليلاً بشيء من ماء الباطن العذب - قدم للملك الجمّار، أو قلب جذع النخلة، الذي يعني قطعه قتل النخلة - لذلك فإنه طعام رفاهية بالغة، به شيء من هشاشة الكرفس، وطعم لطيف بحلاوة يتعذر وصفها.

وكان باب البستان مغلقاً دائماً، لأنه كان منتزهاً لسيدات القصر وخادماتهن، اللائي كنا نراهن يزغن في الخضرة هرباً من حضور الرجال، حين كنا ندخل البستان بلا سابق إنذار، كعادتنا دائماً. ولقد كان النبات كثيفاً بالقدر الذي يخفيهن تماماً. وقد حدث في واحدة أو اثنتين من المناسبات حين نظم ابن

سعود لعبة إلى حد ما تشابه اللمس - يقوم فيها عبد شبه معصوب العينين بمطاردة الآخرين بلا تمييز بينهم، بيده عصا من جريد النخل يضرب بها بشدة يمنة ويسرة على كل من تقع عليه يده - أن قمت أنا، والآخرون بلا شك، بالوقوف صدفة على تلك الجماعات من الجواري المحجبات، وتجفيلهن. لقد كنت أستغرب كثيراً من عدم استخدام الملك هذا البستان الجميل أكثر مما يفعل لجلساته الغادية في العصر. ولكنه كان قد ركن إلى الحياة الداخلية، الشيء الذي لم يكن يفضله لصحته قطعاً. وفي مناسبة أخرى كان الملك مدعواً للغداء، عصراً متأخراً كالعادة، لدى بعض أسرة السديري، ذات النسب العريق ببيت آل سعود عن طريق التزاوج بين الأسرتين. فقد كانت إحدى زوجات الملك آنذاك ابنة أكبر السديريين، أحمد، وهو رجل مسن لطيف المعشر، كان ولسنوات طويلة من أكبر المؤيدين المخلصين للملك. وكانت سيارة (أو اثنتان) قد أرسلت إليه في مقره في الغاط في منطقة سدير (التي منها اسم العائلة) لإحضار الشيخ الكبير لزيارة ابنته في الرياض ؛ وكان الاحتفال بهذه الزيارة سبباً في رحلة الغداء التي نظمتها أسرة السديري في بستان نخلها في المصانع، الواحة في ضاحية الرياض. لقد كانت حديقة رائعة حقّاً، بعريشات العنب، وأشجار الخوخ متزاحمة في ظل أشجار النخيل الباسقة، الخارجة من خليط غير منظم من الحشائش والأعشاب، التي مدت فوقها المائدة الشهية على قطعة كبيرة من القماش الأبيض. وكان الشيخ الكبير قد جاء باثنين من أصغر أبنائه معه -وهما في عمر ابني الملك من السديريين فهد وسلطان- وجاء أيضاً ابن السديري عبد الله وابن أخيه محمد الذي أصبحت زوجته المطلقة، زوجة الملك وأم فهد. إنها تبدو حالة معقدة نوعاً ما، لكن المسائل الزوجية للعائلة السعودية متداخلة إلى حد كبير.

وكان من بين حضور هذه المناسبة الشيخ عبد الله بن حسن المشهور، الذي يبدو أقل تشدداً من المشايخ الآخرين، وإن كان من أقوى المدافعين عن العقيدة. وفي طريقنا من الباطن إلى المصانع، وقريباً من منزل محمد بعتيقة، مررنا ببستان الشيخ عبداللطيف[1] (ذكره بالجريف، الذي جعله شمال شرق الرياض بدلاً من جنوبها أو جنوب شرقيها !). وهناك انطلق الملك يثني بانفعال شديد على ابن زارعها الفعلي، عبدالله، أعظم كل المشايخ الحاليين، الحكيم في مشورته السياسية بقدر تفقهه في الدين. لقد كان هو فعلاً اليد اليمنى للحاكم الشاب طيلة تلك السنوات الأولى في طريقه إلى المجد. وكان الملك يعترف بذلك لا بالشكر فحسب، بل بحماسة وهو يمر بالبستان، الذي كان يبدد فيه الشيخ حر النهار، مما جعل حكمه صائباً، ومشورته حكيمة. وظل هذا الشريط من الأفكار في البال الملكي طيلة العصر. وتكلم جلالته باستفاضة عن تعاليم الإسلام. ومهما تكن خطايا المرء، الخلقية وغيرها، فإن المرء يظل مسلماً حقّاً، ويرجو رحمة الله في الحياة الآخرة. ولكن شيئين بلا شك يخرجان المرء من الإسلام - الشرك بالله في العبادة والمجاهرة بالمعصية[2]. ولقد قال أحد مشايخ نجد، حين واجهه في مصر ما لا يوافق عقيدته السلفية، وسئل عن رأيه فيما رآه؛ إن كنت أفعل ما تفعلونه فإني سأعد نفسي كافراً. ولكني لا أقول إنكم كفار، لأنكم تفعلون ما تفعلونه عن جهل، بينما أكون أنا قد فعلته عالماً بأنه خطأ.

والمصانع منطقة نخيل واسعة في أقصى الطرف الجنوبي من بلد الرياض

---

(١) مكان هذا البستان أو المزرعة هي الزاوية الجنوبية الشرقية لصياح، جنوبي مدينة الرياض. (المراجعون).

(٢) معتقد أهل السنة والجماعة أن الشرك بالله يخرج المرء من الإسلام. أما ارتكاب المعاصي، فإن كانت المعصية مما يكفر بها صاحبها كسَبِّ الله عز وجل فإنها تخرج المرء من الإسلام سواء جاهر بها أم لا، أما إذا كانت من المعاصي التي لا يكفر صاحبها كعقوق الوالدين فهذه لا تخرج من الإسلام سواء جاهر بها أم لم يجاهر لكنه آثم على كل حال. (المراجعون).

يفصلها مجرى السيل الرملي لوادي حنيفة من شريط الحدائق الواسع في منفوحة إلى الشمال. وفي هذا المكان يعترض الوادي سد قوي من الحجارة، تقويه ما يشبه الدعامات في مسافات متفرقة منه ليحول السيل إلى بساتين النخيل في المصانع ومنفوحة. وفي الأخيرة هذه كان الملك قد اشترى مؤخراً بستاناً بمبلغ ٢١,٠٠٠ ريال - وكان ريال ماريا تريزا آنذاك يزيد قليلاً على تسعة عشر جنيهاً إسترلينياً - ليكون ملكاً لمنصور وأمه. وبدت لي قرية المصانع، التي لم تكن كبيرة أبداً، كأنها صغرت في حجمها، بينما بدت منفوحة كأنها تلفظ آخر أنفاسها - تلك البقية الباقية المحزنة من مدينة كانت عظيمة يوماً ما بالمقاييس العربية، لم تزل حيطانها الشاحبة منتشرة في مساحة شاسعة في خطوط متقطعة. لقد بدت مهجورة أو كادت تكون، وتفسير ذلك غريب بقدر ما هو يسير. ففي الأيام الغابرة كان الناس يضطرون للتجمع في المدن والقرى لحماية بعضهم البعض من قلة الأمن الشائعة، ويبنون الأسوار ويصونونها باستمرار. أما سلم هذه الأيام فقد أدى إلى هجرة عامة إلى بساتين النخيل مما نتج عنه تفكك مجتمعات القرية، التي قنعت بالرياض مركزاً رئيساً للتسوق تزوره حسب الحاجة. أما بالنسبة للبقية، فقد قنعت كل أسرة بأن تنغلق على نفسها في استقلالها الزراعي. فالغذاء والماء كانا الحد الأدنى للبقاء. وعدا ذلك فإن الذكر يبحث له عن أنثى تسعده وتحمل نسله - وهو نوع من العيش القاسي لا عزاء فيه سوى بصيص الضوء الواقع على الأرواح الميتة لأولئك الناس، الآتي من المنارة النائية للدين الحق[1]. وفي هذا الوقت لم يفتأ عقلي يعود لعجز حكومة ابن سعود عن السيطرة على أزمتها الاقتصادية، ونتيجتها الحتمية

---

(١) هذه هي الحياة التي قسمها الله لأهل المنطقة عموماً وقد رضوا بها أملاً في الله بأن يوسع عليهم الرزق، وهو ما حصل في أواخر عهد الملك عبدالعزيز وحتى الوقت الحاضر، حيث تغيرت حياتهم ونظرتهم للدنيا مع بقاء تمسكهم بدينهم وقيمهم الاجتماعية. (المراجعون).

لكساد التجارة والعمل التجاري في الأرض. وكانت البقعة الوحيدة المضيئة، وبكل حق، الإصرار الرائع للملك على التقشف في الصرف حتى العظم (وربما كان هو إصرار حكومة الحجاز أيضاً، وإن ظل اقتصادها الرئيس في هبوط مستمر أعجزه عن دفع الديون المستحقة، وبالتالي أعجزه عن شراء السلع بالدين كالسابق). وكانت شواهد الاقتصاد في الرياض أوضح من أن تخفى على العين. بل إن الضيافة الملكية نفسها كانت تعاني أيام العسرة، والوجبات التي كانت تقدم لم تبلغ المستوى العالي المألوف.

إن أي دليل على الاقتصاد كان مقبولاً. ولقد كان شيئاً متعلقاً بهذا الموضوع ذات أمسية (الثاني عشر من سبتمبر ١٩٣١م)، بعد صلاة العشاء، حين كنا مجتمعين مع الملك فوق سطحه الخاص وهو يصرف أمر البريد الصادر للأحساء حين سعدت بسماعه وهو يملي رسالة طويلة رائعة في أسلوبها كروعتها في محتواها إلى عبدالله بن جلوي، رداً على شكوى مطولة من الإجراءات الاقتصادية والتدخل العام من لجنة الدخل بالأحساء التي عينت مؤخراً، المكونة من الشيخ محمد الطويل وإبراهيم بن معمر. وفي واقع الأمر قال الملك، إن الأحساء تدار باقتصاد مدهش، بحيث لم تتجاوز جملة الصرف الشهري ١٥٠٠٠ من ريالات ماريا تريزا، لكن النظام كان ضرورياً.

ولقد أثبت ابن سعود في تمليته هذا الجزء من الخطاب أنه متمكن من موضوعه وحاكم بالفطرة أيضاً. وترك لعبد الله بن جلوي تحديد المبلغ الشهري الضروري له ولعائلته، وأن تدفعه له الخزانة، ولا يكون محل مراجعة أو أي تفتيش آخر. أما نفقة الضيافة، فإنها من الآن فصاعداً تتولاها الخزانة، وعلى الحاكم فقط أن يتأكد من أن الطعام المقدم في المستوى اللائق. ويتلقى الزوار من

البدو من التمر، والأرز، والسمن (سماه الدهن)، والبن ما يكفي خمسة أشخاص، سواءٌ أكان الوفد مكوناً من خمسة أم مئة أم ألف. واللحم يجب أن يقدم حسب النظام المعروف حالياً - لاشيء للناس غير المهمين، خروف لجماعة كبيرة وذات أهمية بالقدر الكافي، وجمل لجماعة كبيرة في صحبة زائر مهم. ومن الناحية الأخرى، فإن ضيافة غير البدو تديرها مصلحة المالية كذلك، وتكون في بيتين للضيافة، أحدهما للضيوف من الدرجة العالية، والثاني للخدم وغير المهمين من الناس. وفي كل الأحوال يحدد حق الضيافة بالأيام الثلاثة التقليدية إلا في حالة أولئك الذين لديهم أعمال مهمة، قال الملك مستمراً في إملائه: "مثلاً، في ذلك اليوم كلفت ضيافة فلان (مسمياً شيخاً من البدو) ٢٠٠٠ ريال، بينما كانت ١٥٠ إلى ٢٠٠ ريال ستناسب مكانته تماماً وبكل تأكيد". وهكذا بمهارة ولكن بأدنى قدر من الاضطراب، أزال ذلك الخلط المضطرب بين الصرفين الخاص والعام، الذي هو سمة الإدارة الشرقية، ليفتح الطريق للإصلاح في المستقبل دون أن يجرح شعور واحد من المدرسة القديمة، مخلص قلباً وقالباً، كان قد قام بخدمات تحت الظروف القديمة، ولم ترق له الأساليب الجديدة للإدارة، حديثة الناب. لكن الملك دعاه بألاّ يعمل شيئاً لم يسبق العمل به بالرياض للمصلحة العامة للدولة. فابن سعود، وكما هو جلي واضح، صاحب صنعة حين يعالج الشؤون الداخلية للجزيرة العربية وشعبها الذين كانوا موضوع تجربته كل حياته. ولكنه يخيب الظن حين يترك أرضه الحقيقية للأرضية المالية والاقتصاد الغريبة عنه. وحدث تنويع في رتابة حياة البديعة في عصر يومين متتاليين، حين قام خادمان من القصر بنوع من تهريج الهواة أضحك الجميع.

قَرْنَيْت[1] - التاج

إن زوار الطائف، القادمين من سهول تهامة، ذات الحرارة والرطوبة الشديدتين، ومن سفوح الجبال الحارة المحيطة بمكة، يعشقون القيام برحلات قصيرة إلى الأودية الجميلة والوهاد المتخفية وراء الثنايا التي تكونها القمم والأطراف الشرقية للسلسلة الرئيسة من الحجاز. إن ليّة[2]، المشهورة برمانها، منتجع مفضل لأولئك المتنزهين، بينما يفضل آخرون وادي محرم والهدا، لسهولة الوصول إليهما من طريق مكة. والوَهَط والوهيط[3] يزورهما عادة الراغب في قضاء عطلة آخر الأسبوع بهما، أو من بإمكانه الابتعاد ليوم واحد فقط عن المدينة. ولكن ليس من كل الأماكن المتاحة لمتعة الزوار الذين يأتون للطائف في فصل الصيف من كل سنة، ما يثنى عليه بشدة مثلما يثنى على المنطقة التي تسمى الشفا، التي لا نظير لتينها الشوكي، في الجزيرة العربية كلها - وربما العالم كله، والتي لوديانها جو أكثر لطافة ومتعة من جو الطائف، التي يعتقد بأنها جافة جفافاً شديداً لايناسب كل الأبدان. وفي الأودية العليّة تلطيف لجفاف الطقس بالندى والرطوبة الآتيتين من المياه السطحية وشبه السطحية في الوهاد الرملية التي تحبس مياه الأمطار الموسمية وغيرها.

في خريف ١٩٣٠م زرت كثيراً من الأودية الواقعة في الأطراف، التي تشمل

---

(١) قَرْنَيْت: جبل جنوب الطائف في شفا بني عمر من بني سفيان من ثقيف، ذو شعبتين إحداهما أطول من الأخرى. معجم معالم الحجاز للبلادي ج٧، ص١٢٢. (المراجعون).

(٢) ليَّة، واد كبير جنوب الطائف له روافد كثيرة، وينتشر على ضفافه العديد من القرى. (المراجعون).

(٣) الوَهط والوهيط: قريتان زراعيتان تقعان في وادي وج جنوب الطائف. معجم معالم الحجاز، ج٩، ص١٥٠-١٥١. (المراجعون).

وادي ليّة، ووادي محرم والهدا ؛ ولكني لم أجد وقتاً أبداً لزيارة الشفا . ولكن الصدفة لا التخطيط أتاح لي في أكتوبر ١٩٣١م رحلة كنت أتطلع إليها دائماً .
وكنت قد أمضيت ثلاثة أو أربعة أيام في الطائف، بلغت خلالها حالة اليأس للاكتئاب العام الذي كان يسود الدوائر الرسمية وغير الرسمية، وفي بلاط نائب الملك . فقد كانت الأزمة المالية والاقتصادية في أسوأ حالاتها . وبدا أن الجميع كانوا مجمعين على أن المصدر والأصل لها هو وزير المالية، عبد الله السليمان، وإدارته ؛ وبدا أنه لا أحد قادر على فعل أي شيء لتصحيح الوضع . وفي الوقت نفسه كان موظفو مصلحة المالية هم الوحيدين الذين كانوا يستلمون رواتبهم وبدلاتهم الأخرى السخية بانتظام، بينما كان موظفو المصالح الأخرى كلها تتأخر رواتبهم - بحد يبلغ ستة أو سبعة شهور في معظم الحالات - وكان الفقر سائداً، ومؤلماً[1] . لذا؛ فإني شعرت أنه علي الابتعاد عن مثل هذا الجو مهما كلف الأمر، وقررت بسبب اليأس أن أعود إلى حر مكة والوحدة بدلاً من البقاء في طقس ألطف الحوار فيه خاو بلا نهاية . ولما قررت ذلك، طرأت علي فكرة رائعة بالتجول بمفردي في أعاليّ الحجاز، إن عملت لي الترتيبات اللازمة بسرعة وبلا كثير عناء . والذي حدث هو أن المشروع رتب نفسه بنفسه . لقد تمكن السيد حمزة غوث، الذي كنت ضيفه في الأيام القليلة أثناء إقامتي بالطائف من العثور على رجل يمكنه تسوية كل ما يتعلق بزيارتي للشفا . وجاء صاحبي بحمارين في صباح الرابع عشر من أكتوبر، وتم الاتفاق على أن أبدأ الرحلة بأحد هذين الأخيرين، واسمه محيسن، من قبيلة قريش، وخادمي الذي جاء معي من الرياض، عبد اللطيف، وبحمارين، في ظهر اليوم نفسه، بعد الغداء . وكان أجر كل حمار ريالاً ونصف الريال في اليوم، بما

---

(١) تعود هذه الحالة السيئة إلى الوضع الاقتصادي الذي عاشته البلاد في تلك الفترة المبكرة خاصة فترة الخمسينيات الهجرية/ الثلاثينيات الميلادية نتيجة للكساد الاقتصادي الذي عم أرجاء العالم . (المراجعون) .

في ذلك رفقة محيسن وخدماته - اسماً ٣ شلنات (إنجليزية)، وفعلاً شلن (إنجليزي) ونصف، نسبة للحالة الخطرة للريال في أسواق الحجاز. وسرعان ما أرسلنا عبد اللطيف للسوق ليشتري إبريقاً للشاي، وكمية مناسبة من الشاي والسكر. وما عدا ذلك، فإننا سنعتمد على البر أو نصبر على الجوع - وهو احتمال بعيد الحدوث. وفي الظهر كان كل شيء قد اكتمل، والحماران واقفان على الباب. وكان حمزة قد عاد في موعده من جلسة المجلس الاستشاري ليتغدى؛ وفي الساعة الثالثة مساءً، انطلقت مجموعتي الصغيرة، وكان خروجنا من المدينة بالباب المجاور لمسجد ابن عباس. أما محيسن -وهو شخص قليل الذكاء والكلام، على أمل أن أدفع له مقدماً أجر يوم لحماره- فإنه كان يمشي على قدميه، ولكنه كان يساير الحمارين، اللذين كانا يسيران بتمهل، بلا معاناة ظاهرة.

ولسوء الحظ - وهي حقيقة كان الواجب التحقق منها منذ البداية، ولكننا لسبب لا نعرفه لم نفعل - إنه لم يذهب للشفا أبداً طيلة حياته، وإن كان مسكنه يقع وسط أودية الحبلة وسلاسلها في طريق الطائف - مكة. لذلك فإنه لم يكن مفيداً كمصدر لأية معلومات جغرافية، ولا كمرشد أيضاً. ولكننا واتانا الحظ بعد نصف مسيرتنا في العصر بملاقاة راعية أرشدتنا إلى الطريق نحو الشفا، قبل أن نغوص في وادٍ كان سينتهي بنا في وادي لية، في الاتجاه المعاكس.

وكان مسارنا، بعد خروجنا من باب ابن عباس، يقع في اتجاه جنوبي شرقي تقريباً عندما يصعد المرء الوادي، الذي تقع فيه ضواحي الطائف ذوات الحدائق، وهي الحوية، وشِهْر وقراهم، بهذا الترتيب من أسفل إلى أعلى. وبعد تجاوزنا للضاحية الأخيرة انحرفنا قليلاً عن الوادي عبر الأطراف المنخفضة

لسلسلة كانت إلى يميننا حتى التقينا ببطن سيل آخر، غليظ السطح. وفي طرفه الأعلى أتينا على بعض البساتين المسورة بالحجارة، وعلى قليل من البيوت والأكواخ المبنية بالحجارة الغليظة نفسها - ومنزلة القصر، وبها أشجار من السدر نامية جداً، في وسط رقع واسعة من الدخن والبرشومي (كمثرى لاذعة الطعم جداً).

وكنا آنذاك قد سرنا لنحو ساعة، قطعنا خلالها نحو ثماني كيلومترات، ودخل طريقنا في منطقة تلال على سفوح الجبال يغلب في تكوينها الجرانيت الأحمر، والكوارتز والهورنبلند، ثم دار دورة كاملة لليمين في نقطة تمكنا فيها أن نلقى فيها آخر نظرة على مئذنة مسجد ابن عباس، البيضاء البارزة. وبعد مسافة قصيرة مررنا على مصلى بسور منخفض من الحجارة على جانب الطريق، في مضيق بين عدة تلال منخفضة، شاهدت فوق واحد منها علامة طريق (تركية) قديمة.

وربما نكون في هذه النقطة قد صعدنا نحو ٢٠٠ أو ٣٠٠ قدم فوق مستوى الطائف. وكنا قد اقتربنا من وادي العصب، الذي دخلناه بعد ذلك بقليل، وذلك بعد قطع نحو اثني عشر كيلومتراً من نقطة البداية. وتابعناه صاعدين فيه في اتجاه جنوبي غربي - سائرين في بطن واد من حبيبات ناعمة من الجرانيت والرمل، عرضه نحو ثلاثين ياردة في المتوسط بين الصخر الطبيعي في السلسلة الذي يمثل ضفته اليسرى وبين سور طويل متهدم من الحجارة لحجز الماء. وتنتشر بغزارة أشجار من السلم (الأكاسيا) حسنة النمو في الوادي الذي بدأت تكثر فيه الصخور والجلاميد شيئاً فشيئاً كلما صعدنا فيه، ابتداءً من منطقة محظورة من المزارع المدرجة، بها بعض الأكواخ من الحجارة، نوعاً ما في

أسفل المجرى من النقطة التي بدأنا منها دخولنا. وهنا وهناك نحو عشرين قدماً فوق مستوى مجرى السيل، وعلى منحدر ضفته الصخرية يستطيع المرء أن يرى ما يعتقد أنه كان بقايا قديمة لقناة مغطاة متصلة لمسافة؛ ولعلها كانت درباً ممهداً مبنيّاً للخيل والبغال.

وعلى بعد نحو كيلومترين فوق مدخلنا جئنا على نهاية ينبوع صغير، جار، وإن كان بطيئاً، تابعناه حتى منبعه الضئيل نحو كيلومتر في أعلى الوادي، حيث كان الماء الجوفي قريباً من سطح الأرض. وقبل هذه النقطة بقليل كنا قد جئنا على سد صغير من الحجارة، لافت للنظر، ارتفاعه نحو ثلاثين قدماً، ومبني من حجارة من الجرانيت الأحمر غير المهذبة، يمتد لنحو ثلثي الطريق عبر الوادي الذي كان عرضه نحو خمسين متراً في هذا الموضع، بين ضفتين من الصخر شديدتي الانحدار. وأظن أنه ربما حدث اجتياح من سيل عرم لهذا السد في زمن ما من الماضي المجهول، وأن هذه القناة العالية سالفة الذكر كانت لتوصيل المياه المتقطعة في برك لري الحقول أسفل الوادي. وربما كان مناسباً أن ينوه المرء بأن في كل ريف الشفا علامات لجهد الإنسان على شكل سدود أو حقول مدرجة، والتي لاشك في أن أصلها كان من صنع أجيال في طي النسيان الآن، ولا تزال مستخدمة الآن استخداماً واسعاً لأغراضها الأصلية، وهي الري، وإن بدا لي أن انهيار هذه السدود والحيطان كان فوق الإمكانات الهندسية المحدودة للسكان المعاصرين، المكافحين المنكوبين.

ومن السد اتخذ طريقنا اتجاهاً في غرب الجنوب الغربي، صاعداً وادياً عريضاً، بطنه رملي، به غابة من شجر السلم، وأمامنا، في خط مستقيم وعلى مسافة بعيدة، السفوح المغطاة بالعرعر للجبل المسمى دكة. وبعد مسافة قصيرة

من الصعود جاء واد فرعي ليدخل في العصب، يكاد يكون من جهة الجنوب، فقام صاحب حمارنا وبثقة تامة بتوجيهنا بالصعود فيه حتى تبين لنا خطؤه عن طريق أحد الرعاة، وذلك للمرة الثانية وقبل أن نبتعد فنتوه. وكان الطريق في هذا الوادي سيقودنا فوق سلسلة جبلية إلى واد آخر يسيل إلى وادي ليّة، الذي يصب فيه وادي العصب أيضاً - في عكس اتّجاه سيرنا. وبعودتنا للوادي الرئيس تبعناه في غابة السلم الكثيفة، وبعد فترة وجدنا أنفسنا نسير بمحاذاة سور من الحجارة يفصل مجرى السيل من سفح الضفة اليسرى للوادي. وفوقنا على سفح الجبل المخضر بمختلف الأعشاب، لمحنا قطيعاً كبيراً من الأغنام البيضاء؛ وبعد ذلك بقليل أتينا على سد رائع آخر من الحجارة غير المهذبة، ارتفاعه اثنا عشر قدماً، وسماكته يمتد بعرض الوادي إلا لنحو خمس عشرة ياردة، قريباً من أسفل الضفة اليسرى، حيث كانت السيول قد اجتاحت بعضاً منه. والآن بدأنا نسير صاعدين مبتعدين تدريجيّاً عن بطن مجرى السيل، يتجه طريقنا في الجنوب الغربي صاعداً منحدر الضفة اليسرى، إلى مضيق رأيت فيه نقشين عربيين باليين على جلمودين من الهورنبلند. وكان طريقنا كحد مثلم لسكين، مكوناً من حجارة من الجرانيت الأحمر منسدلة كأنها ألواح، وذلك هو التكوين الفطري الأول لهذه الأرض من الطائف إلى السلسلة الجبلية وقممها العالية.

وظللنا نصعد تدريجيّاً حتى وصلنا الفاصل بين مسيلي مياه وادي العصب ووادي عورالة، الذي قدرته بميزان الضغط الجاف (أنيرويد) بنحو ٣٥٠ قدماً فوق نقطة دخولنا الوادي الأول، الذي كنا قد تابعناه لساعة ونصف الساعة (لعلها اثنا عشر كيلومتراً). وكان إلى أسفلنا حين بدأنا الهبوط من المضيق، واد رائع من السلم في جنب الجبل، يدخل في مجراه الجنوبي، إلى وادي ليةً،

وادي عورالة، الذي كنا قد مررنا فيه وبه قطيع كبير من الأغنام السوداء والبيضاء على رماله المظللة. وعبرنا مجرى السيل، وفي ظلمة الأصيل المتزايدة صعدنا المنحدر الغربي، من الوادي، شديد الانحدار، حتى قمته، ومنها شاهدنا، أو نصف شاهدنا -لمفاجأتنا، ومفاجأة مرشدنا أيضاً- عمت، وهي مجموعة أو مجموعتان من البيوت المبنية من الحجارة معها حصن مربع رائع المنظر في وسط عدد من الحقول المدرجة. وبصعوبة شديدة تمكنا من العثور على طريق بين شبكة الحقول المسورة بالحيطان أو التراب يقودنا إلى مجموعة صغيرة من الأكواخ، حيث كانت الحاسة الفطرية لمرشدنا قد جعلته يحس بأننا سنلقى ضيافة عظيمة الليلة. لقد بدأ كلبان أسودان شرسان ينبحان بشدة لينبها بقدومنا. ولكننا تجاوزناهما بسلام في بضع دقائق ودخلنا غرفة مضيفنا المتوقع (من الواضح أنها كانت غرفة المعيشة الرئيسة إن لم تكن الوحيدة)، وهو شخص اسمه صالح بن عمار، الابن الثاني للمالك الغائب لهذه الفدادين القليلة من وادي الأرض الجبلية. وأبقينا في الخارج لبرهة من الوقت ريثما تخرج النساء ليدخلن المطبخ. وسرعان ما استقرينا في الغرفة بكل راحة. ولم يطل الانتظار قبل مجيء العشاء الذي كان خبزاً معمولاً بالسمن مطهيّاً على النار مع عسل الجبل. ثم آوينا إلى مسجد معروش بسعف النخيل، شبه مكشوف، مرتفع بنحو بضعة أقدام فوق مستوى البناء الرئيس، صار مكان مبيتنا، بينما عادت الغرفة، التي كنا قد أخليناها، بلا شك لاستخدام العائلة لقضاء الليلة فيها.

وكنا في ذلك المكان على ارتفاع ٨٠٠ قدم فوق مستوى الطائف. ولكن درجة الحرارة كانت عالية قد بلغت سبعاً وعشرين درجة مئوية، وهي تقريباً

أعلى مما كانت عليه في الطائف في الليلة السابقة أو الليلتين السابقتين - لقد فاقت ليلتنا الأولى غيرها بدرجة حرارة منخفضة، كانت نحو ٥، ٨ درجة مئوية. لقد كان بيت أحمد بن عمار، والد صالح، في أصغر الحيين في المستوطنة - يتكون أكبرهما من نحو عشرة أكواخ مع الحصن السابق ذكره في أسفل تل هرمي اسمه تفترس. ويجري وادي عمت إلى الشمال قليلاً من الغرب - وإلى الوهيط في نهاية الأمر - ويلتقي به ما بين الحيين وادٍ سحيق أضيق منه، اسمه شعب صبرة القادم من جهة الجنوب الشرقي. به حقول مدرجة أيضاً، وهنا وجدنا شواهد على صناعة الشمال، وهي صناعة راسخة في جبال الحجاز، أعطي بعض منها لعبد اللطيف ومحيسن صاحب الحمار. والأخير قرشي من مكان قريب من الهدا، يلبس الثياب الحمراء كالتي يرتديها مضيفنا، مكونة من قميص وإزار يصل إلى الركبة، مصبوغة بصبغة من قشرة عرق شجرة السدر بعد غليه أو تركه في الماء.

والرجال في هذه المنطقة نحيلون بصفة عامة، بسيقان رفيعة، جميلون في معظم الأحوال، يسيرون بخطوة حية مرحة. إن صالحاً والسكان الآخرين في عمت ينتمون إلى بني سفيان (فرع الحجة). وكان من الواضح أنه قد نشأ في مدرسة الحياة الشاقة التي كانت تظهر في طبع حاد وسريع وانفعالي أحياناً ومسيطر أحياناً أخرى. لقد قبل بأن يرافقنا فيما تبقى من رحلتنا مقابل ريالين في اليوم. وكان مصدر ضيق لنا أحياناً حين كان يحاول توجيه تحركاتنا بما يوافق ذوقه أو راحته، لا بما يوافقنا نحن. ما عدا أمراً واحداً، فإنني كنت أسوده في كل الأحوال، وإن كان يثأر كل ليلة حين يشير إلى مضيفينا بأنهم إذا ذبحوا ذبيحة فإن ذلك لن يكون على حسابهم. وفي وجبة العشاء كان ذا كفاءة عالية

ومهارة وحركة، يقطع بضربات سريعة حادة بسكينه بيد، ويودع في فمه بيده الأخرى مقدار ما يوزعه على بقيتنا. لقد كان شخصاً مثيراً، وإن لم يكن ممن يعجب الإنسان تماماً. فمن الواضح أنه كان قد لقي قدراً مناسباً من النجاح في الكفاح من أجل العيش في هذه المنطقة الفقيرة. ومن الواجب أن أقول شيئاً إنصافاً له. فهو، وإن كان قد عقد صفقة رابحة لخدماته كمرشد - لقد كان ريال واحد فقط كافياً جداً في الظروف الحالية - لم يرض أن يتقاضى أي شيء مقابل ضيافته لنا بالخبز والعسل. وهو مثله مثل كثيرين من جنسه، كان قليل الكلام، يستخدم الإشارة والطنطنة للتعبير عن كلامه. وإذا ما سأله أحد عما قاله لآخر فإنه كثيراً ما يجيب بشيء من جلافة واضحة، وإن كانت غير مقصودة، قائلاً: "ماش"، أي لاشيء. ولكن كانت هناك لحظات استمتعت فيها بصحبته جداً في الحدود الضيقة لمنطقته القبلية، التي لم يكن يعرف شيئاً تقريباً خارجها من حيث الجغرافية المحلية أو أسماء الأشياء، وإن كان لايعترف بذلك، وقانعاً باستخدام أسماء للأماكن التي لها دلالات معينة أكثر من "فرع" و "حرجل"، مثلاً.

وفي صباح اليوم التالي نهضت مبكراً لأتفحص المنطقة حولنا قبل إفطار الخبز والعسل أو السمن، حسب الطلب، ليحثنا في طريقنا. وكان الوادي في دائرة المنطقة السكنية قد سدته سدود من الحجارة، أو التراب، أو الاثنين معاً، مليئاً بالحقول المدرجة التي كانت تبدو جرداء تماماً، ذلك لأن القمح كان قد حصد قبل مدة طويلة، ولن يحين موعد البذر الجديد حتى نوفمبر. وكان التين الشوكي متوافراً - والشفا مشهورة بهذا النوع من الإنتاج الرائع من الفاكهة، وإن كانت رخيصة جداً، حمل جمل بما يساوي شلنين أو ثلاثة - ولكن الموسم قد انتهى، وليس في المكان سوى شجرات متفرقة من التين، والرمان،

وغيرهما. لقد كانت الأكواخ والبيوت الصغيرة في الحي من الحجارة، ليس فيها ظواهر تلفت النظر. ولكن الحصن، أو برج الدفاع، الذي يعد مثالاً لما في أرض الشفا، يستحق وصفاً مفصلاً ليغني عن كل العينات الأخرى التي على شاكلتها، التي يراها المرء هنا وهناك. فهذه الأبراج ذات قاعدة مساحتها عشرون أو خمسة وعشرون قدماً مربعاً، تضيق في أعلاها لتكون أقل من ذلك في الإطار، ذات أساس قوي في الصخر الجرانيتي، ومبنية بناءً جيداً من حجارة الجرانيت، بلا ملاط ليمسك بعضها بعضاً، فيما رأيت. وجانبا الباب مبنيان من حجارة أكبر، ارتفاعهما أربعة أو خمسة أقدام، تعلوهما عتبة منخفضة. والباب من خشب سميك غير ناعم القطع. ونحو ثلاثة أقدام من السطح إطار من الحجارة السوداء (من الهورنبلند) بارزة لنحو قدم أو ثماني عشرة بوصة، تحمل متراساً (بارابيت) من الحجارة (الكوارتز) السوداء والبيضاء منحوتة في شكل ذروة متدرجة. وفي الإطار، فوق الباب مباشرة، ثقب يستخدمه المدافعون ضد أي هجوم من المدخل الوحيد الممكن. والواضح أن هذه الحصون كانت للدفاع ضد غارات الأعداء، وفي أيام السلم، كهذه الأيام، تظل مغلقة ومهملة، بينما يفضل صاحبها وعائلته ومجموعة حيواناتهم وطيورهم، من الإبل، والغنم، والدجاج، والكلاب، والقطط وغيرها، السقائف ذوات الدور الواحد، والأفنية المكشوفة، المتجمعة حول هذه الحصون. لقد بدا لي غريباً، بعد ما رأيت نحو عشرة من هذه الحصون، أن ينشأ هذا النوع المتميز من العمارة في منطقة محدودة كهذه المنطقة، بينما لم تؤد ظروف الفوضى وانعدام الأمن نفسها إلى هذه الظاهرة نفسها، في أي مكان آخر، خارج أرض بني سفيان، حسب علمي. إنها جذابة فعلاً. وكانت تنتابني نشوة الفرح كلما لمحت عيناي مثل هذا البرج في الأودية المتوحشة من

هذه المرتفعات.

في الساعة السابعة صباحاً بدأنا رحلتنا صاعدين في وادي عمت. وكنت أنا وصالح قد سبقنا الآخرين بالسير، بينما كانت الحمير تجهز للحاق بنا. وأثناء صعودنا طريقاً جبليّاً غير معبد من رأس الوادي، بدأنا نلقي لمحات أوسع في الأراضي المحيطة بنا (بما فيها الحبلة وغمير)، من مضايق متتالية من الجبال. ومن أعلاها (نحو ٣٥٠ قدماً فوق مستوى عمت) نظرنا أسفلنا نحو الحقول المسماة سد. وهي حي صغير من أكواخ مبعثرة من الحجارة وسط أرض زراعية واسعة جداً تسقى من آبار. لقد كانت القطع باهتة الخضرة (الفصفصة والطماطم) رائعة المنظر مقارنة باللون الكالح الأحمر لسفوح التلال الجرانيتية، وباللون الأخضر الغامق لغابات العرعر التي أصبحت أشد كثافة الآن؛ وأمامنا شمخت عمالقة الحجاز بكل عظمتها - قرنيت، ودكه، وبرد، والحبلة - فهي ليست سلسلة جبال وإنما قمم منفردة، ترتفع عارية في مسافات متباعدة من الهضبة الجبلية.

ولما بلغنا أسفل الوادي، ملنا إلى مكان لنمضي بعض الوقت مع رجل يروي زرعه ويحث بقرتيه لسرعة إخراج الماء من بئر عمقها نحو عشرين قدماً، محفورة في الصخر الجرانيتي. قال: إنها لعيشة صعبة هذه الأيام، أو بكلمات بهذا المعنى، لأن هاتين البقرتين، بعد ساعة أو ساعتين من العمل المضني، تجففان البئر. والناس هناك، في أعلى الوادي، بآبارهم الأشد عمقاً، يحصلون على ماء أوفر. قال مضيفنا، ناظراً إليّ باهتمام غريب: آه! ليت لي مالاً فأحفر بئري لقامة أخرى أو قامتين أعمق من ذلك لأضاعف حصتي - انظر إلى الحقول التي قدرت على زراعتها، وتعتمد الآن على السيول الموسمية،

والتي أصبحت قليلة مؤخراً. لعلك تستطيع مساعدتنا، وما كان بوسعي تعزيته بشيء سوى القول إن دراستي (أو دراسة آخرين) لحاجته قد تؤدي يوماً ما إلى الاستجابة المنشودة من الحكومة في ظروفها الصعبة هذه[١].

وفي وسط مستوطنة السد (التي تملكها جماعة الحجة) تل من الجرانيت تعلوه صخرة منفصلة، تقف وقفة خطرة على قمته الرفيعة. ويسمونها صبا، كما قال لي صالح رداً على استفساري عن تاريخها. لقد وضعها الله هناك. ووراءه، في رأس الحوض، بركة سطحية من الماء، تنز من رمال في منخفض، وسط غابة حقيقية من العرعر وجلاميد من الصخر، رأيت على سطحها، هنا وهناك، خربشات من النصوص الدينية بخط عربي حديث. وكانت هناك راعية ترعى قطيعاً لها من الأغنام لدى الماء، قد جلست على صخرة تنظر إلينا ونحن نشرب. وحين مررت بها لمحت أنها ذات عينين لماعتين وبشرة صافية. ولكن في هذه البلاد لا تحية بين الرجال والنساء - فواصلنا سيرنا في عرعر الوادي. ومرت بنا قافلة صغيرة، محملة بسيقان عرعر للتسقيف، في طريقها، وكما قالوا، من قرنيت، المركز المعروف لزراعة العرعر للتجارة، إلى الطائف. والعرعر لايحتاج إلا لقليل من القص والتهذيب، وبانتظام، لينمو مستقيماً. وعلى أي حال، فهنا صناعة محلية يمكن تطويرها لتنافس منافسة ناجحة و "جندل"، التسقيف الذي يستورد كل عام من زنجبار.

أدى بنا الهبوط من المضيق التالي إلى سد مبني بناء جيداً من الحجارة، ارتفاعه نحو خمسة عشر قدماً، يعترض وادياً ضيقاً يجري في وادي منتلة، وفي بطنه حقول مدرجة، مع أكواخ معلقة على منحدرات الوادي هنا وهناك.

---

(١) عني الملك عبدالعزيز بتطوير مصادر الشرب، وشق الطرق في الأماكن الجبلية، واليوم أصبحت منطقة الشفا بالطائف التي قصدها المؤلف من الأماكن السياحية بالمنطقة التي يصل إليها الناس بسهولة عبر الطرق الحديثة، وأصبحت تتمتع بكافة الخدمات. (المراجعون).

وبالإضافة إلى حس صالح الجغرافي، فإن العادة المحلية بإعطاء كل قسم من الوادي المتعرج اسماً مختلفاً قد جعلت من الصعوبة عليّ بمكان تكوين فكرة واضحة عن أنظمة الوادي في هذه الأنحاء. ولقد قيل لي إن وادي منتلة (أو المناتل كما يسمى بصيغة الجمع أحايين كثيرة ليشمل عدداً من الأودية العميقة الجانبية التي تكون هذه المجموعة الزراعية) يصب في وادي ليّة آخر الأمر، وأن أجزاءه العليا ليست سوى وادي حرجل، الذي سنأتي إليه بعد قليل، والذي يبدأ مجراه في مكان عالٍ في طرف سلسلة الحجاز. وكان هناك حصن، تركي المظهر، يعلو لساناً من سلسلة تطل على المنظر. ومسافة ما في اتجاه مجرى الماء مرج من الزعتر البري يوحي بوجود مياه سطحية. إن أودية المناتل لفرع من بني سفيان، تمتد من سفوح قرنيت شمالاً إلى الفرع، بما فيها المكانان أيضاً. وفرع الحجة يقع إلى الشمال والشرق من هذه السلسلة، مع هذيل وقريش إلى الشمال منهما أيضاً، الأوائل منهما إلى جهة الغرب والأواخر إلى جهة الشرق.

لقد كانت تفصلنا سلسلة واحدة عن وادي حرجل (ينطق حريل)، الذي دخلناه عند الحقول المدرجة لصربة، وهي قرية صغيرة من أكواخ من الحجر. وأسفل الحقول كان المنظر جميلاً، بوفرة مدارية نوعاً ما، مركزه بقعة من المياه السطحية تكاد تكون راكدة تماماً، تغطي معظمها مادة خضراء لزجة، وإن كان بها وشل من الماء الجاري أو الزاحف. وحول هذا الماء نمت كتل من الزعتر وقرة العين، وغيرهما من النباتات، كما ضج المكان بأزيز الحشرات. وبالفطرة توقف الحماران في ظل بعض السلمات، وقد أحسا بأن الموعد موعد غفوة، وفعل عبد اللطيف ومحيسن مثلهما، بينما كنت أبحث عن الفراشات، وكان صالح يبحث عن الطعام في اتجاه القرية، نحو ٢٠٠ متر نحو الجهة العليا من

النهير. وكنت قد صادفت قدراً كبيراً من النجاح في بحثي، عندما عاد ليخبرني بأنه خالي الوفاض. لذا، وبناءً على ذلك، قررنا أن نصعد إلى قرية حرجل، نحو منبع النهير، حين خرجت لنا، ومن حيث لاندري، مجموعة من النساء والأطفال كانت تتابع حركات شبكتي لصيد الفراشات من وراء صخرة، ومن مسافة بعيدة. ثم برز رجل قرر أن يغامر ويعرض علينا ضيافته المتواضعة، بعد بعض التشاور الهامس مع صالح. ومهما كان فقر هؤلاء الناس، ومعاناتهم الشديدة من جفاف تلك السنة، فإن أهل الجبال يعدونها خسة أن يبيع المرء الطعام، وعادة ما يخرجون من مأزق الضيف المفاجئ باعتذارهم بخلو حافظة الطعام. ولكن لهم عيناً (ولا يتورعون من اتخاذ الخطوات الضرورية لتصديق ظنونهم) ترقب الفرصة الأساسية. ففي حالتنا فلا بد أن يكون صالح قد طمأن مضيفنا بأننا لسنا معدمين ولا بخلاء. لذا؛ فإننا بعد حين وجدنا ظلاً ظليلاً تحت سور من أشجار التين قريباً من القرية، بينما كانت الأسرة الفاضلة لمضيفنا تعد الطعام، وأعد عبد اللطيف الشاي الذي كان هو النوع الوحيد من الطعام الذي أحمله معي أبداً في مثل هذه المناسبات. ولا نظير للشاي للجوال المنهك، وإن ندر تجول المرء بعيداً في الأماكن المأهولة من الجزيرة العربية دون أن يلقى وسائل الراحة الأصلب منه - وهي كثيرة بصورة مذهلة أحياناً - التي قد يحتاج إليها المرء من وقت لآخر.

وبينما كان الطباخون مشغولين، كنت أصطاد. وبالرغم من صيحات الشفقة لي لأدخل من الشمس، فإني ظللت في بحثي عن الحشرات بتوفيق كبير، حتى جاءوا بقدح كبير به عصيدة من القمح، لا تبتعد كثيراً عن "البورج"، في وسطها حفرة بها السمن. لقد كانت شيئاً جيداً، وإن كنت

شخصيّاً لا آكل السمن صافياً كالعرب، الذين يفضلونه على العسل ! وقبل الأكل بقليل صادف أن مر بنا شخص ضخم في ثياب بيض، في طريقه إلى حرجل، فمال نحونا ليشاركنا في الأكل. وكنت قد ظننت من لبسه أنه من سكان المدينة مثلنا يتنزه، ولكني كنت مخطئاً، إذ لم يكن أحداً غير أمير حرجل، واسمه سالم، كان قد ذهب إلى ليّة ليجمع ديوناً له فات أوان سدادها. وبعد الأكل أخرجوا غلايينهم اليمنية الطويلة والتمباك (لعله من حضرموت)، وبعد ذلك وجدتها في كل مكان في هذه الأرجاء.

وعندما قاربت الساعة الثالثة بعد الظهر استأنفنا سيرنا صاعدين في وادي حرجل. ولبعض من الوقت كنت أمضي لصيد بعض الفراشات هنا وهناك من الزعتر البري، الذي كان ينمو بغزارة بمحاذاة ضفتي المجرى، الذي كان الماء بادياً على سطحه في مسافات متباعدة. لقد كان وادياً بديعاً، يجري بين منحدرات مغطاة بالعرعر. وكنا قد سرنا لنحو نصف ساعة (قل ثلاثة كيلومترات، إذ إني كنت راقبت خطوات الحمارين فيما بعد بين الوهيط والطائف - وكنت قد قمت بالرحلة بسيارة - فوجدت أنها ما بين ستة كيلومترات أو ستة كيلومترات ونصف في الساعة، في خطوة ثابتة) حين جئنا إلى أسفل حقول حرجل، ومفترق الطرق. وتوسل إلي سالم لأقضي الليلة معه، وكنت سأستجيب لذلك سعيداً، ولكن ذلك كان سيعني التضحية بصعود قرنيت، الشيء الذي كنت قد عقدت عليه العزم (والفضل لاقتراح عفوي من صالح)، والذي بدأ يشمخ أمامنا بكل عظمته. لذلك فإننا انحرفنا عن الوادي صاعدين المنحدر، الذي حاذينا خطوط ارتفاعه في صعود مستمر بمحاذاة حافة وادٍ عميق، اسمه سنَّه. وإلى اليمين خلفنا، كان حصنا قرية

صالح، وأمامنا وعلى مسافة قريبة كانت حقول سُنَّه المدرجة، على ارتفاع يزيد على ألف قدم فوق مستوى الطائف حوالي ٥٥٠٠ قدم فوق مستوى البحر. وقام صالح بمحاولات يائسة ليغريني بالتوقف للمبيت، ولكني كنت أرى أكواخاً أمامنا حتى أسفل جبل قرنيت، وأصريت على عدم ترك أي شيء للغد سوى الصعود.

لقد تكللت وقفة قصيرة للتفاوض مع من قد يكون مرشداً إلى القمة بالنجاح التام، وفي ربع ساعة كنا قد خيمنا حول كوخ خال في قرية الغريف الصغيرة، الواقعة على السفح السحيق للجبل - تركت داخل الكوخ لرفيقّي، بينما أمرت أن يفرش فراشي فوق جلمود من الجرانيت الأحمر. وكنا الآن نحو ١٥٠٠ قدم فوق مستوى الطائف، وكما حسبته، ربما نحو ١٠٠٠ قدم تحت القمة، التي كنا نؤمل بأن نقف فوقها في اليوم التالي. وفوقنا كانت غابة العرعر منتشرة فوق سفح الجبل حتى تكاد تبلغ القمة. وكانت راعية قد ساقت قطيعها الصغير من الأغنام في الوادي الواقع أسفل من موقعنا إلى حظيرتها المبنية من الحجارة والأغصان المقطوعة، غير بعيد من كوخنا، حفظاً لها من الذئاب؛ وقبل أن أتبين ما كان يدور، إذ بواحد من القطيع يقاوم وهو بين أيدي الرجال الذين قدموه إلي ليكون طعامنا. وكانت الساعة متأخرة من الليل، فتشفعت بلا فائدة عن تلك الروح المسكينة التي كان إزهاقها يعني دولارات لأصحابها في الصباح، كما يعني لحماً لنا كلنا تلك الليلة. ولقد بذلت جهداً للحيلولة دون ذبحها فوق فراشي، بعد ذلك شاعت الفرحة في المخيم حين تجمع الكل ليعين كل واحد منهم الآخر على جثتها. وحين يكون العربي جائعاً فإن الأكل يصبح أهم شيء. والطعام، للأعرابي الجائع، أهم الأشياء كلها، ويصبح طبخه هماً عاماً، ولا يتحسر المرء على الساعات الطويلة التي تصرف في التحميص المتأني

والدقيق للبن وطحنه وعمل القهوة. وظهر لنا رجل مسن من الأكواخ التي كانت أسفلنا، يسأل عن شيء ما يخفف آلام الصدر. وكان يتكلم بثرثرة الشيخوخة التي لم تحفظ شيئاً من ذكريات الشباب وأيامه. وقد عمي في السنوات الخمس الأخيرة، ولكن الطائف ومكة كانتا حدود رؤياه للعالم - إذ لم يكن قد زار جدة قط - .

وبعد الانتهاء من العشاء - وكان وجبة دون المستوى من لحم غنم وأرز لم يحسن طبخه - هيأنا أنفسنا للنوم، لقد نام رفاقي مجتمعين في جو غير مناسب في داخل الكوخ بينما نمت أنا تحت ظلة السماء الزرقاء المسودة المرصعة بالنجوم. وبعد الفجر بقليل صحوت لأجد أن أدنى درجات الحرارة كانت ٣٥،٥ درجة فهرنهايت. وجيء بإفطار من الشاي والخبز الجاف، حاراً من الفرن، وفي السادسة والنصف صباحاً بدأنا صعودنا؛ برفقة صالح وثلاثة من أهل القرية. ولم تكن هناك أية صعوبة في الصعود، إلا أن رفاقي، لابسي الإزار المخطط والحفاة، كانوا في وضع أفضل مني في لباسي العربي العادي، من غير عباءة، وبنعلي الذي كان علي خلعه بعد كل مسافة وأخرى للتعامل مع الرقع الواسعة من الجرانيت الأحمر العاري، المعترضة طريقنا في زاوية من خمس وأربعين درجة. ولم يرق لقدمي السطح الحاد للصخور الخشنة، التي تجاوزناها لندخل في أخدود كثيف من العرعر والخزامى البري، اللذين يصدران إلى مكة حملاً على الجمال - بشلنين أو ثلاثة لحمل الجمل الواحد في السوق - ليصبحا عطوراً غالية الثمن. وتسمى "لرم" ولعلها تعني "ضرم" لأن قلب الضاد لاماً سمة للهجة بني سفيان، وربما للآخرين من هذه القبائل الجبلية، الذين يقولون "لهر" و "ليف" ويعنون "ضهر" و "ضيف"، ويسمون أحد هذه الأودية "الليّق" أو "الضيّق"، وقدموا لي ماءً قائلين

" أنت لامي ؟ " (ظامي أو ظميان كما يقولون في نجد) .

وفي الأخدود لبست نعلي مرة أخرى تلافياً للشوك وغير ذلك من الحوادث. وكان علينا شق طريقنا، أو نلتقط ما عليه، خلال الأعشاب والعرعر التي ندر أن مستها يد إنسان حتى وصلنا الأرضية الجبلية التي تقف عليها القمم الأربع التي أعطت قرنيت شكله الفريد الذي يراه المرء من بعد، وربما اسمه أيضاً - إن قبل المرء الرأي الذي كان قد أبداه لي وبكل جدية واضحة، وإن كنت لا أعرف له سبباً، وكيل الوزارة للشؤون الخارجية إليوس غالوس في حملته سنة ٢٤ قبل الميلاد، حين شبه القمة بإكليل، فسماها "كوروناتا" . فالشبه لافت للنظر، وإن كان أقرب في شكله إلى غطاء رأس الهوصار، حيث تمثل قمتاه العاليتان الشرقيتان الريشتين الواقفتين .

وأحسست ونحن نقترب من تلك النقطة جدالاً بين رفاقي حول أي القمم سنصعدها. وبطبيعة الحال، كنت قد حسبت أننا سنتجه إلى أعلاهن، ولكنهم فيما بينهم كانوا قد قرروا التوجه إلى القمة الغربية، الأيسر منهن، ذات الذروة المسطحة ؛ ولم أستبعد وجود عقبة وهمية في الاتجاه الآخر، ربما كانت شيئاً تبقى من رمز وثني. وبدا لي بطلان حجتهم بأن قمة الريشة لا يمكن صعودها بلا حبال، لما بدا لي من وجود صدع في الجبل يعلوه العرعر يؤدي إلى القمة . فجادلت، ولكنهم تمسكوا برأيهم، فأدركت أن الأمر لايستحق كل ذلك الجدال لأن الفرق بين القمم المختلفة لايتجاوز المئة قدم. وبعد إطلاق ما بدا لي أنه تنهيدة ارتياح، اتجهوا جهة اليمين لصعود القمة الغربية، الأسهل نسبيّاً . ثم نظر أحدهم خلفه ليقول لصاحبه : إنه هناك، مكان التضحية! ولكنهما

لم يفصحا بالقدر الكافي لي عن تساؤلي، واكتفيا بإخباري، وبقدر ما قدرت عليه من محاولتي جعلهما يفصحان لي، بأنه كل عام، في شهر رمضان (العمرة)، يأتي أهل المنطقة ببقرة أو ثور لهذا المكان ليضحوا به[1]. وكان الواجب علي أن أكون أشد إلحاحاً، ولكن اللحظة مرت، وفاتت علي زيارة ما يعتقد أنه كان "مكاناً عالياً" للوثنيين القدامى، تاركاً بذلك سراً لمناسبة أخرى. وفي مثل هذه الأشياء، ومع كل عقلانية الإسلام، فإن هؤلاء الناس لهم نقاط ضعفهم. وما عدا أحدهم فقط، فإن الآخرَيْن ابتعدا عنا في فزع حين بدأت أصور القمة الأعلى من فوق القمة الأدنى منها، وحين دعوتهم ليصَوَّروا في الصورة.

إن القمة من حجارة صلبة عارية من الجرانيت الأحمر، وجلاميد ضخمة كتلك الساقطة حولها. وكانت هنالك بركة من ماء المطر الآسن في حفرة من الصخر، كما كان هناك كهف مكون من صخرة علت شرخاً في الجبل، وصفه لي أحدهم بأنه كهف ذئب. وفي صعودنا شاهدنا جحور أرانب (وبر)، مع آثار بعر وبول في مداخلها. وبعد مسافة بلغنا ذروة القمة الغربية، وكان رائعاً ذلك المنظر الذي وقعت عليه أعيننا. وبدا لي من قراءة جهاز الضغط غير المائي (الأنيرويد) أننا كنا على ارتفاع نحو ٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر. وظننت أن نحو ١٠٠ قدم أخرى قد تكون هي الفرق في الارتفاع بيننا وبين أعلى ذروة للجبل، التي تبعد عنا بنحو ٣٠٠ متر. أما أختها، القمة الأخرى، فإنها أقل

---

(١) لعل الهدف هو الاحتفال بقدوم شهر رمضان المبارك، لكن العمرة ليست وصفاً أو وقفاً على شهر رمضان، إذ تجوز العمرة في أي وقت من شهور السنة، لكن العمرة في شهر رمضان لها مزيد فضل. (المراجعون).

منها ارتفاعاً بنحو خمسين قدماً، بينما كانت الرابعة، الواقعة قليلاً إلى الجنوب، في مستوانا تقريباً. وكان قد بدا لي أن قرنيت أكثر ارتفاعاً من كل القمم الأخرى في مرأى العين. ولكني كنت مخطئاً في ذلك، كما تبين لي في اليوم التالي حين كنت فوق قمة دكة إلى الشمال الغربي منها.

جلسنا فوق الذروة المسطحة الواسعة للقمة الغربية للاستمتاع بالمنظر حولنا، وقد اقتسمنا فيما بيننا نصف رغيف دائري من القمح كنت قد وضعته في جيبي عند الإفطار وغليوناً يمانيّاً لأحد رفاقي. لقد كان الهواء منعشاً، ودرجة الحرارة في الشمس نحو خمس وسبعين درجة فهرنهايت، بينما امتد بصرنا لنحو مئة ميل فوق الغيمة المغطية للأراضي المنخفضة من تهامة، بجوار البحر، الذي لا يرى، إلى الأرض المسطحة الواسعة من سهل ركبة بروابيه المتفرقة. وإلى الجنوب، نحو ثلاثين ميلاً أو أكثر، سلسلة طويلة منخفضة تمثل الأفق، ينتهي طرفها الغربي فجأة في مجموعة من التلال المنخفضة أسفل منا - مع بعض الزوائد الجبلية من حين لآخر، مثل لملم والوقر وشفا هذيل[١] وإلى الشمال منا، نحو ثلاثين ميلاً أيضاً، انتهى طرفنا في سرج الحبلة[٢] في الطرف تماماً من السلسلة، والجبال مثل جبل الهندي[٣] وجبل دليم[٤] في منطقة الهدا. لقد كان اللون الغالب هو البني المائل للحمرة من الجرانيت، كالذي كنا نجلس عليه مع

(١) شفا هذيل: يطلق على جزء من سراة الحجاز، يدفع سيله في وادي وَجّ شرقاً وبعض روافد وادي لية، وهي سراة ذات شعاب عديدة وجبال كثيرة. معجم معالم الحجاز ج٥، ص٧٩. (المراجعون).

(٢) الحبلة: جبل أحمر ضخم ممتد من الشمال من هدأة الطائف إلى الجنوب قرب شفا هذيل. يبعد عن الطائف ١٩ كيلاً غرباً. معجم معالم الحجاز، ج٢، ص٢١٣. (المراجعون).

(٣) الهندي: أحد جبال هدأة الطائف يقع في طرفها الجنوبي الشرقي يشرف على وادي المحرم من الغرب. معجم معالم الحجاز، ج٩، ص١٨٣. (المراجعون).

(٤) دليم: جبل أحمر بارز منعزل عما حوله، وهو أحد الجبال الخمسة التي تعد جبال هدأة الطائف وهي: دليم، وشعار، ومكرس، والهندي، والحَبَلة. معجم معالم الحجاز، ج٣، ص٢٣١. (المراجعون).

قطع من السواد، حيث ظهرت فيه الهورنبلند والغابرو على نحو ما كان في جبال دكة والتلال مثل فروة، وفي السلاسل الجنوبية والغربية. وكان كل ما حولنا كأنه غلالة من خضرة متنوعة من العرعر والخزامى والنباتات تغطي السفوح والوديان، بينما احتضنت كل ثنية من الهضبة الصخرية تحت أقدامنا أكواخاً متناثرة لقرية صغيرة، وحقولاً مدرجة، تمثل زراعتها الموسمية الشغل الشاغل لقاطنيها. لقد كان مثيراً فعلاً كيف تبدو المنطقة كثيفة السكان حين يراها المرء من الأعلى.

وعلى بعد ميل باتجاه الشرق تظهر الطائف ومئذنة مسجد ابن عباس، وقصر شبرا الرخامي في رقعة من الأرض الخضراء. وشمخ غمير بين السلاسل المحيطة به وتل القيم، الذي إن نظر إليه المرء من قرب أو بعد، بدا، وبصورة تلفت النظر، كأنه قبة كولونيا. وفي الوادي، وراء السلسلة الأولى إلى شمالنا الغربي، تقع قرى الفرع المتناثرة، أهم قرى الشفا، بينما وراءها، في الاتجاه نفسه، وخلف سلسلة أخرى برزت قمة دكة، سوداء ببريق من الخضرة على صفحتيها، وسلسلة برد الساحقة إلى اليمين، وأبعد منها. وإلى الجنوب، بيننا وبين آخر سلسلة ذكرناها، التي يسمون سكانها بني يوس ولا يعرفون اسمها لأنها تقع على مد البصر في أرض تهامة، تقع مجموعة من ست أو سبع سلاسل معترضة، أقل ارتفاعاً ولكنها مماثلة، تبدأ كل واحدة منها من ارتفاع غير عالٍ من مستوى الهضبة وترتفع إلى قمة نحو الغرب قبل أن تختفي في أعماق تهامة، الاسم الذي يطلقه سكان الجبال على التلال التي تحيط بسلسلة الشفا شديدة الانحدار لا على السهل الساحلي نفسه. وهي أيضاً فوق علمهم. وأسفلنا، نحو الشمال، يلتقي الواديان الضيقان، سنة وغريف، لينحدرا نحو

وادي حرجل[1]، ثم إلى وادي ليّة. وإلى الجنوب والغرب يلتف منخفض إتربا حول أسفل قرنيت ليختفي فوق طرف السلسلة ثم في وادي نياط المتعرج، الذي أمكننا متابعة مجراه إلى مسافة بعيدة، حيث يلتحم بالخط الرملي العريض من وادي لملم، الذي يسير عليه طريق الحج الساحلي الرئيس القادم من الجنوب والمتجه إلى مكة.

لقد كان الهبوط سهلاً، وإن كان في عجلة. وكان معظم رفاقي وبلا مبالاة قد حملوا كميات كبيرة من الأعواد اليابسة لنيران أمسياتهم، ومضوا في نشوة بالرغم من ذلك لما حملوه. ولكنهم عدوا قرنيت مرتقى في غاية الصعوبة ووعدوني بشيء أيسر في دكة صباح الغد. لقد استغرق منا ساعة -هو الوقت نفسه للصعود- للوصول لنقطة بدايتنا، حيث ارتحنا لما يكفي لتناول شاي حبيب إلى النفس، وخبز. وبعد أن استأذنا من مضيفينا الكرام بالرمز المادي لصداقتنا المتبادلة، انطلقنا على أقدامنا نحو أقرب محطة في برنامجنا ذلك لأن الجزء الأول من الرحلة كان صعباً على الحمير. فصعدنا وادي الغريف أولاً، وفيه أشجار التين وعنبة التفت حول شجرة سدر ذات ارتفاع غير عادي. وأوصلتنا ربع ساعة إلى رأس الوادي ومضيق جبلي منخفض، هبطنا منه بانحدار شديد بطريق صخري إلى حقول الفرع، في حوض تطل عليه، وتسوره، حواف أرض مرتفعة من الجرانيت اسمها منتهرة. فركبنا في أسفل الحوض ثم كان علينا إراحة حميرنا من ثقلنا مرة ثانية في أعلى الأرض المرتفعة التالية، التي كانت جزءاً كبيراً من مسرح واسع مكشوف من المنحدرات المكسوة

---

(١) حرجل: واد لبني عُمَر من ثقيف يسيل من جبل قرنيت، فيدفع إلى لية جنوب الطائف، معجم معالم الحجاز، ج٢، ص٢٥٧. (المراجعون).

بالعرعر حول المدرجات الزراعية في رأس وادي حرجل. وكان جيش من الغربان، يدور في الوادي بحثاً عن إفطارها من ثمار العرعر، ويبدو منهم أنهم كانوا مستائين من تدخلنا العابر.

وكانت هناك قرية صغيرة هادئة عبر الطريق حين عبرنا الأرض المزروعة، التي تؤدي إلى واد عميق كثيف الأشجار. وعلى بعد مسافة من الطريق الصاعد وجدنا بركة ظليلةً من الماء، تحدث صوتاً كان قصير الأجل. فقد كانت هناك امرأة مع قطيعها من الأغنام والماعز تقيم في المكان، ولكنها سرعان ما تقهقرت إلى مسافة مناسبة، بينما أنعشنا أنفسنا في الينبوع. وبدا أن لها لهجة غنية مفردة المقاطع من أصوات تخاطب بها الحيوانات تحت رعايتها.

وقريباً من أعلى الوادي دخلنا في أول المزارع المدرجة من منطقة الفرع، مع قرية صغيرة معلقة في قمة الربوة نحو مئة قدم فوقنا. وسرعان ما وصلنا سطح الهضبة، ومشينا مع الوادي ذي المدرجات الزراعية التي زرعت بقمح يبدو أنه محصول هزيل ربما أنه قد حصد في يونيو أو يوليو. وكان العرعر لايزال يلازمنا. وقبل وصولنا القرية الرئيسة بالمنطقة، واسمها النقع، مررنا بمقبرة واسعة القبور، يحيط بكل واحد منها سور منخفض من حجارة الجرانيت والكوارتز، ويقف فوقه شاهد قبر عال. ولاحظت أن صالحاً، كلما مررنا بقبور الموتى، كان يتمتم بدعاء أو تحية وهو ماش. وفي النقع سعينا لنستفسر عن أي مكان مناسب لإقامتنا فيه، ولكن السكان آنذاك كانوا في المسجد لصلاة الجمعة، فمضينا في طريقنا لأني استحسنت أن يكون مقرنا في أقرب مكان من وسط مجموعة القرى المبعثرة في أنحاء الوادي. وبعد عشر دقائق جذبنا ألجمة حميرنا في قرية حلبة، وجاء من سيكون مضيفنا تلك الليلة يعدو في الفضاء

الفاصل بيننا ليرحب بنا - وبعد استفسارات مهمة خرج منها بأننا زوار محترمون (وغير مفلسين) من الجوف، كما يسمون وادي الطائف المنخفض عنهم بالمقارنة. لابد وأن كنا أزيد قليلاً على ٧٠٠٠ قدم فوق سطح البحر.

انتظرنا قليلاً خارج الباب ريثما نظفت غرفة الضيوف، ونشرت عليها الشملات، المصنوعة محليّاً، لاستقبالنا. لقد اتضح أنها كانت شيئاً من عريشة، مسقفة بالخشب والسعف، في وسطها موقد نار القهوة، وموقد آخر قرب الباب. فاخترت لنفسي موقعاً قريباً من الباب للهواء والنقاء بينما اختار رفاقي التجمع حول الموقد في الكآبة الداخلية بالعريشة. وانشغل مضيفنا، حمود بأمر ضيافتنا، كما جاء أبوه حميّد ليرحب بنا، يغمز لي بعينه متعمداً وواضعاً يده على صدره صامتاً، كأنما يريد أن يقول إن به كنزاً من حسن النية والقدرة على تحويله لمنفعة المستحق.

لقد كانت عريشتنا واحدة من عدة أبنية من الدور الواحد، مجتمعة حول ما يمكن أن يسمى فناء مزرعة. أما حميرنا فإنها أدخلت في حظيرة مكشوفة مجاورة لنا، وعلفت قصب الذرة، بينما تركت الأغنام والطيور حرة طليقة في المكان، الذي خصص منه كوخ للنساء، كما أن بناءً آخر - بيت حسن البناء من الحجارة - بدا وكأنه غير مأهول، ومقفول بقفل ومزلاج - ربما كان صومعة حبوب. ووراءنا على سفح التل المنخفض الذي كانت عليه القرية، مجموعة من الأكواخ والعرائش، بينما وقف في أعلى مكان منها حصن بطابعه المألوف. وهكذا كانت قرية الحلبة، وهكذا كانت القرى الصغيرة الأخرى في المنطقة المسكونة، وذلك حسبما رآه المرء من قرب أو من بعد. ولكنها لم تكن كلها بحصون برجية - ويبدو أنها كانت خمسة فقط -، بينما امتازت النقع عن

قريناتها بكونها مقر الأمير أو الزعيم، والإمام الذي كان المعلم أيضاً، وكانت هناك عريشة من عرائشها تؤدي دور المسجد الجامع لكل القرية.

إن الأمير صبحي، وسكان كل القرى التابعة للفرع ينتمون إلى ساعد، من بني سفيان، إلا قرية ملحة، التي ينتمي سكانها إلى الحجة. ويمتلكون أرضاً لاشك أنها أخصب الأراضي المزروعة في هذه المنطقة وأكبرها، إذ تنتشر مزارعهم المدرجة والمسورة بالتروس في رقعة واسعة، لنحو خمسة أو ستة كيلومترات من طرف السلسلة إلى النقطة التي يضيق فيها الوادي فيصبح ضيقاً في مجراه المنحدر نحو ليّة. فإلى جانب القمح والشعير، فإن المحصول الرئيس للمنطقة هو التين الشوكي، التي ترسل فاكهتها اللذيذة والثرية للطائف ومكة في صناديق خشبية، ٤٢ × ٦ × ٦ بوصات في حجمها، لتباع بريالين أو ثلاثة (ستة أو سبعة في مكة)، وذلك حسب الطلب، لحمل الجمل، وهو ستة عشر أو عشرين صندوقاً. إنها لفاكهة رخيصة الثمن، مقارنة بالعنب والرمان من الطائف وليّة، ولكنها لا تكلف شيئاً في زراعتها سوى غرز عود من الصبار، كريه المنظر، في الأرض. ومن الأشياء الأخرى، فإن الطماطم (القوطة) والقرع غالبان، بينما تكثر الفصفصة، بل وحقول من الشعير لم تحصد بعد في هذا الوقت المتأخر من الموسم. ومن بين أشجار الفاكهة شاهدت التين، والتفاح، والمشمش، والعنب متسلقاً الأشجار. أما الري، فإنه من الآبار، بعمق عشرين قدماً، قد حفرت لنحو عشرة أقدام في التربة الطينية، مع حسن تبطين بالحجارة، وللعمق نفسه في صخور الجرانيت الواقعة تحتها. تتولى الأبقار رفع الماء، على هيئة أزواج غالباً. ومن كل النواحي، فإنها تبدو كأنها قرية صغيرة مزدهرة، وإن كثرت الشكوى من الجفاف حالياً.

قدمت لنا وجبة من الخبز والعسل حالاً بعد وصولنا. ثم بدت مني علامات الرغبة في الخروج للتجول. وحينئذ جاءني حميد يرجوني ألا أغامر فأرهق نفسي. فاستنتجت أن له أسبابه في كراهيته خروجي للتجول في المنطقة. ولكن بعد قليل من الوقت ضاع في النقاش واستسلم وذلك حين نويت استئناف رحلتي لأن ذلك لم يكن ليناسب ما كان ينويه لمحفظتي. ومع ذلك فإنه لم يستسلم فحسب وإنما أصر على مصاحبتي بنفسه. ولعله كان يخشى أن يرميه الأمير في الجمر لعمله مرشداً لشخص لم يزر رئيس المنطقة بعد - وآنذاك كنت فعلاً لا أعلم بوجوده. ولعله كان منزعجاً حين بدأنا رحلة الظهر، وعزفت عن استعمال شبكتي لصيد الفراشات بالرغم من الإغراء الذي كان يحدث أحياناً. وما أن ابتعدنا عن كوابيس البشر حتى بدأ يهدأ قليلاً قليلاً. وأثناء عودتنا بدأت أعلمه شيئاً عن علم الحشرات؛ ولكني أخفته مرة بتناولي عوداً صغيراً من نبات ما يقال إنه سام ويسبب العمى الفوري. حتى قال، موشكاً أن يصيح "كبه! كبه!". ولكن رافقني ساعة أقنعته بأنه لاخطورة في شخصي الخاص من الجنون، أصبح راضياً، بعدما اقتربنا من الدار، تركني وحيداً أتجول حيث أشاء حتى الغروب. ودنوت لأخاطب مجموعة من أسرة واحدة تعمل في بئر مجاورة، وأصغيت لمخاوف رب العائلة إن كان ذلك الانتفاخ القبيح في البناء الحجري سيؤدي يوماً إلى انهيار البئر قال متمنياً: "آه! ليتني أجد بعض المال حتى أصلح الأمور".

وكان حميد قد ساقني إلى أعلى الوادي مروراً بقرى بلاد أهل منصور وقرن (الثانية أطلال فيما يبدو والأولى فناء مزرعة ومعه حصن) حتى الطرف الفعلي للسلسلة حيث يغوص خانق عميق ضيق رأساً في شعب الحويّة، ٢٠٠٠ قدم

أسفل من موقعنا، الذي يتعرج في طريقه، بين السفوح المنحدرة لسلسلتيها المجاورتين له، إلى سهل تهامة. ويمثل السلسلة شبه دائرة واسعة، تتدرج في انحدار شديد نحو الوادي، مكسوة بالعرعر النامي وسط الفجوات على سفح الجبل. لكن المنظر لم يكن مكشوفاً كالذي استمتعت به في الصباح من قرنيت، لكنه من بعض النواحي كان أروع، لأننا كنا نقف لا فوق ذروة وإنما على الطرف الفعلي لجرف لنطل مباشرة على هاوية تتثاءب.

ولما رجعنا قبل الغروب بقليل جيء بخروف يرفس لأتقبله ثم ذبح بعد ذلك. ولعل خبره كان قد انتشر في كل المنطقة، إذ سرعان ما اكتظ كوخنا بالزوار. حياني أحدهم في الظلام، عن بعد، ونحن جلوس حول نار القهوة، وأنا أكتب مذكراتي في ضوء سراج ضعيف يتراجف فتيله. ولم يكن ذلك الشخص سوى الأمير صبحي، ! فهمهمت بشيء من الاعتذار بعد تبيني من شخصيته، وسرعان ما أجلسته بجواري، لنشترك في غليون، ونشرب الشاي ونتحادث. لقد كان همه الأساسي إغرائي بزيارة بيته، الذي كنا قد مررنا به في الصباح، لفنجان من القهوة، صرفت إلحاحه بالاعتذار له بأن الوقت ضيق، وأن زيارتنا المقررة لدكة مهمة لسعادتي. لذلك، فإنه في هذه المرة ضاعت منه " الشكلات "[1] التي ربما كانت نصيبه لو لم يكن يصلي حين مروري. ولكنه على أي حال استمتع بعشاء طيب من لحم الغنم والأرز ونام معنا. لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أنام فيها بالداخل لشهور. وكنت حكيماً باستلقائي في أقرب مكان ممكن من الباب، ذلك لأن عبد اللطيف والآخرين النائمين في داخل العريشة أقض مضاجعهم مجيء زوار آخرين شاركوهم

(١) عملة قديمة لا تزال تستخدم. «المترجم».

الفراش. ونمت نوماً عميقاً، ولم أشأ أن أتوثق من المصدر الفعلي لمعاناتهم.

وفي السابعة صباح اليوم التالي انطلقنا، وقادنا طريقنا أولاً شمال غرب إلى قرية منصور، ومنها شمال شرق صعوداً في وادي ملحة ومروراً بقرية بالاسم نفسه إلى قاع حاجز شبه دائري مكون من سلسلة شعر إلى اليسار وليّة إلى اليمين، ليلتقي الاثنان فيكونا مضيقاً، ومنه نظرنا خلفنا، وفوق المرتفعات المعترضة أمامنا، إلى الجانب العريض من قرنيت، الذي كان بحق كجمل ذي سنامين قد طويت عنقه إلى الوراء. وأوحت لي الحقول المدرجة أعلى المنحدرات، وغزارة العرعر، بإمكانية زراعة الزيتون. وأفادني رفاقي - وإن لم أر شيئاً - أن الزيتون البري ينمو فعلاً في هذه النواحي. لذلك فإنه لن يستعصي على المرء تلقيح ذلك النبات البري بقطع من النبات المزروع، لأن المناخ والتربة والأمطار كلها في صالح مثل هذا المشروع.

ومن المضيق نظرنا أسفلنا بين غابة العرعر إلى وادي عواس، ووراءه إلى السفوح الخضراء الزرقاء لقمة دكة نفسها. وفي مكان عال إلى جانبها، وإلى الشمال الغربي منها، يبدأ وادي عواس مجراه المنحدر الذي يقوده، مروراً بقرية بقلة وحصنها على ضفته اليمنى، إلى ملتقاه بوادي كيلان السحيق، ومنه، وبين قريتي دهله واللَّيْق (الضيق)[1] في جهة الشمال الشرقي. وبعد ذلك يتغير اسمه ليكون وادي الصفراء، ويجري بانحدار أقل، ومستقبلاً فيض وادي عقيلة في منتصف الطريق، حتى يلتقي بنظام الوادي الذي يغذي وادي ليّة.

ترجلنا وهبطنا بانحدار إلى دهلة، وبعدها إلى قرية حموري من الَّلَيْق، وبعد تركنا حميرنا مع محيسن وعبد اللطيف، مذكرين لهما بالغداء، بدأنا

(١) الضيّق: واد لثقيف جنوب غربي الطائف، فيه مجموعة من القرى الزراعية. معجم معالم الحجاز، ج٥، ص٢١١. (المراجعون).

صعودنا، يرافقنا ويرشدنا طفل ذكي من بيت حموري، أثبت أنه متسلق ممتاز للجبال، وماهر في قبض الجندب، الشيء الذي نال به ست بنسات.

لاشك أن دكة أسهل، مقارنة بقرنيت، ولكننا لم نصل ذروته بلا مغامرة. لما بلغنا مسافة ٤٠٠ قدم من الذروة، توقفنا لاستراحة قصيرة. وحين نظرنا خلفنا، رأينا ثلاثة رجال صاعدين الجبل، في خطوات مسرعة، جادين في اللحاق بنا فيما يبدو. وبدا أن صالحاً وحميداً، اللذين كانا يرافقاننا من الفرع مقابل ريال إضافي، قد تضايقا وانزعجا. وما لبثت أن عرفت أن مطاردينا كانوا هذليين من بقلة، يقع في منطقتهم السفح الغربي لدكة، بينما يقع في منطقة الحجة السفح الشرقي منه، شأنه شأن وادي عواس ابتداءً من الليق وأسفل. وسرعان ما كانوا معنا، ولم يضع أي وقت بحثاً عن التبريرات. سألهم صالح. "هل معكم خبر لنا. أم أنكم تريدون خبرنا ؟". قال رئيس جماعة هذيل: "خير، دعونا نعرف خبركم"، وهو شاب أنيق، يرتدي إزاراً، وعلى كتفيه العاريين عباءة ثقيلة من جلد الماعز. وسرعان ما علم أني زائر من الطائف، جئت لتنفس الهواء وسط المرتفعات، وأني، كما يرون، أفكر في عمل الشيء نفسه من ذروة دكة. فعبروا عن ألمهم ودهشتهم في إغفالنا التمتع بضيافة بقلة، ولم يظهر عليهم قبول توضيحنا البدهي بأن ذلك كان سيؤدي إلى دورة طويلة بعيداً عن الخط المستقيم.

وباختصار، فإنهم اعترضوا على تقدمنا خطوة للأمام، وكبديل عرضوا علي أن أصعد برفقتهم وبإرشادهم، بينما يرجع رفاقي القدامى. فاعترضت على ذلك بشدة، عارضاً عليهم أن نصعد جميعاً معاً، وأني لن أنسى حظهم من الغنيمة، مضيفاً أن الأمر لايهمني كثيراً، سواء صعدت إلى القمة أم عدت إلى حيث كنا. فقام صالح وحميد، واحداً بعد الآخر، بالانزواء جانباً بعبيد الله،

الزعيم المنافس، ليزيدا في شرح الموضوع، وبإشارة إلى الفائدة المادية التي يمكن جنيها بالسلوك المعقول. ولكن المعارضة لم تسع إلى الوصول إلى ثمن وسط - فإن ذلك سيكون مخالفاً لقانون الضيافة كما هو مفهوم في هذه المناطق - وخَفَّت ضراوتهم شيئاً فشيئاً في سبيل رحلة مشتركة للقمة. وبعد أن أصبح كل شيء على ما يرام، استأنفنا سيرنا، وإن ظل عبيد الله، الذي تولى القيادة، يتوقف من حين لآخر يتفحصني بشدة بعينيه العسليتين كأنه يتساءل ! وفي كل حالة، وإن كنت ألهث من الصعود، كنت أحدق فيه بانزعاج، ثم يمضي، لايزال متسائلاً، حتى وقفنا فوق ذروة دكة في نهاية الأمر. وعند استخدامي مقياس الضغط غير المائي (الأنيرويد) الذي كان في جيبي، اكتشفت أننا كنا في ارتفاع أعلى من قمة قرنيت. لذا، وفي أغلب الاحتمالات - لأنه ليس من الحكمة أن يجزم المرء في هذه الحالة - أن دكة أعلى نقطة في الحجاز، ٨٣٥٠ قدماً فوق سطح البحر، اعتماداً على قراءات سابقة أو لاحقة بالأنيرويد عملت من جدة.

وباستثناء بعض القرى السكنية أسفل الجبل في الوديان النازلة من جوانبه، فإن المنظر الفسيح الذي يحظى به المرء من ذروة دكة يشبه كثيراً ذلك المنظر الذي استمتعت به من على قرنيت. لقد اختفت مدينة الطائف وراء السلسلة، ولكن شبرا برز بوضوح، بينما ظل الأفق هو نفسه في كل الاتجاهات. إن اللمعان الأخضر المميز لدكة، حينما ينظر إليه المرء عن بعد، راجع في المقام الأول لشجيرات تسمى شعث، تنمو بغزارة على السفوح الحجرية. وهنالك العرعر أيضاً، في كل المسافة حتى أعلى الجبل، الذي يمثل جسمه الأساسي صخر أسود، ربما كان البازلت أو الهورنبلند، بحواجز من الكوارتز. وعلى ذروة الجبل عريشة غير مسقوفة من الحجارة (للرعاة)، بمحراب نحو مكة، بما يوحي أنها كانت للصلاة. فليس من هذا المكان ولا من قرنيت أمكننا أن نرى شيئاً من مكة، الواقعة في اتجاه جبال الحبلة،

وخلفها. وفي الاتجاه نفسه يقع الدرب الذي يسلكه أهل هذه الوديان بثمارهم وعيدانهم إلى المدينة. وحسبما فهمت، فإنه ليست هناك دروب فعلية تهبط هذه الخوانق المؤدية إلى أسافل الجبال وتهامة. فحين يأتي الشتاء، ينزل معظم سكان الجبال بقطعانهم إلى هذه الأودية حتى الربيع، حين تكون المحاصيل التي كانت قد زرعت في نوفمبر في كامل نموها.

وفي الليق، في أسفل الجبل، نحو ١١٠٠ قدم من القمة، وجدنا أسرة حموري وأصدقاءهم متجمعين لاستقبالنا. وكان حسن، رب الأسرة وجدُّ مرشدنا الصغير، هو صاحب الفضل. لقد كان طاعناً في السن ولكنه كان حيّاً ودافئاً. وهنا وجدنا اختلافاً عن المساكن العادية التي كانت في الشفا. فغرفة الضيوف كانت كوخاً من الحجارة نحو اثني عشر متراً مربعاً، بسقف من السعف، عرضها الشمالي مفتوح في مصطبة مستطيلة واسعة تطل على الوادي أسفلها. ولقد صادفنا النظام نفسه في أماكن في أسفل الوادي. ولم أستطع أن أتأكد إن كانت المصطبة لأغراض اجتماعية أم أنها كانت مكاناً لطحن الحبوب- ولعلها كانت للاثنين معاً، وهذه ظاهرة حسنة. كما كانت هنالك منازل قليلة أخرى قريبة، وحصن من النمط المألوف نحو ٣٠٠ ياردة مع مجرى الماء. ويوجد في بطن المجرى حيضان بسدود، وعلى المنحدرات على جانبي المجرى حقول مدرجة.

كان غداؤنا من الخبز والعسل، ولكنهم جاءوا بخروف أملاً منهم بأن ننتظر لنأكله. لكن خطتنا بالتحرك فوراً أنقذت حياته. وفي الساعة الواحدة ظهراً بدأنا الرحلة عبر بطن مجرى الماء لنتبع طريقاً يؤدي شمال شرق على منحدر ضفته اليمنى. وبعد أربعة أو خمسة كيلومترات أتينا إلى قرية أخرى من الليق، كاملة بحصنها، وأكواخها ومقبرتها. وهناك تركنا الوادي لنعبر سلسلة إلى آخر يجري موازياً له، اسمه المسيمر. وفيه كانت قرية صغيرة أيضاً للحجة،

جئنا بعدها إلى الوادي الرئيس، الذي كان يجري هنا في اتجاه شمالي شرقي في بطن صخري، حصوي، عرضه نحو خمسين ياردة، لا أثر فيه لأية زراعة. واسمه هنا وادي الصفراء، يجري كفرجة واسعة بين غابات العرعر الكثيفة على جانبيه. فتابعناه لنحو كيلومترين منحدرين إلى ملتقى وادي العقيلة، وهو واد مرتفع رائع، يرتفع بانحدار وسط جلاميد ساقطة وبقع من العرعر. وهنا وهناك، ولعل ذلك كان في الأزمنة الغابرة، حيث كانت تعترضه سدود. أما الآن فلا أثر لأية زراعة في الأماكن المنخفضة منه، وإن كانت هناك برك من الماء متفرقة على السطح. وعلى صخرة قذفت بها الريح والمياه في مكان أمين لمحت أشكالاً مستطيلة مع خطوط ونقط، مرصوفة على عجل، ولكن رفاقي عجزوا عن تفسير معناها لي.

وفي مكان أعلى، تركنا الوادي لنتابع طريقاً صعدنا به إلى مضيق مطل على منظر رائع لقرية العقيلة وحصنيها، ولقرى صغيرة أخرى على جانبي الوادي الذي ملأته الحقول المدرجة والسدود تماماً. إن العرعر ينمو عالياً ومستقيماً، ولعل ذلك راجع لقطعه المستمر، كما أن الحقول كانت تكسوها تربة طينية رملية نوعاً ما. وأثناء هبوطنا، مررنا برجال منشغلين بمحاصيلهم، بينما كانت بنتان صغيرتان، في تنورتين مخططتين، بأهداب ذات أشرطة زرقاء وبيضاء في أسفلها، ترعيان حملاناً في ظل أشجار كاملة النمو، من بينها خرفان غريبة الأشكال، مطلية بقطران ليقيها من "القراد".

وفي رأس الوادي، وعلى ارتفاع نحو ٢٠٠ قدم فوق ضفته اليمنى، جئنا إلى مجموعة قرى لأمير المنطقة، واسمه دخيل الله الحجي. ولم يكن بها من أحد سوى النساء، وكان حميد قد فارقنا في الليق عائداً إلى داره -ولكن صالحاً لمح الأمير على بعد نحو ميل في الحقول الواقعة أسفل من مكاننا،

مسايل المياه بين وج وليّة. إن وادي العقيلة جزء من الأخير، بينما يمثل شعب غرضان، المواجه لنا الآن، رافداً من وادي شَقرَى[1]، الذي يسيل إلى الوهيط، ومنه إلى وج، الذي يسقي الطائف.

لقد رأينا غميراً من بعد، بينما كان جبل برد العظيم، حاد القمة منحدر الجنبات كظهر الخنزير، في متناول اليد إلى الجنوب الغربي. وقادنا هبوط طويل، لكنه سهل، إلى حافة ربوة من الجرانيت الأحمر، وعند هبوطنا منها وجدنا طريقنا على الأقدام، وبطريق متلوٍ، إلى بطن شعب غرضان، الذي وجدنا فيه أشجاراً كثيفة من السلم بدلاً من العرعر المألوف في الأماكن العالية، إذ كنا آنذاك على نحو ٦٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، ونحو ١٠٠٠ قدم تحت هضبة الشفا الرئيسة. وفي ربع ساعة وصلنا إلى أقصى حصون شَقرَى الثلاثة شمالاً. ولما كانت الشمس مؤذنة بالغروب، رأينا أن نبيت حيث كنا، وإن لم يكن الحصن والقرى المجاورة له مأهولة، ولم يكن معنا شيء للعشاء.

ولما عجز صالح عن دفعي لأتجول في الأماكن العليا بحثاً عن طعام، انطلق منفرداً بحثاً عن طعام، بينما شرع عبد اللطيف ومحيسن يعدان الشاي. ولما لم يكن لدي مصباح، فإني نويت العودة، حين عاد صالح ومعه رجل، كان قد وجده يبحث عن جمل له ضائع، تبين، وبمحض الصدفة، أنه صاحب تلك الأكواخ. لكن خزائنه كانت خالية تماماً، ولم تكن فرص الحصول على أكل مشجعة، وإن كنا نرى ناراً غير بعيدة لمطبخ أو مخيم. وفجأة، ومن غير إنذار، برز مضيفنا، حاملاً قدحاً كبيراً، ليدعونا للعشاء! وتبينت في الظلام عدداً من

---

(١) شَقرى: عقبة بين رأس وادي القصر ووادي خماس يأخذها طريق شفا هذيل، تقع جنوب الطائف بنحو ١٥ كيلاً. وشقرى أيضاً شعب يسيل من عقبة شقرى. معجم معالم الحجاز، ج٥، ص٨٣. (المراجعون)

الكعكات المدورة، فمددت يدي للخبز، المرغوب فيه شاكراً. ولدهشتي كان لزجاً، فأدركت فوراً أن طعامنا لم يكن خبزاً، وإنما أقراص عسل، جيء بها، كما علمت، من مناحل لا تكاد تبعد عنا عشرين ياردة. ولقد كان عسلاً رائعاً. وفيما بعد جيء بعصيدة حارة من القمح لتكمل وجبتنا، ولقد كانت جماعة هانئة، جماعتنا تلك التي أخلدت للراحة في ظل الحصن العالي. وبدا أن أحد جانبي الباب، من الصخر الأسود، كان به شيء من نقش، كادت تمحوه الشمس، والجو والزمن، بينما كانت على عتبة الباب، من الحجر غير المنعم، علامات غريبة، وإن كانت حديثة، معها ثقوب رصاص، هي الشاهد الوحيد على معركة ما منسية الآن.

إن الغريب في الأمر، أني كنت قد قضيت هذه الأيام القليلة في منطقة مشهورة، بل كأنها تفيض، بالعسل، دون أن أرى أية علامة لصانعيه أو الطرق التي يتبعها السكان في مناحله. ولقد استفسرت فعلاً، لأعلم أنه لا خلايا للنحل في المنطقة التي استعلمت فيها؛ ولابد أني قد مررت قريباً من حيث تمكن رؤية الخلايا، دون أن يعلم رفاقي أني كنت أود رؤيتها. إن المعلومات العامة الوحيدة التي حصلت عليها كانت، أولاً، أن النحل في أغلب الأحوال يكون في مرتفعات أقل من الشفا، ذلك لأن الشفا قاس جداً عليها، وثانياً، أن معظم العسل يأتي من خوانق تهامة. ولكني قيض لي سد هذا النقص في تجربتي خلال ساعات قليلة بعد نهاية رحلتي. فما أن طلعت الشمس حتى قمت بزيارة العيدان التي كان مضيفي قد نهبها في المساء. لقد كانت واقعة في عريشة من الحجارة، تشابه سائر المباني الأخرى في فناء المزرعة إلى حد كبير، وأحد جوانبها مفتوح نحو الجنوب. وكانت كل خلية مكونة من برميل، طوله

نحو ثلاثة أو أربعة أقدام، وقطره نحو ثماني بوصات، مصنوع من ساق شجرة سلم تامة النمو. وسدت الفتحتان الأمامية والخلفية للبرميل بقرصين دائريين من الخشب يناسبانهما ويقفلانهما بإحكام تام، يمكن خلعهما وإعادتهما بيسر. وكان أسفل القرص الأمامي (المتجه للخارج) مكسوراً كسراً يسيراً ليسمح بدخول النحل وخروجه، التي بدت أصغر حجماً من نظائرها في إنجلترا، مثلاً. ورصت البراميل في طبقات، بعضها فوق بعض (اثنان، ثلاثة أو أربعة، حسب الحالة) بطول واجهة العريشة، بينما وضع فوق البراميل، وما بين الخلايا، كسوة أو حشو من الركام، والفروع والقش والحجارة لحفظ الحرارة في مستوى مناسب. وخلف الصفوف مكان لسارقي العسل، الذين يخلعون القرص الخلفي، ويخرجون أقراص العسل بقطعها في حلقات بسكين. ولابد أنه كان في مناحل (حلي) شقرى نحو خمسين خلية على الأقل، وإن لم يكن بها كلها نحل لأن موسم الجفاف الماضي كان قد فعل بها ما شاء. والأقراص دائرية، قطرها قطر الخلايا، ونحو بوصة في عمقها. ويوضع شمع باليد في كل خلية ليكون نواة لها. والنحل نفسه يجمع بطريقة تقليدية بأيدي خبراء، الذين يعثرون على الملكة (يسمونها " أب " هنا)، ويضعونها في شرك خشبي، فيلتف حولها الجمع، فيغطونه بقماش، ويأخذونه إلى ديارهم. وفي موسم الجفاف تقدم للنحل عجوة التمر ليتغذى منها، كما يترك له قدر كبير من العسل، وإلا فإنه سيجد الغذاء والحلوى الإضافية في أزهار الوديان.

كان سيرنا في اليوم التالي (كانت الدرجة الدنيا للحرارة في الليلة الماضية خمسين درجة فهرنهايت) هبوطاً في الأودية الرائعة المتعرجة في وادي شقرى، الذي يتلوى بمحاذاة جبل فروة الفارع، لملتقاه بوادي الطويلة، الذي ربما كان

أسفل منطقة في وادي عمت. وهنا أكد لنا مخيم لقريش، قبيلة محيسن، بخيامه وقطعانه الكثيرة خروجنا من منطقة الحجة. وبعد لحظات قليلة كشفت لنا لفة في الوادي شجرتي الأوكالبتوس التوأمين الرائعتين في الوهيط في المكان الذي كان يوماً ما حديقة رائعة أنشأها الشريف عون قبل نحو خمس وثلاثين سنة مضت، ولا تزال تسقى من غدير نابع من ينبوع جوفي قريباً منها. وإلى جانب ما تزدهي به الحديقة من أنواع الأوكالبتوس، فإن بها كل صنف من النوادر الغريبة، التي تشمل الليمون الحلو، والراتينجية والتنوب، وأنواعاً أخرى من الأشجار، بالإضافة إلى المنتجات المحلية، نحو الصبار والرمان.

إن وادي المخلة، الذي يجري بمحاذاة سفح برد، يلتقي مع وادي شقرى هنا، في زاوية قائمة من جهة الغرب. وقبل ملتقى الاثنين بقليل ثكنات لم تكتمل، كان قد بدأها الشريف عون لسكنى حرسه، ولكنها هجرت عند موته في ١٩٠٥م، لتفنى تدريجياً كحديقته النباتية.

يمكن بلوغ الوهيط بالسيارة بسهولة من الطائف، التي تبعد عنها بنحو ثلاثة عشر كيلومتراً، إذ يهبط الطريق في الوادي، الذي به بعض الرمل في بعض الأماكن، وبمحاذاة الضفة اليمنى حتى بلوغ قرية الوهط الآتية بعد ذلك عند ملتقاه بوادي وج، الذي تجري تحته قناة الينبوع الجوفي الذي يفرغ ماءه في حدائق شبرا في نهاية الأمر. والوهط قرية صغيرة، بها قليل من البيوت الجيدة لإقامة زوار نهاية الأسبوع في الطائف، والزائرين من مكة في فصل الصيف. كما أن بها مساحة شاسعة من ري الحياض، تنتج محصولات جيدة من الدخن، وبعض البساتين الممتازة، بعرائش العنب، والرمان، والتين، وأشجار الفاكهة الأخرى، مع الفصفصة كمحصول فرعي.

إن الحمارين، اللذين كانا يسيران بسرعة ستة كيلومترات في الساعة، سرعان ما قطعا المسافة القصيرة عبر سهل طيني إلى يمين البطن الرملي من الوادي إلى المثناة، أولى ضواحي الطائف. ولم يطل بنا الوقت قبل دخولنا المدينة نفسها من باب السيل. لقد انتهت عطلتي القصيرة أسرع مما توقعت، وسرعان ما جرني مضيفي إلى تيار الأحاديث عن الأحداث المحلية، بينما كان ذهني هائماً في نشوة بين قمم الحجاز ومرتفعاته. فعلى البعد، كان قرنيت ودكة شامخين في السماء، لكنهما لم يعودا بعد ذلك الغريبين الغامضين اللذين كانا عندي لزمن طويل. ولا شك أنني كنت أول أوربي يقف فوق ظهريهما. وكوفئ محيسن بما هو أهل له على حماريه ورفقته. وبعد يومين هبطت بسيارتي إلى صيف مكة وجدة الذي لم يزل قابعاً بعد.



عطلة فارسية

في هذه المقالة أنوي أن أطوف بقرائي في جولة في فارس بتعليقات مشتتة عن أحوال هذا البلد، عاثر الحظ، عشية صحوته المباغتة في يوم أصحى من أي يوم عرفه لقرون طويلة. تلك الصحوة كانت لمحو النفوذ البريطاني من البلاد للأبد - إن كان بإمكاننا وإلى قدر معلوم عد التطورات في العقدين الأخيرين اللذين كانا قد مضيا بمثابة توقع بما قد يكون عليه المستقبل(١). ويمكن للمرء أن يردف قائلاً، إنه بزوال " المساعدة " البريطانية لبلد ضعيف فقير، فقد زال أيضاً هم منافس بريطانيا الذي كان من قبل محل ترحاب أيضاً - الدب الذي كان من قبل يتآمر مع الأسد ليقتسما الفريسة، ولكنه، فجأة، وتأثراً بتحول عجيب، غدا منقلباً على حليفه المنزعج، وإلى حد ما نادماً على سوء معاملته لضحيتهما المشتركة. إن فارس لم تخسر شيئاً برحيل أصدقائها، ولكنه كان عليها أن توصلهما إلى الباب. فكان عليهما كليهما أن يتركاها، غير محمية تماماً من أخطار مستقبل مجهول.

إنها إلى حد ما تدين بشيء من الشكر لثوار ما بين النهرين، الذين كانوا أول من فتح عيني بريطانيا العظمى لعظم التزاماتها الحربية في بلد شاسع، مستقل اسماً. إني لا أنوي أن أناقش في هذا المكان اتفاقية ١٩١٩م، الإنجليزية - الفارسية، للسير بيرسي كوكس وقولته المشهورة بأن على فارس " أن تغلي في عصارتها " إن لم تعجبها الاتفاقية وأظهرت عدم رضاها بعدم اعتمادها لها.

---

(١) وكما يعلم القراء فإن أحداث ١٩٤١م قد أعادت عقارب الساعة للوراء مرة أخرى. (المؤلف).

في عام ١٩٤١م، انضم رضا شاه إلى جانب ألمانيا أثناء اشتعال الحرب العالمية الأولى، لذلك احتلت الجيوش البريطانية - السوفيتية إيران، وأرغمت رضا شاه على التنازل عن العرش ومغادرة البلاد. (المراجعون).

ولاشك أن كوكس كان يؤمل في استمرارية النفوذ البريطاني الواسع والتدخل في شؤون فارس. ولكننا علينا اللجوء للسير آرنولد ويلسون، الذي كان في ذروة عمله كنائب للقنصل، لنظرة في المستقبل الذي كان يختمر لذلك القطر، كعضو في تلك المجرة العظيمة للشرق الأوسط الذي سيكون حزاماً يربط في وسط الإمبراطورية البريطانية. فكان مقدراً لبغداد أن تصبح مركز الكواكب الجديدة، معسكراً حربيّاً ضخماً بسيارات مصفحة وطائرات، لتبرز نجوماً سياسية جديدة تحت حراسة حربية مناسبة لأقصى نواحي القبة الزرقاء المكتشفة حديثاً. لاشك أنه كان حلماً رائعاً، ولكنه حلم على كل حال، من ذلك النوع الذي يصحو عنه المرء ليجد أنه لايزال امرءًا فانياً في عالم عادي جداً، فيتساءل عما كان قد أكله في العشاء ليجلب مثل ذلك الوهم.

وفي نظرته في المشكلات الناجمة عن تسريح الجيش - وهو أمر كان عليه مواجهته، مهما قل حبه للفكرة، مراعاة لملل بريطانيا العظمى من الحرب - فإنه افترض أنه، مهما تكن الترتيبات النهائية التي تقرر لوادي الرافدين، فإن السيطرة البريطانية القوية ستكون مظهراً مهمّاً فيها. وهذا يعني الاحتفاظ، ولمدة طويلة، بقوة حربية مؤثرة لمواجهة أية اضطرابات في أي مكان في الشرق الأوسط. وهذه يمكنها أن تحدث في مكان قريب كالموصل أو بعيد كأرمينيا والقوقاز، ولكن بريطانيا ستكون هناك، أينما كانت. فالسلام الأوربي كان في الميزان، وأي ميلان في ذلك الميزان بمشاكسة في فارس، مثلاً، سيغمس أوربا مرة ثانية في هاوية الجحيم. ولكن مع قوة مثنية في بغداد، والتي ستكون المركز العصبي لشبكة واسعة من الخطوط الحديدية، فإننا لن نقدر على مساعدة الدولة الجديدة التي ستنشأ في الشرق الأوسط على الاستقرار

فحسب، ولكننا سنضرب اليوم في حلب وغداً في شرق القوقاز أيضاً. إن قوة بغداد ستساعد بريطانيا في التصرف كوكيل مخول لكل الدول المتحضرة في العالم في تهدئة الحزام المتوحش بين القسطنطينية والهند وتثبيته. إن أية إصلاحات تحت الرعاية والإشراف الأوربيين لا يرجى حدوثها في فارس وتركيا وأرمينيا بلا دعم من قوة عسكرية. إن كل دول الشرق الأوسط سترى في بريطانيا، وبشريطة أن تكون قوتها الضاربة مؤثرة، لا المؤهلات الضرورية للوصاية الحضارية المنفردة في إدارة شؤونهم فحسب، وإنما إيثاراً، وتسامحاً واسع الأفق، يبحث عنهما المرء في أماكن أخرى بلا جدوى. إنها صرخة طويلة من بلاد الرافدين لعام ١٩١٩م - ١٩٢٠م إلى ميونخ ١٩٣٨م، تلك التي دفعت عرافاً أعظم من ويلسون - لويد جورج - ليعلن أنه ليس ثمة دولتين يمكنهما أن تحذوا حذو إنجلترا هذه.

وعلى أي حال، كان الإطار الطموح الذي كان ويلسون قد هيأ فيه ذهنه لدراسة الحاجات الخاصة لمختلف الأراضي التي كانت ستصبح في فلكه. فهو قادر على الحديث عن فارس بخبرة شخصية واسعة ومعرفة ذاتية دقيقة. فكانت تلك البلاد من طرف لآخر في أرجائها الواسعة تعج بالقوات البريطانية والجنود المحليين تحت إدارة ضباط بريطانيين. فالمحافظة الجنوبية من عربستان كانت تحت السيطرة الإدارية البريطانية الفاعلة والتامة. وكانت أشعة الخير البريطانية تسقط على شعب غير منظم ومضطهد من مشهد في الشمال حتى بوشهر في الجنوب. لقد كانت العاصمة طهران متصلة ببغداد - تحسباً للغد المشرق - بطريق سيارات من الدرجة الأولى تحميه في مسافات متباعدة قوات بريطانية لخدمة اتصالات الجيش البريطاني، الذي كان وجوده في قلب البلاد ضمانة

راسخة للاستقلال الفارسي. وإن عدداً كبيراً من السيدات البريطانيات أظهرن استحسانهن لجو لطيف لبلد جميل بقطعهن تلك المسافة الطويلة من إنجلترا للحاق بأزواجهن أو إخوانهن في كرند. ولاشك أن فارس لن تكون إلا شاكرة لهذا البشير بحركة سياحة مستقبلية قد تملأ جيوب مرشديها وسماسرتها.

ولكن كل هذا التنظيم المستعجل والجاهز للسعادة الفارسية - الذي كان قد عمل على عجل في ظروف الحرب - ربما كان بالإمكان إقامته على أساس أفضل وأدوم. فالإجراءات في هذا الخصوص كانت قد اقترحت، كما كان ويلسون مستعداً لدفعها لمرحلة التنفيذ. لقد كان مسألة معلومات عامة أن سلم المناطق الوسطى - شيراز وأصفهان وغيرهما - ورفاهيتها يعتمد اعتماداً كبيراً على قوات الأمن التي بالرغم من تنظيمها وإدارتها بأيدي ضباط بريطانيين، لم تكن ذات فاعلية للمهمة المتصورة لها. فالأرض حولها وعرة وجبلية، وقبائلها لاتبدو أبداً مدركة للمنافع التي كان الجنود البريطانيون المعنيون حريصين على إسباغها عليهم. ولكنه لن يكون من المتعذر أو المكلف - وفي المدى البعيد، بالطبع، ستكون أرخص - إصلاح هذه التقصيرات المعترف بها. وما أروعها من لفتة أن تواجه الحكومة الفارسية بهدية مفاجئة من الطائرات، بطياريها وموظفيها الأرضيين وكل المعدات الضرورية لمختلف المطارات والمهابط. ففي الشتاء يمكن جمعها في بوشهر (محطة مهمة على الطريق الجوي الإمبراطوري في المستقبل)، بينما في الصيف يمكن نقلها إلى سحر شيراز. وبطبيعة الحال، فإن الحكومة الفارسية سوف تبدي مظاهر التردد في قبول هدية سخية كهذه على حساب الخزانة البريطانية. ولكننا يمكننا أن نوضح توضيحاً كاملاً أننا لانتوقع أي شيء في المقابل. وعلى العكس، فإنه سيكون بإمكانهم فوراً

تسريح شرطتهم عديمة الفائدة والمكلفة، وتسريح جيشهم أيضاً، إن شاءوا- ربما الاحتفاظ بفوج أو فوجين للأغراض التشريفية. وسنتولى عنهم كل أعمالهم الحربية والأمنية بلا مقابل. أما القبائل المتمردة فإنها ستهدأ حالاً حين تجرب قنبلة أو اثنتين.

إني لم أستطع أبداً أن أفهم لماذا لا تستجيب الدول الصغرى بقدر أكبر من اللطف للاستعداد الواضح من الدول الكبرى، الأغنى، والأقوى، والأكثر إمكانات للقيام بكل عملها نيابة عنها. فلعل ترددها عائد لا لشيء أكثر من التعلق الإنساني بلعبة العساكر. ولعلهم أيضاً مدفوعون برغبة صادقة في عدم الإسراف في استغلال عاطفة حب الخير لدى القوى الكبرى. ففي هذه الحالة بالذات، فإن عرض ويلسون السخي لم يلق قبولاً أبداً من حكومة الهند. أولاً -وطبيعيّاً، فإن أولي القربى أولى بالمعروف - إنهم رفضوا تعريض أرواح الطيارين البريطانيين للخطر في مخاطرة كهذه. إن أي هبوط اضطراري في تلك الأرض الجبلية غير الصالحة للسكنى يعني القضاء بفناء الطيار والآلة معاً. ولتجنب مثل هذه الخسارة سيكون من الضروري توفير طائرات من الدرجة الأولى فقط، وسيكون ذلك باهظ الثمن. ثانياً، لقد رأوا - وفي هذا ينبغي الاعتراف بأن حكومة اللورد تشلمزفورد أثبتت أنها متقدمة على الرأي العام بربع قرن على الأقل - أن هناك بعض الحجج الأخلاقية ضد استخدام القوات الجوية كوسيلة من وسائل الأمن. إذ كيف يميز المرء بأية وسيلة ما بين الأبرياء والمجرمين من الجو ؟ لقد رد ويلسون عليها من الخبرة التي كان قد اكتسبها في بلاد الرافدين وشمال غرب فارس بأن رجال الجو لايعانون أكثر مما يعاني المشاة في التمييز بين المجرمين والأبرياء - ومن الواضح أنه يعني أنه لا أحد منهما

استطاع أو يستطيع أن يفعل ذلك عمليّاً، وإن كان قصد أن يفهم منها أن الطيارين قد اكتسبوا حاسية خاصة لم تلق أية صعوبة في مثل هذا التمييز. ولكنه على أي حال، لم يغامر بكشف سرهم، فإن كان لهم سر، فإن المرء يمكنه القول إنه لم يبلغ طياري زماننا.

اعتماداً على التجارب الأخيرة في حضرموت وفلسطين. وخلال المناقشة ظهر أنه إن كان المسئولون راغبين في مثل هذه التجربة، فإن الأساسات الضرورية للسيطرة الجوية على فارس موجودة وبحجم يثير الدهشة. فمع بغداد كمصدر، فإن هناك سرباً من الطائرات مقره في قزوين للعمل الفعال يغطي سنه، أرومية، وتبريز وباكو- وفي واقع الأمر. وهذه الآلات كانت رهن إشارة الضباط السياسيين المنتشرين في المنطقة لأغراض إدارية أو تأديبية. وبالمثل، فإن الطيران من الموصل يسيطر على الجزء من كردستان المجاور لغرب فارس. فالمهابط، وبأحجام متعددة، كانت قد أنشئت في كل " المناطق المحتلة "، بما في ذلك باكو، وطهران، وعربستان، ومناطق فارسية كثيرة أخرى. إن أية محطة فيها ضابط سياسي بها مهبط مزود تزويداً كاملاً بالوقود، والزيت والضروريات الأخرى. إنه، في واقع الأمر، تنظيم رائع، قادر على التوسع بحرية. وإنه لغريب فعلاً أن حركة ويلسون الجديدة لم تلق رد فعل حار. ولعل تفسير ذلك هو الضجر من الحرب بصفة عامة، أو لعله في بعضه يعود إلى المد العالي في نهر الفرات بالثورة.

فالصيحة إذن كانت للانكماش لا للتمدد. لقد هربت سيدات كرند إلى بغداد، وغارت قرون الجيش البريطاني سريعاً. ففي الوقت الذي ذهبت فيه في زيارة وذلك في عطلتي في يوليو، ١٩٢١م، لم يكن هناك جندي بريطاني واحد على الطريق ما بين قصر شيرين وطهران. لقد كانت كرند خراباً محزناً،

من بيوت مفككة، أزال منها بدو المنطقة كل شيء خشبي لإطعام نيران مخيماتهم في جبالهم الباردة. كما أن الحكومة الفارسية كانت تجبي رسوم طرق باهظة في كل حاجز - بصفة عامة، في كل بلدية - على الطريق الذي ساء بالإهمال المتعمد. لقد كانت هناك عدة اتجاهات أخرى كان يمكنها امتصاص الرسوم المجباة. فطريق السيارات الكبير قد أصبح ذكرى محزنة لأولئك الذين كانوا قد بنوه، وهنا وهناك رأيت دموعاً - دموعاً فعلية - في عيون كثيرين ممن يشكون من عدم وجود زبائن يشترون فاكهتهم ومصنوعاتهم بأسعار تفوق بكثير قيمتها في السوق. فلا يعتقد أحد أن الفرس فرحوا بالجلاء عن بلادهم. بل العكس! إنما هو قطاع ضئيل نسبيّاً ممن كنا نسميهم "المثقفين"، ذلك الذي صرح برضاه عن زوال كابوس. ومثل هؤلاء يزنون وزناً خفيفاً في ميزان المقاييس البريطانية. إن "غريب بروري"[1] هو شعار الإمبريالية.

لقد جرني قلمي معه أسرع مما كنت أنوي، وعلي العودة إلى بغداد وإلى الاستعداد لرحلتي. وبينما كانت أمور أكثر أهمية تجري مجراها في السراي التي كنت قد أخليتها، قنعت بالقيام بجولة وداع لأولئك النفر من أصحابي الذين حسبت أنهم لن يحرجوا بنواياي. فمن بعض هؤلاء، وفي المقام الأول من الشيخ المسن عبد القادر باشا الخضيري، جمعت عدداً من خطابات التعريف لأصدقائهم في مختلف المدن التي سأمر بها. وكان السفيان[2] قد انسحبوا إلى فارس، ابتعاداً عن التمرد، وسأراهم بعد حين في سلطان آباد - كانت البنت الصغرى قد تزوجت من ضابط بريطاني، وأعتقد أنها في لندن.

(١) ترجمتها "حماية الفقراء". (المؤلف).

(٢) عائلة أرمينية من بغداد. (المؤلف).

فاستأجرت سيارة لتأخذني إلى كرمنشاه. ومن هناك، فإن أية مرحلة ستعالج منفردة. وفي أوائل يوليو ١٩٢١م، كان كل شيء قد أعد، وبعد أن ودعت زوجتي وابنتي، انطلقت إلى المنفى.

لقد كان رائعاً أن يكون المرء حراً، وإن كان الشعور قد خفف منه التفكير في أن البناء الذي كنت قد ساعدت في تصميمه وبنائه قد انهار نتيجة لتخريب مهندسيه الرئيسين له. ويمكنني نفض غبار العراق عن قدمي بضمير مرتاح. ولم يمض وقت طويل قبل بلوغي قصر شيرين والحدود الفارسية، حيث كانت صفوف طويلة من حيوانات النقل، والبشر وعربات النقل التي تجرها الحيوانات تنتظر الانتهاء من الإجراءات المملة التي ستسمح لهم في نهاية الأمر بالتوجه للوجهة المقصودة. وكانت السيارة تعامل بشيء من الاحترام أكثر قليلاً مما تلقاه وسائل النقل الأخرى. لذا فقد تجاوزنا نقطة الجوازات والجمارك بعد وقت لايزيد كثيراً على الساعة. وبدأنا مباشرة في الصعود الطويل والممل فوق الطريق المسلح الذي كان قد بناه المهندسون الحربيون البريطانيون في الجوانب الرسوبية للوادي العظيم الذي يخرج في قصر شيرين من الحواجز الجبلية في فارس، ويستمر إلى سهول العراق. فصعدنا وصعدنا بينما الشمس تؤذن بالغروب. وقضيت ليلتي الأولى في قرية صغيرة في المنطقة المجاورة لكرند. وفي اليوم التالي وصلنا كرمنشاه، المدينة الكبيرة الأولى على الطريق السريع، حيث أمضيت أسبوعاً أو عشرة أيام في استمتاع لطيف.

وكنت قبل مغادرتي بغداد قد قررت مبدئيّاً، تهيئة نفسي لكرم الفرس أصدقاء أصدقائي في العراق. وحسن الضيافة البريطانية، وخصوصاً الأماكن التي لاتتوافر فيها فنادق على أي حال، وينبغي التنويه بذلك عابراً، يجعل

البيوت مفتوحة للكل بسخاء في هذه الأماكن كما في غيرها من البلدان في الشرق. ولكني لم أشأ استغلالها لأني عرفت تكاليفها. كما أني أيضاً فضلت أن استقل استقلالاً كاملاً وأن أرى شيئاً من الحياة الفارسية في عطلتي. لذلك فإني مطمئن بأن مختلف القناصل البريطانيين والممثلين للبنك الإمبراطوري الفارسي، الذين يقع على عواتقهم العبء الرئيس من استضافة الموظفين العابرين أو المسافرين من الأصول الأوربية، لن يسوءهم عدم استفادتي من سماحتهم في مختلف الأماكن التي مررت بها. ولقد التقيت بعدد منهم، بطبيعة الحال، وعرفت منهم الكثير عن السياسة والأحوال المحلية. وبصفة عامة، فقد كانت وجهات نظرهم منتقدة لترك البريطانيين فارس لتتولى أمر نفسها بنفسها بلا تدخل، وإن كانوا ربما يعيشون بحرية في ذلك الجو غير الحربي آنذاك. لم يكونوا متفائلين حول مستقبل البلاد، ولكنهم آنذاك كانوا لا يكادون يعلمون شيئاً عما كان قد بدأ يحدث في طهران البعيدة أو عن الرفاهية، أو ربما كانوا فقط يرونه رؤيا قاتمة كما لو كان في مرآة - تلك السحابة الصغيرة التي لاتتجاوز قبضة اليد، التي ستغرق الأرض بمطر الاستقلال بعد ذلك. لقد كانت لحظة مواتية فعلاً لزيارة البلاد. فباستثناء ركن صغير منها في عربستان، تحت الإدارة السياسية العسكرية البريطانية، لم أكن قد زرت شيئاً من فارس، وبعد هذه الزيارة لم يقدر لي أن أراها مرة أخرى. لذلك، فإني رأيتها في مرحلة انتقال، من ماضٍ مجهول لي إلى مستقبل، ما كان أحد ممن عرفوها في الماضي يجرؤ على التنبوء به آنذاك. فمما رأيت كان هناك القليل مما يوحي للمرء بالتفاؤل. ولكن، وعلى أي حال، لايستطيع المرء أن يرى شيئاً كثيراً في رحلة استمتاع.

لقد كان مضيفيّ في كرمنشاه أخوان، محمد إسماعيل ومحمد تقي، من عائلة نظام. ولم يعرف كرمهما وعطفهما حداًّ. فحق لي أن أكون شاكراً لهما لاستضافتهما شخصاً أجنبيّاً تماماً عنهما بناءً على توصية من أصدقاء نائين، ومعاملته كواحد منهم في حياتهم اليومية، العادية البسيطة. لقد كانا تاجرين بحجم كبير نوعاً ما. ولقد تجولت في المدينة وما جاورها، برفقة أحدهما، أو بمفردي، بما شفى غليلي؛ وفي المساء كنت أجلس معهما، نشرب الشاي أو نأكل الخيار ونحن نناقش شؤون دنياهما ودنياي. وفي مناسبات عدة زرت حاكمهما المحلي، ثقة الملك، الذي كان راغباً جداًّ في سماع آخر أخبار تطورات الأحداث في العراق، التي كان يدور عنها في المرتفعات الفارسية روايات غامضة وغير مؤكدة. ومن بين من قابلت أيضاً كان أخوان من أسرة يهودية (ششوة) - تاجران أيضاً كمضيفي - وناجحان بالقدر الكافي، وإن كانا فيما يبدو أكثر قلقاً من العناصر المسلمة لغياب الجيش البريطاني الذي كان مطمئناً لهما، وواعداً لهما بمستقبل أكثر إشراقاً مما يقدرون على التطلع إليه الآن بأي اطمئنان.

وهكذا مضى وقتي بمتعة رائعة. وكان ذلك في الثالث والعشرين من يوليو حين قررت أن أشرع في المرحلة الثانية من رحلتي، بعد شعوري بأنني قد عرفت الكثير عن كرمنشاه، وبدون إغراء بأن أكتب كتاباً عنها. وكان السائق الأرمني نفسه، والسيارة نفسها، اللذان كانا قد جاءا بي إلى هنا، جاهزين لنقلي إلى هناك. ولم يطل الزمن قبل توديعي مضيفي الوداع النهائي، وركبت السيارة، بمتاعي البسيط. وسار كل شيء على ما يرام حتى وصلنا سري بل، نقطة دفع رسوم العبور على نهر قره سو، حيث طلبوا منا دفع الرسوم المقررة.

لقد كان الطلب نظاميّاً. ولكن مثل هذه الأشياء لاتؤخذ كأمر مفروغ منه في فارس، ولقد كانت فرصة طيبة على الأقل لدرس مجاني في اللغة الفارسية. فرفضت الطلب موضحاً أنه ما دام الطريق قد بناه المال والعمالة البريطانيان، فإنه لمن غير الكريم من الحكومة الفارسية الإصرار على دفع الموظفين البريطانيين، المسافرين في سياحة، لرسوم الطريق. ثم حاججته بقولي إنه سيكون عملاً رائعاً أن يعفى كل المسافرين البريطانيين، وفي كل الأوقات، من مثل هذه الرسوم، تقديراً للهدية، التي أسهموا فيها كدافعي ضرائب بريطانيين. وبدا كأن رده على ذلك كان أن قوانين الماذيين والفرس أقدم من أن تضع في حسابها مثل هذه الاعتبارات الحديثة. فدفعت له مبلغ ١٠٣ كرانات[(١)]، خمس وعشرون منها غطت تكاليفي وتكاليف خادمي واسمه إسماعيل، بينما الباقي وقدره ثمان وسبعون كانت أجرة السيارة ومحتوياتها وكذلك أجرة قائد السيارة. وتسلمت وصلاً بالمبلغ، كان الشيء الوحيد المفهوم على الورقة رقم ١٠٣ - والبقية كانت بالروسية !.

لقد افترضت أن ذلك كان فعلاً وصلاً بمبلغ يبرر مرورنا بالبوابة. ولكن قبل أن يحدث هذا، ظهرت الحكومة الفارسية في زي آخر - شرطيّاً - يعترض حقنا في المرور. لقد كان رجلاً حنكته التجربة، مسنّاً، جافّاً في أسلوبه، صريحاً في كلامه، يبدو عليه تصميمه الشديد على تأديته واجبه مهما يكن من أمر. فقال، أنه لا أحد مسموح له بتجاوز تلك البقعة بالتحديد من غير تصريح من الشرطة. لذا، فعلي ألا أفعل ذلك، وأن أرجع إلى كرمنشاه لإحضار تصريح أو البقاء حيثما كنت - أيهما اخترت. فحاولنا إقناعه، بلا جدوى؛

---

(١) الكران يساوي ٤ بنسات (المؤلف). بالجنيه الإسترليني آنذاك ٢٤٠ (بنسًا). (المترجم).

ولجأنا لكرامة بريطانيا العظمى، بلا جدوى؛ وبناءً على زياراتي لثقة المُلك Sigat ul Mulk، أسررت له بأني صديق حميم للحاكم. ولكن الرجل ظل في عناده. فجربت لغتي الفارسية مع بعض الإساءة للحكومة الفارسية وأساليبها في المضايقة. فلم يؤثر فيه ذلك بشيء، لكن حارس البوابة بدأ يضعف. لقد كانت أوامره أن يرفع حاجز البوابة عند دفع الرسوم المقررة. وقال إنه سيفعل ذلك، ففعل. فدخلنا لنجد قبضة القانون تسد طريقنا في الجانب الآخر. ثم تجادلنا مرة ثانية، بأصوات تعلو وتعلو، وكله بلا جدوى. قلت له: حسناً، سأعود ولكن عليك إعادة رسوم العبور لأنك ترفض السماح لنا بالمرور. لكن حارس البوابة كانت لديه أوامر صريحة بألا يفرط في أي مبلغ يستلمه أثناء قيامه بواجبه. فقد رفع الحاجز. وفيما يتعلق باختصاصه فإنه بإمكاني العبور. فأفعال الشرطة ليست من شؤونه. كانت تلك هي العقبة الأخيرة. فنزلت إلى مستوى الإساءة البذيئة، والتهديدات الشديدة بأني سأبلغ الأمر لصديقي الحاكم ليصب جام غضبه على رأسيهما معاً. وبذلك أمرت السائق أن يدور لنرجع. وبصرير الترس وهدير الماكينة رجعنا للخلف لندور. فتقدم نحونا الشرطي، منتشياً بانتصاره. وكنت على وشك أن أصب مزيداً من اللعنات على رأسه حين قال: " لا بأس يمكنك المرور الآن ". وفي مرورنا ابتسمت ابتسامة عذبة لجندي آخر كان يتابع الأحداث، لعله يتساءل متى سينادى ليعتقلني، فغمز لي بعينه. لقد كان صعباً نوعاً ما فهم الواقعة. لقد فسر لي السائق الأمر بأن الشرطي لعله كان مأموراً باعتراض مجرم ما يعتقد أنه سيمر بذلك الطريق، وأنه أوشك أن يرتكب جريمة بخطأ في التعرف.

إن أسوأ ما في مثل هذه الأخطاء أنه يستغرق قدراً كبيراً من الوقت. ربما كان

الرجل يرمي إلى عطية - وإن كان أسلوبه مخادعاً نوعاً ما. لقد خطر لي إن كان موظف بريطاني يعامل بهذه القسوة - لم يزل بكرمنشاه بقية باقية من التقدير للهيبة البريطانية - فإن ذلك طالع شؤم للسكان، فرساً كانوا أم يهوداً، وبخاصة الأخيرين، للاعتقاد بأن كل اليهود أثرياء جداً. فانطلقنا الآن، وعلى جانبي الطريق صفان من التلال الجرداء الكئيبة التي أحرقتها أشعة الشمس - سيراً بلا نهاية، مخترقين قرى وحقولاً مزروعة أو مارين بها، حتى وصلنا القرى التي يسقيها سيل قام آسياب، أحد روافد قره سو. وخلفها جئنا قرية وخان البستان الكبير حيث يوجد فندق صغير أيضاً لإقامة السياح الذين يأتون لزيارة النقش المشهور للملك العظيم داريوس، المكتوب بثلاث لغات. إنه لأثر مثير للإعجاب حقّاً، يبلغه المرء بصعود شاق لجانب التل، الذي انتشرت فيه الجلاميد، حتى يصل الصفحة الناعمة للصخر حيث نحت النقش. وهناك كان، راسخاً على مر الدهور، ينادي بعظمة الملك، وإن كان الزمن والجو، لا يزالان يمحوان ببطء وثقة، ما كان مقدراً له أن يكون سجلاً خالداً. ولاشك أنه، وإلى حد ما، سيظل مقروءاً لقرون أخرى قادمة. ولحسن الحظ، وللجهود المخلصة لرولنسون، فإن نصه سيخلد طيلة الزمن في مطبوعات أسرع فناء من الحجارة، ولكنها أسهل في التخليد بالنسخ المتكرر جيلاً بعد جيل، إلى أن تجرف الحضارة نفسها، التي تفتخر بمثل هذه الجهود، إلى طي النسيان طامة ما. ويبدو أن سيل قام آسياب يأتي من جوف تلك الجبال نفسها التي تحتفظ بهذا السجل من الماضي. وتبدو جنباتها الرسوبية مستحيلة التسلق، لكن قرية البستان أنجبت جنساً من المرشدين، يمتعون الزوار بعروض مدهشة، بتسلق لصفحة الصخر التي تبدو عمودية. لقد تعلمت أصابع أيديهم وأرجلهم كيفية الاستفادة من نتوءات وفجوات في وجه الصخر لا تكاد تراها العين.

ويتجاوز الطريق النقوش ليدخل وادياً على جانبيه تلال وجبال حتى يصل صحنه، وهي منطقة مأهولة مزدهرة بها حدائق وبساتين واسعة. لقد علمت أن هناك نقوشاً أخرى في هذه الأرجاء، ولكن استفساراتي من الزراع لم تهدني إليها، وقطعنا رحلتنا لفترة نصف ساعة للتجول بين البساتين. ورافقني في تجوالي شيخ عجوز وولداه الصغيران، واشتريت تفاحاً وبرقوقاً من أشجارهم، وبعض العنب أيضاً، خالياً من البذور على مستوى عالٍ من الجودة. وقال الشيخ: " هل صحيح أن القوات البريطانية عائدة إلى فارس؟ فقد قيل لي إنهم قد وصلوا الحدود فعلاً ". فأكدت له أن لا صحة لمثل هذه الشائعات. فعبر عن حسرته لذلك، وقال: " إن الإنجليز أناس طيبون، كانوا يشترون مني الفاكهة بكميات كبيرة ".

لقد فشلت الجهود الجبارة لوصول كنقاور قبل غروب الشمس. وكان الوقت وقت الغسق حين وصلنا السلسلة الحتمية لحاجز دفع الرسوم وشاهدنا الأطلال الحجرية الضخمة لمعبدها القديم. لقد أكد لي القنصل البريطاني في كرمنشاه أنه لاينبغي علي الشعور بوخز الضمير في الاستفادة من كرم الحاكم المحلي. وبالرغم من ذلك، فإنني أمرت السائق بشيء من الرهبة ليلف ويدخل البوابة الفخمة لضيعته الرائعة. فكان ذلك كهبوط غير معلن على مالك تشاتسورث أو أي مقر لدوق من الدوقات في إنجلترا. ولكن وجه الشبه ينتهي هنا. ففي مدخل الصالة أحيطت سيارتي المستأجرة سيئة السمعة بخدم اهتموا بها، وعاملوها بالاهتمام الذي تستحقه سيارة رولز رويس جاءت من المحطة بضيف مكرم طال انتظاره. ومن بين الخدم ظهر أغا عبد الله خان، الأخ الأصغر للحاكم، الذي رحب بي بحفاوة بالغة، وبسرعة رفع عن نفسي

الحرج. وبعد ذلك، وبلا مزيد من الشكليات، قادني وسط الحديقة إلى بيت صيفي بديع غير مسقوف في الطرف النائي من طريق قصير على جانبيه الصفصاف والحور. وهناك وجدت الحاكم نفسه، أغا فرج الله خان، وتم تقديمي له. وبعد لحظات قصيرة من جسارتي باقتحام قائمي البوابة العظيمين وجدت نفسي في علاقة حميمة مع سليلي النبلاء الفرس هذين، اللذين لم أرهما من قبل - وإن بدا لي كأني عرفتهما منذ بدء الخليقة. إن ظروف الحياة الأوربية قد جعلت نظام الحصص التموينية شيئاً حتمياً بدلاً من فضيلة الكرم، ولم يعد المسافر العابر يجد الباب المفتوح أكثر مما تجده التجارة بين الأمم. لكن الجو الألطف في الشرق كان أكثر ملاءمة لنبات محلي لم تكن به حاجة لأن ينافس محصولات أخرى، أفيد منه، في رعاية الراعي له. فهو هنا، وبكل تأكيد، ينمو سنوياً بغزارة مدارية - وما من مكان ينمو فيه بأغزر مما ينمو في فارس، حيث الطبيعة أكثر ملاءمة مما في الجزيرة العربية، بمياهها الوفيرة وحدائقها المزدهرة.

لقد كان بين الأخوين اختلافات واضحة تماماً. فالأخ الأصغر أقصر وأمتن بنية كمن كرس حياته للرياضات الرجولية - الحرب والصيد، أما الحاكم نفسه، وإن كان مثله شغوفاً بالاتجاهات نفسها، فإنه كان أطول وأدق عوداً، وأهدأ في مظهره مع شيء من التشويه لمرض في العين يعاني منه لسنوات طويلة. إن اعتذاري الطويل باقتحام خلوتهما، متطفلاً وبلا إنذار، صرفاه بتأكيداتهما أني ما كنت سأسعدهما أكثر مما فعلت بجلب ذلك التنويع في حياة عزلتهما. وبعد أن انضم إلينا شاب متعلم من همذان، ظللنا نناقش شؤون العالم ونحن نتناول المرطبات والشاي والمشمش والخيار - حتى أعلن عن العشاء. وكان بسيطاً،

ولكنه كان طعاماً مكوناً من الأرز، واللحم، والخضر والفاكهة على الطريقة الفارسية.

واستجابة لطلبي أذن لي بالنوم في البيت الصيفي. وقبل الافتراق لليلة أصر مضيفاي على قضائي اليوم التالي ضيفاً عندهما ووعدا بترتيب رحلة صيد لأرى شيئاً من الريف. وفي الصباح التالي أعطيت زوجاً من القيفا (أحذية أسفلها من الحبل)، وبندقية، وحزاماً عريضاً للرصاص، ورصاصاً، وحصاناً رمادياً جميلاً، مما ربي في الريف، بسرج لسلاح الفرسان البريطاني. وكانت مجموعتنا مكونة من نحو عشرين شخصاً، من بينهم طفلان للحاكم - صبي في الخامسة وصبية في السادسة، ركبا حمارين، يرافقهما الخدم على الأقدام ليحولوا دون سقوطهما. وبعد أن اخترق الموكب أزقة المدينة الضيقة المتعرجة، سائرين في صف، لفوا صاعدين في واد لغدير له خرير حتى قرية قره قوزلو. ثم تفرقنا فوق التلال بحثاً عن الصيد. ولكننا اكتشفنا أن مدير البريد وصديقاً له، اللذين لم يعلما بنية الحاكم صيد هذه الحيوانات المتخفية، كانا قد سبقانا ونجحا في إنذار كل الحيوانات لأميال حولنا. وأثناء ذلك كانا قد اصطادا شاكوراً وسسيّاً، أضفنا إليهما ثلاثة أرانب، تمثل كل حصيلتنا طوال اليوم. وهذه كلها صادها عم للحاكم، كان قد ركب ولحق بنا عندما سمع برحلتنا. ولأننا كنا جميعاً قد خرجنا خاليي الوفاض على سفوح التلال، فإننا قررنا العودة إلى القره قوزلو العليا، وهي منطقة مأهولة ساحرة في أعلى الوادي نفسه وسط كثير من الحور والصفصاف والأشجار الأخرى والأعشاب. وكان الخدم قد سبقونا إلى هنالك بكل الأغراض الضرورية لإعداد مأدبة. وهناك استقرينا لقضاء معظم اليوم، متكئين على سجاد مفروش على بقعة منظفة

حسنة الظل وسط الحور والصفصاف على ضفة نهير جار عرضه نحو عشرين قدماً. لقد كان مكاناً نموذجيّاً لرحلة، كما يتصوره المرء. وتسلينا بالرمي في أهداف نصبت على الضفة المقابلة، كما رمى البعض ليصيب الأسماك في النهير، بلا نجاح يذكر، ذلك لأن أكياسهم اقتصرت على سمكتين أو ثلاث، صغيرات، أعطيت للطفلين ليتسليا بها. لقد صعقت صدمات الرصاص الأسماك فوراً، لذلك جمعها الخدم وهي طافية على السطح. وكان الطفلان مشاكسين ويتعاركان، ولم يؤنبهما الكبار، الذين تجاهلا توجيهاتهم، لا أوامرهم، بلا عقاب. وفي مرة من المرات تعاركا حول حافظة (ترمس)، فازت بها البنت ولكن بلطمة على الوجه من أخيها الأصغر، الذي سرعان ما غرق في بحر من الدموع - لا أسفاً للطمه بنتاً، وإنما غضباً لخسارته لب المعركة. فتمت تهدئته فوراً حتى جفت دموعه، واستعطفت البنت حتى تنازلت عن الحافظة (الترمس).

وأثناء ذلك تناولنا المشمش، والعنب والخيار حتى قنعنا، والشاي من السماورات[١] الصفراء، حتى حان وقت غداء شهي من لحم الغنم، والدجاج والأرز، ومختلف أنواع الخضر، والمرق لذيذ الطعم، والدّوغ (اللبن) المثلج لغسل كل ذلك. والثلج يخزن في حفر خاصة في فصل الشتاء، وبكميات كبيرة تكفي لأن يستمر خلال كل فصل الصيف. وبعد الغداء جاء كل من عبدالله وعمه، الحاج علي محمد، بمرجام، وبدآ يتباريان في إصابة تفاحات نصبت على أفرع قريبة، وكانت رهاناتهما من الرصاص. ففي مرة من المرات، مثلاً، أصاب العم تفاحته إصابة مباشرة ولكنه لم يزحزحها عن

(١) كلمة سماور، التي استخدمها فيلبي هنا روسية معناها «غلاية» ماء. (المترجم).

موضعها، فطعن ابن أخيه في ادعائه. ولكني لم أتردد في القضاء للعم لإصابة واضحة كتلك. لكن محاولاتي الرمي بالمرجام لم تلق شيئاً سوى الفشل. إن علي محمد، وإن كان عم الآخرين، كان رجلاً لم يتجاوز الخامسة والأربعين، ورياضيّاً متميزاً. ولقد كانت إحدى حركاته مدهشة حقّاً. فبعد أن نصب تفاحة على مسافة أطلق عليها بضع رصاصات، وبندقيته مقلوبة. وقد استند عقبها على جبهته من غير وقاية لها. ولعله اعتمد اعتماداً تامّاً على قوة ذراعيه في امتصاص صدمة كانت ستكون رهيبة لولاهما.

لقد استمر عرض المهارات في التصويب طيلة رحلة العودة، ونحن نتبع آثار الماعز على السفوح الصعبة من التلال. وكان المتنافسون، تخب بهم الأفراس، يطلقون الرصاص من هذا الكتف أو ذاك عفويّاً على صخور في الطريق بنتائج مذهلة وإن ندر إصابتهم الأهداف فعلاً. ولابد أن هذا كان هو أسلوبهم في المعارك، وكانت خيولهم مدربة لهذا الغرض تدريباً يعجب المرء. وكان معظمها من سلالات فارسية - عربية، كما كان من بينها ما هو عربي أصيل. ولم أر أيّاً منها يجفل من طلقة. لكن الأمر اختلف مع الكلبين اللذين كانا معنا. فمع كل طلقة كانا يعدوان في كل مكان، ينبحان بشدة، مما يعني أنهما لم يدربا على العدو خلف الركب. وكان الوقت بعد الغروب بقليل حين وصلنا كنقاور. ولما كنت في أول الركب، جذبت لجام فرسي ليتولى الحاكم قيادة الركب مخترقاً المدينة. لكنه أصر على تقدمي الركب، واضطررت للرضوخ له في تلك المنافسة في الأدب. وختم العشاء والسرير يوماً لا ينسى. إني أستعيد ذكرى تلك التجربة للحياة العائلية اليومية للنبلاء الفرس كإحدى السمات المدهشة لعطلة فارسية ممتعة.

إن حكم كنقاور، ولكل الأسباب العملية لا النظرية، كان وراثة في أسرة مضيفي، التي شغلت المنصب لمئة وخمسين سنة، بانقطاعات يسيرة من حين لآخر، وكما أخبراني، هي ست سنوات فقط في مجموعها. وكان المنصب يعد تابعاً لحاكم كرمنشاه فقط حين يكون الحاكم فيها أميراً. عدا ذلك، وكما هو الحال الآن، فإن الحاكم يتعامل مع الحكومة المركزية في طهران مباشرة. وينحدر مضيفاي في الأصل من قبيلة أفشار الأفغانية. وكان رأس العائلة - آنذاك أغا أمان الله، والد مضيفي، الذي ترك هموم الإدارة الإقليمية لابنه الأكبر وأصبح يعيش عيشة ملاك الأراضي الريفية - يحمل اللقب الوراثي الفريد ساري أرسلان (الأسد الأصفر). وكان الشيخ الكبير قد تلقى قبل شهور قليلة صدمة مؤلمة لانتحار أصغر أبنائه، الذي نقل جثمانه، بعد وساطة من السلطات السياسية والإدارية البريطانية، إلى النجف لدفنه من دون الإجراءات الصحية، التي تقضي بتأخير الجثمان لفترة كافية من الزمن حتى يتحلل تحللاً تاماً قبل نقله إلى بلاد الرافدين.

وبالرغم من استمتاع هذه العائلة بالمتع الرجولية الدنيوية، فإنها تفتخر بولائها الراسخ للمذهب الشيعي ومبادئه. فمثلها مثل سائر الأسر الشيعية الكبرى، لها مدفن عائلي موروث في وادي النجف من وادي السلام. وقريباً جداً، حصلت على مقبرة في جوار مشهد الإمام علي، دفن فيها المنتحر الشاب، وبذلك، ولسعادة والديه، يرقد في أقدس الأماكن عند المذهب الشيعي. وبحصول الشيخ العجوز على هذا المكان المتميز فإنه مدين بالفضل لعالم شبه عربي اسمه محمد سعيد، له بعض النفوذ لدى السلطات في النجف، وكان آنذاك مقيماً في كنقاور معلماً لأولاد الحاكم. لقد حدثني كثيراً

عن الخدمات القيمة التي كان قد قدمها، كجاسوس، لليشمان، وضباط آخرين في إدارة بلاد الرافدين. ففي إحدى المناسبات أسرّ إليّ قائلاً إنه تلقى هبة من خمسة ريالات لخدمات - لعلها كانت إيماءة، تجاهلتها، بأن كل الإسهامات ستتقبل قبولاً حسناً.

وقبل مغادرتي كنقاور زرت معبد النار العظيم (آتشقد) السابق ذكره. ولكي أصل إليه كان علي اختراق السوق، الذي كان مسقوفاً بأغصان الأشجار لمنع الشمس، ويتنافس فيه اليهود والتجار المحليون في تجارة هزيلة من منتجات الهند ومانشستر، استوردت عن طريق بغداد وكرمنشاه. إن ثلاثة من أعمدة المعبد، وجزءاً من سوره الخارجي المبني من حجارة ضخمة لا تزال في مواضعها، قد أصبحت جزءاً من مبنى ضخم من اللبن في آخر السوق. إن قدراً كبيراً مما تبقى من السور لايزال يرى، وإن لحق به ضرر كبير من نهب البناة المتأخرين له. وبالإضافة إلى هذه الآثار القائمة، هناك أعمدة ساقطة وتيجان أعمدة يراها المرء. ومن الأخيرة هذه، تم تجويف أحدها ليصبح هاوناً لطحن الحبوب. ولا بد أن المعبد كان بناءً ذا أهمية كبرى في الأيام الخوالي. فلا يعرف شيء عن أصله، إلا أن الروايات المحلية تنسبه إلى أب شكور. وسواء أكان هو نمرود أم كخسرو، أم شخصاً آخر، فإن ذلك لايهم في شيء. وكائناً من كان، فإنه كانت له ابنة مصابة بعادة لا علاج لها، هي نومها مفتوحة الفم. وبناءً على نصيحة الأطباء أو العرافين سافر البطل بابنته بحثاً عن العلاج. فأيما مكان تعود فيه البنت إلى النوم العادي سيتخذه مقرّاً دائماً، مفسراً العلاج بأنه علامة واضحة للقدر الإلهي، ومخلداً المعجزة ببناء معبد. وهكذا، جاء في أسفاره إلى كنقاور، ورقدت البنت لتنام أمام عيني والدها اللتين كانتا تراقبانها دائماً.

وفجأة وقعت في فمها الفاغر ذبابة من ذباب كنقاور، فحدثت المعجزة. فقد أطبقت شفتاها بصوت عال على المتطفلة، ونامت قريرة العين لما بعد ذلك من الزمان، كما يدلل عليه بناء المعبد بالدليل القاطع. وتصور المرض رواية أخرى أكثر وقاراً بأنه داء بالعينين، شفاه مناخ كنقاور اللطيف. وفي كلتا الحالتين فإن المعبد بني شكراً لمعجزة.

وهكذا انتهت زيارة لطيفة. وودعني مضيفاي عند بوابة الحديقة، بعد أن ألزماني بوعد بزيارتهما في طريق عودتي - وهو وعد لم أنجزه لعذر نسيته - وانطلقنا في الطريق إلى همذان. وكان القسم الأول من طريقنا يخترق الوادي الخصيب الواسع لكنقاور، الذي تتفرق فيه قرى كثيفة حتى سفوح جبل ألوند. وبعد وقفة قصيرة لكأس من الشاي في حسن آباد، جئنا إلى أسعد آباد، حيث يبدأ الطريق في التعرج في صعود حاد على صفحة الجبل. وكانت السيارة تتوقف بين الحين والآخر لتلتقط أنفاسها - ذلك الصعود هو كل ما في وسعها وهي في تنفسها العالي. ولكننا في نهاية الأمر، بلغنا قمة الممر (٧٣٠٠ قدم فوق سطح البحر)، ونظرنا أسفلنا إلى سهل اكباتان القديمة (همذان الحالية). فمن ناحية يدنا اليمنى وقف ألوند بوقار فوق العالم، بضعة آلاف من الأقدام فوقنا. وخلفنا وأسفلنا كانت أسعد آباد بكومتها العالية - لاشك أنها مدفن قرية ما قديمة. ثم واصلنا رحلتنا، نجري بيسر هابطين الطريق المتعرج المؤدي إلى المدينة.

في همذان مستعمرة يهودية كبيرة. ومضيفي، الذي جئته بخطابات تعريف من بغداد، كان داود عبودي حزقيال حاييم، ومن ذلك الجنس - رجل لطيف كريم، أسهم هو وخدمه وأقرباؤه إسهاماً كبيراً في متعة إقامتي هنا. وكانت إقامتي، في جملتها، في همذان أسبوعين أو أكثر قليلاً. ولأن مضيفي كان

تاجراً، فإنه غالباً ما يكون مشغولاً بشؤون تجارته المزدهرة خلال النهار. فكنت حرّاً للتجول كما شئت، أحياناً بمفردي، وأحياناً أخرى بمصاحبة قريب أو خادم من خدم الدار. وفي المساء كنا نجتمع في الفناء البديع لدار داود، مع أصدقائه من اليهود أو المسلمين، ونتسامر في شؤون العالم مع بعض المنعشات - أجود العنب مع الخيار بالملح - والشاي حتى موعد العشاء. ويبدو أن المدينة بعد ذلك بقليل تخلد إلى النوم كمقابل للاستيقاظ المبكر في صباح اليوم التالي. ولكن، لعل أبهج ما كان في تلك الأيام كان ذلك الصباح الباكر حين نتجمع في الفناء لشرب الشاي ولإفطار بسيط، ونناقش برنامج اليوم أو مواضيع أخرى ذات اهتمام محلي. وبعد ذلك أنطلق في جولة زيارات في المدينة أو لرحلة في المنطقة المجاورة. ويبدو أن المجموعة اليهودية، ومضيفي بصفة خاصة، كانت على علاقة طيبة مع جيرانها المسلمين؛ ولقد قابلت كل التجار والموظفين الكبار.

ولعل أجدر العناصر بالاهتمام مجموعة صغيرة من البهائيين، تابعي عقيدة انتقائية وعالمية كان لها انتشار كبير في فارس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولكنها مؤخراً لم تعد جذابة كما كانت، وأجبرتها الظروف على العمل سريّاً. إن يزد وكرمان، لاتزالان، في ظني، أهم قاعدتين لهذه الديانة في فارس اليوم. وفي قزوين قدِّر لي أن أجد جماعة منظمة جداً من البهائيين، بفضل خطابات التعريف إلى قادتها من أصدقائي الهمذانيين. وسيكون لدي المزيد لأقوله عن هذا المذهب فيما يتعلق بزيارتي إلى ذلك المكان. وفي الوقت نفسه يبدو أن يهود همذان كانوا على علاقة طيبة مع الفرع المحلي للبهائيين، الذين كان بعضهم في اعتقادي أعضاء فعلاً، وإن كان البرود الشيعي والرسمي نحو هذا المذهب يناهض كل إعلان عن عضويته ونشاطاته.

فكانوا كجماعة من الأصدقاء تؤدي أعمالها التجارية والاجتماعية بهدوء اعتقاداً راسخاً منها أن الله سيقضي يوماً ما بتوحيد كل الطوائف والعقائد المتنافرة، التي تدعي رضاه الخاص.

منذ انسحاب القوات البريطانية، التي كانت بطبيعة الحال قد وجدت في همذان مركزاً مهمّاً ومناسباً للاتصال بمعظم قزوين، فإن المجموعات الأوربية انكمشت عائدة لأحجامها الأصلية غير الكبيرة. ولكن كانت هناك جماعة أوربية، محورها القنصلية البريطانية، وكذلك فرع للبنك الإمبراطوري، إلى جانب مجموعة أمريكية مسئولة عن تطوير صناعة السجاد والأبسطة وتحديثها. لقد كانوا يبذلون جهداً محسوساً ليحولوا دون انحطاط صناعة السجاد وابتذالها في البلاد في الظروف الراهنة. وتقدم مصانعهم المنتشرة في مختلف أنحاء فارس فرصاً طيبة للعمل والمعيشة للفتيات والنساء، اللائي كن في أيام ما قبل الطوفان، قبل أقل من عشرين سنة، يمارسن مهمتهن بشروط حجاب صارم. لذا فإن زيارة المصنع كانت مكرمة نادرة. وما رأيته من عمل وظروف أكد لي أن السيد إدواردز ومساعديه كانوا يقومون بعمل بارز ومهم، بكل حماس المبشرين. أما ما حدث لهذه المنظمة منذ تلك الأيام، فلا أعلمه، ولكن لا أعتقد أن أحداً ما سيدحض القول إن فارس لم تعد تحتل الصدارة، التي كانت تحتلها من قبل، من بين صانعي السجاد في العالم.

إن أهم أثر في همذان، التي لا تعد مدينة بعمارة ذات صفة بارزة، هو القبر الأصلي لإستر ومورديكاي في الميدان الرئيس. ولاشك أن كثيرين قد وصفوه، لذا فإني لن أحاول مناقشة تفاصيله، أكثر من وصفي له بأنه كبناء، كان أكثر جاذبية من كونه عظيماً. ومثله مثل سائر كل الأشياء في المدينة يطغى

عليه أثر آخر لم تشيده يد الإنسان - هو مخروط ألوند العتيد، الذي ترتفع قمته لألف ومئة قدم فوق سطح البحر. وإن لم أكن متسلق جبال في أي معنى من معاني الكلمة، فإني لا أطيق رؤية مكان عال فوق سطح الأرض بلا رغبة عارمة في رؤية سطح الأرض من ذروته. لقد أثَّر ألوند عليّ بالطريقة نفسها، ولم أجد مشقة في إشباع رغبتي. وبعد حصولي على مرشد بمساعدة داود، انطلقت مشياً لأخترق الحواجز الخارجية للجبل الذي ينحدر حتى أطراف المدينة تقريباً. ولم تكن هناك صعوبة تذكر في صعود القمة نفسها، التي تعطي المرء مناظر بديعة وشاملة لكل الأراضي الجبلية المحيطة بنا.

وهنا وهناك " من كهوف التلال المتحدرة " تدفقت ينابيع متلألئة من نوافيرها العالية، لتنساب هابطة في مراعٍ خضراء غارقة في بقع الماء كالتي يجدها المرء في جبال ويلز وأسكتلندة. إن ألوند من الجرانيت، الغني بالميكا[1]، تدور ذراته الذهبية في مياه الينبوع، عاكسة أشعة الشمس. وفي بعض الفجوات، المظللة عن أشعة الشمس، لم تزل بعض بقع الثلج قابعة منذ الشتاء المنسي. فمن القمة نظرت إلى مشهد رائع لسهلي كنقاور وهمذان على الجانبين. فالأول منهما، يمتد راجعاً إلى الوراء، بين جانبيه الوعرين، في البعد، حيث ترقد كرمنشاه، غير المرئية، في الوادي على الجانب القريب من الحاجز النهائي الذي يحف سهل الفرات. وسهل همذان، الواقع في اتجاه شمالي غربي وجنوبي شرقي، يمتد من أسفل ألوند إلى الحاجز المنخفض من التلال، الذي يفصله من حوض قزوين. وإلى يسارنا جبال كردستان، المنسابة إلى مسافة بعيدة، تطبق بالسهل، بينما كانت هناك جبال أخرى إلى يميننا،

(١) الميكا: مجموعة من المعادن تمتاز بوجود انفصام شديد يسهل انفصالها إلى شرائح متناهية الرقة. وهي مادة أساسية في الصناعات الكهربية. الشنطي، الرواسب المعدنية في المملكة العربية السعودية. ط١، ١٤١٦هـ، ص٢٢٩. (المراجعون).

تحتضن مرتفعات سلطان آباد وتحجب الصحراء الفارسية عن عيوننا. وتقسم سهل همذان إلى قسمين سلسلة منخفضة في وسطه، ممتدة شرقاً وغرباً. وبهبوطنا بطريق آخر، أشد انحداراً نوعاً ما، ارتحنا لفترة في قرية ألوند في أسفل الجبل لنشرب الشاي مع رجال نقطة الشرطة المحلية الكرماء، قبل رجوعنا إلى ديارنا.

ولم أغادر همذان إلا في العاشر من أغسطس. وقبل ذلك التاريخ بيومين كنت مشغولاً بمحاولة مضنية ومسلية للحصول على وسيلة ما للمواصلات. لقد اكتسب السائق وصاحب الجراج المعاصران كل سيئات أصحاب البغال القدامى دون اكتساب لأية فضيلة من فضائلهم. لقد كان الأمر، وفي كل الأحوال، أمر مساومة شديدة حتى وصول اتفاق من أي نوع. بل وعند بلوغ تلك المرحلة لا تنتهي المتاعب، إذ في أغلب الأوقات، يندم الطرف الآخر على الشروط السهلة التي اتفق عليها بعد نصف ساعة فقط من توقيعه العقد وقبضه مبلغاً صغيراً كدفعة أولى. وقد تفضل داود مخلصاً بإراحتي من كل هذه المشكلات بقيامه بنفسه بهذه الإجراءات. ففي اليوم جاء برجل رضي أن ينقلني إلى قزوين بثمانين توماناً[1]. ولكنه فات عليه اكتشاف أن السيارة غير صالحة لأي عمل بعد ذلك. ولما اكتشف سومخ[2]، الخادم المخلص لداود، ذلك، حول مقدم الدفع إلى مثوسلاح[3]، الذي قبل القيام بالمهمة بتسعين توماناً. ولكنه حينما رآني وملامحي الطيبة، طلب دفع ثلثي المبلغ مقدماً. وكان ذلك غير معقول. ولما عبرت عن رأيي بهذا المعنى، رمى على الأرض التومانات

(١) التومان يساوي ثلاثة شلنات إنجليزية ونصف الشلن. (المؤلف). وهو يساوي خمس الجنيه الإسترليني آنذاك. (المترجم).

(٢) رسم الاسم كما ورد في الأصل الإنجليزي. (المترجم).

(٣) رسم الاسم كما ورد في الأصل الإنجليزي. (المترجم).

الخمسة التي كان قد قبضها من سومخ، وانصرف يدق الأرض برجليه غضباً. فأشرت على مضيفي بأنه، ما دام قد لقي ما لقي من المتاعب، فإني سأتولى الأمر بنفسي. وبعد وقت قصير جاء إسماعيل بسائق أرمني، مالك لسيارته، اسمه أنطنيان، مستعد لنقلي إلى طهران بمئة وخمسة وأربعين توماناً، أدفع له منها خمسة وأربعين مقدماً، والباقي في طهران، وعليه كل نفقات السيارة في الرحلة، بما في ذلك رسوم الطريق. وكان يعلم أني أنوي قضاء أيام في قزوين، فأراد أن يضمن في اتفاقنا فقرة تجبرني على دفع نفقاته خلال إقامتنا هناك. وعلى هذه النقطة وافقت فوراً، شريطة أن يدفع نفقة فندقي وأي أشياء أخرى لكل يوم نقضيه في الطريق لعطل في سيارته. وبما أن المسافة يمكن أن تقطعها أية سيارة مناسبة في يومين، وأني كنت أنوي قضاء ثلاثة أيام في قزوين، فإن العرض المقدم كان أجزى له، ولكنه لم يرض بأي شيء من ذلك، لمعرفته بسيارته بطبيعة الحال، فتراضينا بأن نسكت عن النفقات في قزوين. فأعطيته التومانات الخمسة والأربعين، وانتهى كل شيء على خير.

وفي صباح العاشر، حملت أغراضي إلى ميدان استر وموردیكاي، حيث كانت السيارة في انتظارنا. وبعد توديعي داود وسكرتيره صالح بامتنان، كنت مستعداً للسفر، ولكن أنطنيان تذكر أنه لم يسدد بعض ديونه وألا مال معه يسددها به. ولم يكن باستطاعتي منعه من خلق مزيد من التأخير بمحاولة في الدقيقة الأخيرة لتسوية الأمور مع دائنيه (الوهميين)، ولكني رفضت رفضاً باتّاً المساعدة في التسوية ماديّاً. فأصبح مواجهاً بالاختيار بين نقلي في رحلتي وبين رد المبلغ الذي كان قد قبضه مقدماً. ولعجزه عن الثاني لأنه كان قد صرف المال، قرر في حكمة فعل الأول. وبدأ صرير الترس وحملتنا السيارة إلى

السلاسل، حيث كان الناس، بطبيعة الحال، منتظرين لتخليصنا من نقودنا. وعلى أي حال، فقد كان هذا شأن أنطنيان، ولكنه نظر إلي. فنظرت إليه، وأدركت أنه لا مال معه. لقد كان رسم العبور عشرة تومانات. وبما أننا كنا قد بدأنا الرحلة فعلاً، فإني أدركت أنه لامجال للغش. وكبادرة كريمة، أعطيته عشرين توماناً أخرى، من باقي الأجرة. وعند ذلك دفع لصاحب الرسوم، ثم تذكر أنه لا زيت عنده. فبحث في السيارة بلا جدوى عن التنكة التي لم يضعها فيها أصلاً. وفي آخر الأمر كان علينا الرجوع - ميلاً واحداً فقط - ليتمكن من شراء تنكة بدلاً عن الأخرى "الضائعة". وبعد ذلك بدأنا الرحلة فعلاً.

لقد أمضينا خمس ساعات، نتيجة لأعطال ميكانيكية طفيفة، لقطع السهل ذي الخمسين ميلاً ونصل إلى رازان، محطة رسوم الطريق أسفل حاجز التلال الذي يشكل فاصل قزوين - همذان. وهنا قررت التوقف للغداء في حديقة ساحرة ملصقة ببيت دفع الرسوم، حيث تبعني إليها حارس المحطة، الذي لم يقبل عرضي له نصيباً من غدائي، ولكنه أصر على تزويدي بشاي يغسله. لقد كان روسيّاً عاش هو وزوجته - المدرسة السابقة في المدرسة الروسية بقزوين - حياة وحدة، وإن كانت غير تعيسة، في هذه البقعة المظلمة بالجهل، براتب أميري قدره أربعون توماناً في الشهر. لقد كان شخصية معروفة جداً خلال الاحتلال البريطاني، حين كان ضباط الجيش يستخدمون كوخه كاستراحة في رحلات الرماية. إلى جانب ذلك فإنه كان محبّاً للكلاب، ومالكاً لعدد من كلاب الصيد الروسية الراقية، رأيت أحدها، بينما كان آخر قد سرقه جندي عابر، أو كما روى بمسحة من الحزن، شخص كان قد قضى ليلته ضيفاً عليه. ولم أسعد بمقابلة زوجته. ولكنه كان بحق شخصاً جذاباً. وكانت شكواه

الأساسية صعوبة الحصول على أي شيء يستحق الشرب في هذه المناطق المتوحشة. في واقع الأمر لم أمر بتلك البقعة أبداً في رحلة عودتي، إذ إني سلكت الطريق من سلطان آباد إلى همذان. فمن ضيوفه البريطانيين كان قد التقط ثلاثة أو أربعة تعابير رسمية، ومن الفرس نحو العدد نفسه من الكلمات، ولكنه كان يتكلم بلغة روسية ممتازة - اللغة التي لا أعرف منها كلمة واحدة - وتمكنا من التحادث إلى حد ما، في بعضه بمساعدة كاتب فارسي ظهر كأنه يتكلم الروسية بمستوى طيب.

إن مثل هذه المقابلات مع الهائمين في تيار الحياة هي ملح الأسفار عينه. فقد يكون متشرداً على طريق سريع إنجليزي، لا يعرف متى تكون لقمته التالية أو أين يكون مطرحه، ولكنه وفي شجاعة يرجو أن تمد له جماعة في نزهة على حافة الطريق مفاتيح الجنة، أو أوربيّاً منبوذاً في أحراش آسيا، نسيه قومه، ولكنه غير ناسٍ، يسعى جهده، ليحيا حياة كفاف في محيط غريب، بالقدر اليسير الذي يلتقطه من شاطئ بحر خالٍ. وهكذا حدثت نفسي، ونحن نبدأ المرحلة التالية من رحلتنا. وفي مانيان، وهي قرية صغيرة، بدأنا الصعود الفعلي إلى الممر. ومن هذه النقطة فصاعداً أصبحنا في مشكلات لا تنقطع مع السيارة. فقد قمت بكل الصعود سيراً، وقبلها بساعة ونصف الساعة وصلت القمة. لقد كان الوقت قبيل الغروب، ونحن نسير سيراً سهلاً هابطين إلى سلطان بولاق، وهي من سلسلة المحطات نحو نصف ميل أسفل القمة، ومنها إلى آوا، حيث وجدنا كميات هائلة من القمح على مجموعة من الجبال المجاورة معدة للدرس. وفي الهبوط المنحدر، حدثت لنا مغامرة أوشكت أن تنتهي بكارثة. إنني لم أكد أصدق عيني لمنظر إطار كامل لسيارة ينطلق بسرعة

جنونية منحدراً مع الطريق بجوارنا ليهوي إلى حافة الجبل عند منحنى في الطريق. لقد كان أحد إطاراتنا نحن، كان قد انخلع بكامله من إحدى العجلات الخلفية دون أن يحدث الصدمة التي ربما توقعها المرء - ولعل ذلك كان لأن مرور السيارة البطيء والعنيف على رقعة سيئة من الطريق نتج عنه خبط شديد بالقدر الذي جعل أية صدمة إضافية غير محسوسة. فنتج بعض التأخير ريثما أستعيد الإطار الفالت من الأعماق وأعيد حيثما كان في العجلة. وبدا الطريق في الظلام المتزايد أخطر مما يبرر مزيداً من التجارب. لذا قررنا المبيت في آوا، حيث هيأ لي رقيب في الشرطة المحلية غرفة نظيفة علوية في آخر بيت في القرية. أما الأشياء الأخرى - من شاي شربته، وطعام أكلته وسجادة نمت عليها - فما من مأخذ يؤخذ عليها. لقد أخذت الرحلة من همذان عشر ساعات، فكنت متعباً - لذا نمت نوماً طيباً.

وفي اليوم التالي استأنفنا السفر مبكرين هابطين طريقاً سهلاً، ولكنه كان منحدراً، متعرجاً بين الصخور المطلة على وادي كارا رود[1] الضيق الغائر جداً أسفلنا. فعلى جانبينا شمخت الكتل الجرداء من جبال الحجر الرملي في طبقات تكاد تكون عمودية، تعلوها في بعض الأجزاء بطون أفقية من تكوينات لاحقة، تقدر بألفي قدم فوق الوادي، لعلها تعود للمايوسين مثل الصخور الجيرية الحاوية لمتحجرات في سهل همذان. وبالقرب من الطريق لمحت نباتاً متحجراً منحوتاً على جلمود ضخم من الصخر أثقل من أن تحمله السيارة المعانية، وأصلب من أن يلين بسهولة لفلق القطعة التي استحوذت عليها.

---

(١) «النهر الأسود». (المترجم).

وفي الماء الحار، في المناطق الدنيا من الوادي توقفت لبرهة لأتأمل الحمامات والعيون الحارة التي اكتسبت منها القرية اسمها. والمياه الحارة، لا تغلي فعلاً ولكنها حارة بما فيه الكفاية للمستحم صعب الترضية، تنبع في عدة نقاط متخللة مسامات قطعة من الصخر - جيرية فيما يبدو، ولعلها من مادة بركانية أو أية مادة أخرى - نحو مئة قدم في طولها وعشرين قدم في عرضها، ومرتفعة إلى مستوى النهير. والحمَّام مكون من بركة، مساحتها سبعة أقدام مربعة، وعمقها قدمان، مسقوفة للخصوصية، ويخترقها الماء ليجري في قناة كارا رود. والماء في البركتين الأخريين ليس أكثر من دافئ. ولكن المكان كله تعبقه رائحة الكبريت التي تزيد من شدة رائحة النتانة الناتجة عن العادات الصحية السيئة لبعض زوار هذه العيون الصحية المشهورة. وتمخض عزمي على الاستحمام عن رضى باغتسال لمجرد الاغتسال. وكان داود قد أخبرني في همذان بألا أحد يظل في الماء لمدة طويلة بسلام، وأنه في مرة من المرات عانى من تهوره بحالة غيبوبة تصاحبها زرقة في لون بشرته. فذكرني ذلك بتجربة في الجزيرة العربية رواها كارلو غورماني، أحد أوائل الرحالة في شبه الجزيرة العربية، الذي استحم في بركة في صخر، أنقذه منها وهو في حالة خمول مارة من الغجر. ولقد سعيت كثيراً للعثور على تلك البركة، ولكني لم أفلح.

ومن آب قرم يتسع الوادي شيئاً فشيئاً، ثم جئنا دون أن يحس بنا أحد إلى طرف سهل قزوين، المحصور بين السلسلة التي كنا قد عبرناها لتونا وجبال البرز، الأعلى منها في جنبها الشمالي، التي أصبحت ظاهرة جداً الآن وقد احتضنت واحة قزوين في أطرافها. وتصل السلسلتين من الجبال سلسلة معترضة بمحاذاة الطرف الغربي للسهل، تقع في انتفاضة كبيرة منها مدينة زنجان

ومنطقتها. وواضح أن السهل خصب جداً، تفرقت في مساحته الشاسعة قرى كثيرة، بينما ارتفع منه، فوق منحدر على الطرف الغربي من البرز، الطريق المؤدي من قزوين إلى رشت على بحر قزوين. وفي نهاوند، القرية الكبيرة على الطريق، توقفنا لاحتساء كوب من الشاي؛ وبعد ذلك بمسافة، في مفترق الطريق إلى زنجان، توقفنا للغداء في قرية سياه دهان، " القرى السوداء "، حيث لاتزال الأكواخ، المهجورة الخاوية الآن، باقية في منطقة تدريب الجيش البريطاني. وتناولت وجبتي وحيداً في أحدها.

بدأت السيارة الآن تلفظ أنفاسها، تعاني أشد المعاناة حين تسير بترس خفيف في أي طريق سهل. فكنت أركب مرة وأنزل مرة حسب مزاج لحظتها الراهنة، وكانت قطرات من المطر الخفيف التي تتساقط أحياناً تجعل من المشي شيئاً ممتعاً. وعلى بعد خمسة أميال من سلطان آباد نفد وقودنا - وكانت الساعة آنذاك هي السادسة مساءً، وإن لم نحرز سوى تقدم يسير طيلة اليوم. وفي يأس، ظللت أمشي، منعشاً نفسي بخيار كنت قد اشتريته من صبي في بستان على حافة الطريق، حتى وصلت الحاجز في سلطان آباد. وبناءً على نصيحة من الروسيين المسئولين عن محطة المرور، هاتفت السيد غاو، التابع للبنك الإمبريالي في قزوين ليرسل لي بعض الوقود، وجلست أنتظر وصوله. وفي تلك الأثناء كان أنطنيان قد اشترى، على نفقتي، تنكة من الوقود بأربعة عشر توماناً من سيارة مارة، ووصل إلى المحطة في اللحظة التي بدأت أتساءل فيها إن كان الروسيان سيتقبلان فكرة استضافتي تلك الليلة. وبالرغم من الظلام واصلنا رحلتنا أملاً منا في بلوغ قزوين. ولكن في الساعة الثامنة مساءً، بينما كنا نزحف في ترس منخفض، وبستمان فقط يعملان، انهارت الماكينة بقعقعة مخيفة. لقد انتهى

أمر السيارة الآن. فمضى أنطنيان يجر رجليه جراً إلى قزوين، ليرسل إلينا مركبة أو اثنتين لحملنا وأمتعتنا إلى المدينة. فجلسنا، أنا وإسماعيل، على جانب الطريق ننتظر في صبر. وبدأ الجوع يعض في أهم أعضائنا. فبحثت هنا وهناك في كرمة مجاورة فوجدت ثلاثة عناقيد من العنب الحلو، أعطيت واحداً منها لإسماعيل. وبعد أكلها جلسنا حتى جاءت مركبتان تتراجفان وذلك في تمام الساعة التاسعة والنصف. فأخلينا السيارة وتركناها في رعاية فلاح، وعادت المركبتان بأقصى سرعة.

وفي الظلام بدا لنا كأن عبور جسور القنوات واختراق الشوارع الضيقة. ولكننا، بعد نصف ساعة، وصلنا سالمين إلى " طريق الشاه "، وأطلقت تنهيدة ارتياح ونحن ندخل بوابة " الفندق الكبير " بعد خمس عشرة ساعة في الطريق منذ غادرنا آوا.

وبدت قزوين كأنها كانت قد عاشت أياماً أحسن من هذه في وقت ليس بالبعيد. فمن حيث التصميم، لا التنفيذ، فإن مخططها كان رائعاً ويتفوق بكثير على ذلك الذي بهمذان. لكن كل شيء كان يبدو في حالة من الخراب، وكان الدمار هو النغمة الرئيسة في المدينة الحديثة. فكل البوابات - المبنية بطراز موحد مكون من ذروة مدرجة لها جسمان بارزان كمئذنتين يرتفعان برشاقة، كل واحد منهما يرتفع من الطرف الخارجي لكل واحدة من الدرجتين - كانت في حالة سيئة، وقد سقط معظم القرميد الجمالي. لقد فقد سور المدينة الدائري متانته، وتم اختراقه في عدة مواضع. والأطلال الرائعة المتبقية من المسجد الجامع - وهي مئذنتان وقبة ضخمة بديعة، كانت رائعة - تحكي قصة الإهمال والدمار. ويقال إن المسجد كان قد بني في موقع معبد للنار. وكانت قزوين قد

تبوأت مكانة مرموقة فقط في زمن الصفويين، حين كانت ولفترة قصيرة العاصمة الفعلية لفارس. لاشك أن " طريق الشاه " أمكنه الاحتفاظ بشيء من عظمته السابقة، ولكن الشوارع المشجرة التي كانت تسبغ على معظم الشوارع الرئيسة بهاءها تركت لتئول إلى حالة سيئة من عدم الاستواء. وداخل أسوار المدينة منازل كثيرة وحيطان تحيط بحدائق واسعة، تركت لتنهار وتصبح خراباً. وبدا لي واضحاً بكل تأكيد في وقت زيارتي تلك أن لا أحد يهمه أن يعيد بناءها من جديد. ففي الظروف الجديدة في إيران، لعل هذا التقويم المتشائم هو أمل خيبت ظنه الأحداث. وإني لا أعلم عن حالة راهنة لمدينة ما أحق منها بالإنقاذ من الفناء الذي يتهددها. "أغار إيران مربي دشت" "فقط لو وجدت إيان من يعتني بها" ، كانت النغمة المميزة لكل الأحاديث التي تبادلتها مع الناس في الأيام القليلة من إقامتي في قزوين. وأخيراً، فإن ذلك الدعاء اليائس قد استجيب. ولا شك عندي أن شيئاً من الأمجاد الغابرة لتلك البلاد إلى حد ما في طريقها للاستعادة. وعلى أية حالة، فإن عندهم شيئاً لم يكن لهم من قبل في أي عهد، مهما كان مجيداً - خط للسكة الحديد يربط بحر قزوين بالخليج الفارسي. وإنه لإنجاز بحق ألا يكون على فارس شكر أية قوة أجنبية لاجتثاث الفساد والخزي اللذين شاناها تحت حكم شاهات أسرة قاجار.

وثمة مفارقة أخرى ملحوظة بين قزوين والمدينتين الجنوبيتين، همذان وكرمنشاه، راعتني بشدة. ففي الجنوب الجو الفارسي غالب بطبيعة الحال، بتتبيلة من أثر بريطاني ويهود بغداد. وفي قزوين فإن الصبغة الغالبة تبدو روسية وأرمنية بشيء من الخميرة الفارسية. فلوحات المتاجر بالروسية في معظمها. وأكثر ما يلفت النظر في مدينة شرقية هو أن النساء، روسيات وأرمنيات في

معظمهن، يتجولن بحرية غير محجبات، في الشوارع العامة. ففي شارع سعدي، الطريق الروسي الواسع، مسرح يومي للتنزه مشياً على الأقدام ساعة قبل الغروب وبعده، زرافات من الفتيات في ثياب زينة يوم الأحد، يصعدن في الطريق وينزلن، بلا غـاية واضحـة سـوى أن يرين المواطنين والمواطنـات، ويروهن؛ سيدات حازمات يقدن أطفالهن الصغار لنزهة يومية؛ ومتأنقو المدينة يعرضون كبرياءهم المصطنع ليعجبوا السيدات، وإن كانت الآداب الشرقية، وحسبما أرى، سائدة بما يكفي - كما هو الحال أيضاً في إيطاليا أو إسبانيا - بالفصل بين الجنسين ساعات التنزه العام.

في يوم من تلك الأيام، وأثناء استكشافي المدينة، رأيت مجموعات كثيرة من الناس على سطوح بيوتهم، ينظرون في اتجاه واحد. وسرعان ما علمت أن هناك ناراً عظيمة مشتعلة في مكان ما. وبعد نظرة أولية لها من درجات البنك الإمبراطوري الفارسي في شارع رشت، انطلقت مع أحد الحراس لمكان النار نفسها، مستودع للوقود (أو ورق الأشجار) ملحق بمخبز في السوق. ولأن ألسنة النيران كانت ترتفع عالياً، بدا وكأن ضرراً كبيراً سيقع، فكان أصحاب المتاجر والبيوت المجاورة يجرون هنا وهناك، في فوضى، يحاولون نقل ممتلكاتهم إلى أماكن لا تلحقها النار. وفي هذه الأثناء كانت الشرطة المحلية مسيطرة على الجموع الموجودة على سطوح المنازل وفي الشوارع، بينما قامت بتنظيم فرق من حملة المياه لمكافحة النار، وفي وقت قصير مدهش للغاية تمكنوا من الحصول على عدد كبير من الجواريف التي يقذف بها التراب على الأخشاب المشتعلة. وبهذا حيل بين النار وبين انتشارها، وتم إخمادها في آخر الأمر - وإنه لأداء من الشرطة استحق الثناء، في رأيي، وبخاصة إذا نظر المرء إلى

الوسائل البدائية التي كانت بحوزتهم. وكذلك كان انطباعي حسناً عن السلوك المنظم للجمهور الغفير، الذي تيسر تجنيد معاونين راضين منهم دون مشقة وحسب الحاجة.

وبفضل خطابات تعريفي من همذان، فقد قابلت عدداً كبيراً من الجماعة البهائية في قزوين. وكان زعيمها، ميرزا موسى خان حكيمباشي، كبير الأطباء في المدينة، وإن كان آنذاك قد اعتزل ممارسة الطب، لتقدم سنه وضعف حالته الصحية. ورداً على خطابي، الذي أرسلت معه خطابات التعريف بي، زارني في الفندق مساعده الدكتور عميد الله خان، ودعاني للغداء مع رئيسه، لمقابلة كبار البهائيين في المحلة. وبناءً على ذلك ذهبت بالسيارة إلى بيته في زقاق متفرع من شارع سعدي، واستقبلني لدى الباب الحكيمباشي نفسه - سيد عجوز، وقور، ذو لحية بيضاء وبنية جيدة، وسلوك في غاية من الرقة والتهذيب، ضعيف السمع نوعاً ما. وقادني إلى غرفة، كان مجتمعاً فيها عدد من إخوته في الفكر. وبعد التعريف جلسنا جميعاً حول مائدة غطتها المنعشات تماماً - معظمها من الحلوى والفاكهة. بما فيها العنب المحلي الأسود الممتاز، المسمى شاهاني...

لقد كان الحديث عامّاً. ولمست أن الحضور لم يكونوا مائلين إلى التحدث كثيراً في مبادئ الفرقة وممارساتها. وحدثني الحكيمباشي عن جولة عالمية كان قد قام بها في أيام بهاء الله نفسه، أول زعيم هذه الفرقة[1]. وفي سفرته عن طريق باكو (بدكوبه، كما تسمى) إلى روسيا وألمانيا، زار إنجلترا وفرنسا، وعاد

(١) مؤسس الفرقة البهائية المرزا حسين علي الملقب بالبهاء، توفى سنة ١٨٩٢م. (المراجعون).

إلى فارس عن طريق مرسيليا ومصر وعكا (مقر زعماء البهائيين بعد طردهم من فارس) . إن أعظم ذكرياته عن الرحلة كانت عن روسيا وألمانيا، حيث مر بتجارب مسلية مع موظفي السكة الحديدية، ولكنه، كما قال مفتخراً، أفلت من محاولاتهم الحصول على مكافآت غير شرعية على حسابه .

لقد كانت جدران الغرفة مغطاة بصورة شمسية لمختلف الجماعات البهائية، وأخرى ضخمة لعبد البهاء، الزعيم الثاني والحالي . كما كان هناك رسم تقليدي "للباب" . ولكن أعجب الزخارف الجدارية ما كان يبدو كأنه إطار فارغ، ولكنه عن قرب ثبت أنه يحتوي على عدد كبير جداً من الشعر الفضي أو الرمادي . فهذه يقال إنها، شعرات من لحية عبد البهاء . لقد جمعت في هذه الأسطر القليلة الشخصيات الثلاث الرئيسة في الحركة البهائية . ولا أنوي الخوض في حديث مطول عن الفرقة، التي يمكن لقرائي معرفة تفاصيلها بالرجوع إلى كتب صديقي الراحل البروفيسير براون، الذي كان في جامعة كيمبردج، وغيره من الثقاة . ولكن، على أي حال، إنه لمن المهم تذكر مكانة كل واحد من هذه الشخصيات الثلاث في تطور الحركة وتاريخها . إن مؤسسها الأصلي هو "الباب"[1]، الذي كان نشطاً في منتصف القرن الماضي، ولكنه لم يكن نفسه نبيّاً، ولم يدع أنه نبي . فمثله مثل القديس يوحنا المعمدان الذي يزعم بأنه سابق للزعيم المنتظر . ولم يدع مجالاً للشك بأن زعامة الحركة، بعد موت الثاني، ستئول لمن يختاره الناس، كائناً من يكون، بالتصويت الحر لكل الأخوة، دون أي ادعاء بوحي . وبعد حين ظهر في شخص بهاء، الذي حكم

---

(١) الباب لقب أعلنه لنفسه المرزا علي محمد رضا الشيرازي سنة ١٨٤٤م، وسميت فرقته البابية، وتعد هذه الفرقة الأصل الذي قامت عليه البهائية . (المراجعون) .

لمدته المقدرة، والذي هبطت عباءته على ابنه عبد البهاء، الذي كان آنذاك حيّاً، يقيم في عكا، وحيث سعدت بزيارته بعد ذلك بما يزيد على السنة. ومات قبل سنوات قليلة، وخلفه في الزعامة المدنية ابنه الأكبر، توفيق، الذي كان آنذاك طالباً جامعيّاً في أكسفورد! ومع غاندي، وهو قديس آخر، في قائمة طلابها السابقين، فإن أكسفورد يحق لها أن تنسب لنفسها قسطاً ليس بالهين في تكوين الفلسفة الشرقية الحديثة. ولكن، لا غاندي ولا توفيق، ولأسباب شرحناها سابقاً، يقدر على ادعاء أي وحي نبوي. فهما يؤديان دوراً لا يختلف عن أدوار الخلفاء المسلمين الذين جاءوا بعد الخلفاء الراشدين، وإن لم يكن لأي واحد منهما السلطة المدنية التي نادى بها الخلفاء الإسلاميون وبسطوها حتى إلغاء الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤م، وينبغي عليّ مقاومة الإغراء بالتعليق على تطورات الخلافة منذ ذلك العصر، وهو موضوع ثري ولكنه شائك - والعودة إلى الجماعة البهائية في قزوين.

لقد كان الافتراض الأساسي خلال ولاية " الباب " أن جهوده وسيرتي نبيين فعليين من بعده - وكما أثبتت الأحداث، غطتا فترة تقل بشيء قليل عن القرن - ستكفي لتأسيس فكر جديد بحيث لا يخشى عليها بعد ذلك من التفكك لعدم وجود زعيم يدعي وحياً إلهيّاً شخصيّاً مباشراً. ولا شك أن الحركة جاءت في لحظة مواتية لفارس، وأدت إلى اجتثاث المد الصاعد للتعصب الشيعي، الذي كان في تلك الأيام -وبكل تأكيد- سدّاً واضحاً ضد التعليم والتطور - ولكنه، على أي حال، ربما خفت حدته قليلاً في الأيام الأخيرة للصلات التي زادت اتساعاً بالعالم الحديث. ولكن، بعد النجاحات الأولى التي حققتها الحركة بتحويل قسم كبير من الرأي الفارسي إلى أسلوبها

في التفكير - لعلها في خطوط دينية أوسع مما في أية عقيدة أخرى - بدأت البهائية تفقد مواقعها، وفي أرض مولدها، لكل من عدوها الأصلي - المعارضة الشيعية غير المهادنة - وآخر جديد لم يخطر للباب، هو التمدن. لكنها نجحت في الانتشار، إلى حد ما، في بلاد أخرى، في بلاد لاشك أنها كانت ستكون في نظر الباب بعيدة المنال لاتنالها أقصى أحلامه؛ ولأمريكا اليوم مجموعة صغيرة، ولكنها متماسكة، من العنصر البهائي، يحيي ذكرى حركة لا أهمية تذكر لها في الشرق الأوسط الآن، وذلك حسبما يراه المرء.

لقد بدا لي من صلاتي ببهائيِّي همذان وقزوين أن الحركة - فيما عدا مبادئها الاجتماعية العامة، وهي أشياء مهمة لأية حركة دينية ذات تأثير - كانت قد بدأت تعاني من ضعف داخلي، شأن العقائد الدينية. وذلك كان الميل إلى الشكلية المتعصبة، التي أراد بها أبطالها ألا تكون سوى نقطة تجمع للأتباع الملتزمين بهذه العقيدة، ولكنها أقرب لأن تنال أهمية أكثر مما تستحق في مخطط جماعتهم، فتضعف فرص الحركة في قبول أوسع في عالم آخر مختلف، كان اتجاهه ولا يزال التخلص من شباك الدين مرة واحدة، لا اتباع دين جديد. وكما أن القشة تحدد اتجاه الريح، فقد بدا لي أن تلك الشعيرات القليلة، من لحية نبوية، في إطار خال تنبأت بالفشل الحتمي لحركة كان بها عدد من السمات الجديرة بالإعجاب التام. فهي، مثلها مثل الاشتراكية السياسية، من النوع الديمقراطي، بدأت كأنها تخشى بعضاً من مثلها العليا نفسها، الأكثر ثورية.

وما تبقى من العصر قضيته في الحديقة العامة الكبرى، التي تملأ الزاوية المكونة من ملتقى شارع سعدي وطريق الشاه. وأثناء تجوالي جلست على مقعد طويل يواجه بناءً كبيراً يبدو أنه كان خالياً. وكان هناك عدد كبير من الناس،

يستمتعون بظل الحديقة وسحرها. وكان من بينهم عدد كبير من ضباط الجيش في ملابسهم العسكرية، من بينهم واحد كان من الواضح أنه أهم الآخرين وآنقهم، يسير غارقاً في حديث جاد مع صديق له في ملابس مدنية. ولمست جواً من الجمود، كأنه جو انتظار. ولكني لم أشغل نفسي به سوى ظني أن الحاكم، الذي كان قصره يقع في نهاية الطريق الرئيس المشجر في الحديقة، سيخرج بسيارته أو مشياً. وصادف أن مر الرجل الأنيق وصاحبه قريباً من مقعدي، فدفعني حسن التأدب للنهوض وتحيتهما بالتحية الرسمية على شفتي. فوقفا بلطف وتحادثا معي مستفسرين عني وعن المكان الذي جئت منه. ومن جهتي سألتهما إن كان البناء الكبير في نهاية الطريق المشجر هو مقر الحاكم. ولما أجابا بالإيجاب، تجرأت بالسؤال إن كانا والآخرين في الحديقة ينتظرون ظهور الحاكم. قال الرجل المدني: "إنه الحاكم نفسه زود قوفتي - لقد تسرعت في الكلام!"، وضحك الحاكم جذلاً، فاعتذرت بشدة لسوء أدبي. لكنه سرى عني، ووقفنا نتحادث لبرهة أخرى حتى نفدت كل موضوعات الحديث اللائق. وهكذا نلت شرفاً غير متوقع لم أسع إليه، وذلك بلقاء خدايار خان، الحاكم العسكري لقزوين لم أر من اللائق أن أسعى لمقابلته بوصفي سائحًا يقيم في فندق. ولكن الحظ حالفني. لقد كان شخصاً رائعاً، رجلاً منتصب القامة - جندياً في كل ذرة من جسمه. لقد كان هناك، حاكماً عسكرياً لمجاورة منطقة قزوين لمنطقة الحرب التي تشمل رشت ومازندران، حيث كانت القبائل، بمساعدة فعالة من قوات البلشفيك، قد ثارت حاملة السلاح، ولم تخضع بعد. ولقد علمت من مصادر أخرى أن خدايار، كمسمى من قبل مجلس وزراء سيد ضياء الدين الذي كان قد زحزح عن السلطة، قد يستبدل بشخص

آخر في وظيفته الحالية حالما وجدت الحكومة الحالية، التي جاء بها انقلاب، الوقت مناسباً لإجراء تغيير. ولا شك، إذن، أنه لم يستمر طويلاً بعد محادثته الودية تلك معي. والذي لفت نظري بشدة عندما أرجع بذهني للوراء هو أن انقلاب رضا خان، الذي كان مقدراً له أن يكون حدثاً بادئاً لعهد جديد، لم يزل كما لو كان معلقاً، لا يعرف ما يؤدي إليه. ففي المستقبل القريب أو البعيد قد يفشل، مثله مثل الحركات الثورية الأخرى في فارس وغيرها. وسمع الناس شائعات، همسات خافتة بطبيعة الحال، عن استيلاء ضابط عسكري لمقاليد السلطة، يتذكره بعض الناس بأنه، وحتى عهد قريب، كان ذلك العريف في حرس إحدى المفوضيات الدبلوماسية. فإذا كانت فارس قد بدأت فصلاً جديداً ومهمّاً جداً في تأريخها شيء غائب عني تماماً - ومنه استنتج أن أولئك الذين كانت لهم معرفة طويلة بالبلاد لم يكن لهم آنذاك انطباع طيب عن مستقبل النظام الجديد. وعلى أي حال، فإن سلطته الفعلية آنذاك لم تكد تتجاوز حدود طهران.

والآن فإني أصبحت متوجهاً إلى العاصمة نفسها. لقد كانت أوليات رحلتي أشد تعقيداً وحزناً من تلك الأشياء المجهولة التي وسمت رحلتي من همذان. لقد كانت خطوة أولى وضرورية زيارة النظمية، أو رئاسة الشرطة، مع ما صاحبها من قدر كبير من الانتظار لأجل اللياقة. وأثناء الانتظار رأيت جماعة من السجناء البلشفيك، من الواضح أن القوات الفارسية قد أسرتهم أثناء العمليات العسكرية الأخيرة في مازندران. وكانت المفوضية الروسية في طهران حريصة على الحصول على إذن بإطلاق سراحهم. ولهذه الغاية أرسلت الملحق العسكري، وهو ضابط أنيق من سلاح الفرسان، لمقابلة السلطات في

قزوين، التي كانت بها كتيبة من القوزاق - بقية من النظام القديم لم يقض عليها بعد. وكان مثلي نزيلاً في الفندق الكبير، المبنى الواسع المطل على طريق الشاه، ويملكه أرمني يقدم لنزلائه سكنى كسكنى القصور، وطعاماً متوسطاً. ففي أيام الاحتلال البريطاني لم يكن لديه عذر للشكوى من تجارته. أما الآن فإن عليه أن يقتصد في الإنفاق. إن عليه دفع إيجار شهري قدره أربعون توماناً، بينما الغرف العشرة، أو تزيد، والتي أجرها اليومي تومان واحد، لا يشغل منها سوى ربعها - أو نصفها في أحسن الأحوال. وكان من زملائي النزلاء تاجر من باكو، ادعى أنه سويسري فرنسي، وإن كان يعرف قدراً يسيراً من الفرنسية مما جعلني أعتقد أنه ألماني، طالت إقامته في روسيا. وأكمل قائمة النزلاء في تلك الأيام ضابط فارسي وسيم، وآخر في خدمة الملحق العسكري البلشفيكي.

بعد انتظار طويل سمح لي بالمثول أمام حضرة الرجل الثاني في مكتب الشرطة، الذي حصلت منه على إذن بدخول طهران. ثم حولت إلى كاتب ليكمل الإجراءات الضرورية، والذي احتار في اسمي، ولكنه لم يجد مشقة في تقدير سني وجنسيتي. وعلى أي حال، فإنه كتب " أرمني - ٢٢ سنة " في الخانة المناسبة في سجله. فتركت الملحوظة الثانية - تمر بلا اعتراض كإطراء عابر لملامحي الشابة - وعلى أي حال فليس ثمة اختلاف بين اثنتين وعشرين وست وثلاثين. ولكني اعترضت على أرمني، وإن كنت تساءلت آنذاك ألم يكن من الأسلم أن أصرف النظر عنها. وتم التصحيح المناسب في السجل سألني ناظراً إلي: "أي لغات؟ اللغة الإنجليزية؟ كتب دون أن ينتظر إجابتي "نعم. والفارسية ؟" فصاح الشرطي الذي كان قد قدمني قائلاً: "قليل جداً". ولكن

الإقرار الأخير غير المحتمل هذا لم يكن يستحق التدوين أو الاستقصاء من الكاتب .

وبعد وضعي الإذن في جيبي انصرفت ، في إعجاب بحديقة الزهور التي في الفناء والتي تستحق الإعجاب وكانت بوابته الضخمة ، المواجهة لطريق الشاه ، ذات هيبة وروعة بغطائها الكثيف من الزخرفة بالقرميد . وفي صباح اليوم التالي جاء أنطنيان بالسيارة إلى الفندق متأخراً ساعتين . ومع ذلك ، فإنه كان قد رهن كل إطاراته الاحتياطية وأنابيبها مقابل ديونه ، التي لم أتبين طبيعتها . وبالإضافة إلى ذلك فإنه لم يكن لديه وقود أو نقود . فرفضت مساعدته ، ورفض دائنوه ، الذين كانوا قد جاءوا معه ، أملاً منهم في تحويل الإطارات إلى نقود ، التخلي عن الأولى أو تزويده بالوقود . وبعد كثير من الجدال ، تصاحبه صيحات في غير وقتها من عشرات الشحاذين ، جعلت أنطنيان يمضي بي إلى النظمية حيث عرضت قضيتي على نائب رئيس الشرطة ، الذي تصرف تصرفاً معقولاً قائلاً لأنطنيان " لقد عقدت صفقة بأخذ هذا السيد إلى طهران . فإما أن تفعل هذا أو تعيد إليه أي سنت دفعه لك " . وفي هذ اللحظة دخل رئيس الشرطة الغرفة - رجل ضخم في بزة أنيقة ، وفيه صرامة . وبعد سماعه الخصومة ، دعا الأرمني للدخول في غرفته الخاصة ، والتي طرد منها الأرمني إلينا بعد عبارات صارمة ، خائفاً ومهيناً . فخرجنا معاً ، وقلت لأنطنيان : " والآن ، إن كنت تريد رؤية ذلك الرجل مرة أخرى ، فقل لي . أتفعل؟ " . ورفض الرجل المرهونة له الإطارات ، والذي كان صاحب الوقود الذي نحن في حاجة إليه ، التخلي عن أي منهما ما لم يدفع لهما - وهو موقف سليم . فقدمت إنذاراً للسائق . " سأشتري الإطارات والوقود ، ولن أدفع لك سنتاً واحداً آخراً مما اتفقنا عليه ، وسأحتفظ

بالإطارات حتى ترد لي قيمتها. فإن كانت لك ظلامة في هذا، فيمكننا زيارة السيد في النظمية في أي وقت، فهو الشاهد بيننا " . فكان هذا كافياً. فدفعت ثمن الإطارات والوقود، ونفذت وعدي في طهران، إلا أني، بعد تركه في قلق يومين أو ثلاثة، أعدت إليه إطاراته التي لم تكن ذات فائدة لي. لقد كان صافي صفقتي مع أنطنيان، الذي لم ينل ولم يستحق أي تقدير مني لسلوكه غير المهذب تماماً، إن رحلتي من همذان إلى طهران كلفتني ١٤٠ توماناً، بدلاً من ١٤٥ بالإضافة إلى الإكراميات - توفيراً لمبلغ ثلاثة جنيهات على الأقل، مع قسط وافر من التسلية والتثقف.

وفي الخامس عشر من أغسطس، انطلقنا، ولم أكن آسفاً لمغادرتي قزوين، بمبانيها المتآكلة وشحاذيها المزعجين. لكن الرحلة التي أعقبتها كانت عذاباً. فالسيارة لم تكن صالحة حتى لرحلة مئة ميل. فصرت التروس، وتعثرنا هنا وهناك في الطريق الذي لم يكن ممتعاً أو صالحاً بأي حال من الأحوال، حتى الساعة الخامسة والنصف مساءً، حين وصلنا خبر خانة (مكتب بريد) حشمت آباد، نحو نصف الطريق إلى العاصمة، بعد ست ساعات من السفر. فقررت قضاء الليلة هناك، وأمضيت الوقت حتى الغروب متسلقاً أعلى جبل خارج من سلسلة البرز. ونمت على سطح مكتب البريد، حيث وجدت الشرطة لطيفين جداً، والعنب المحلي خير بديل عن العشاء.

ولم نصل إلى طهران إلا ظهر الغد، بعد اثنتي عشرة ساعة من السفر الفعلي لقطع المسافة من قزوين. وبعد حشمت آباد بقليل - التي تعد نقطة الوسط بين قزوين وطهران - مررت بالضريح الجذاب، لإمام زاده ينقي إمام. ووراءه كانت تلال منخفضة أو أكوام لابد أنها كانت مواقع لقرى قديمة أو

حصون. ثم بلغنا قرج، وهي قرية ببوابة لتحصيل رسوم الطريق وجسر فوق سيل جارف على الجانب القريب من سلسلة شمران التي تحجب طهران عن الجنوب الغربي. واستغرقنا وقتاً طويلاً لنلتف حول الأطراف الناتئة من السلسلة لنصل سهل طهران. لكن عدداً من القرى الجذابة على سفح الجبل كبحت جماح تعجلي لرؤية العاصمة، بينما كنت أتساءل أية واحدة من هذه القمم الكثيرة من سلسلة البرز أمامنا قد تكون هي دموند نفسها. وفجأة زال كل شك عن ذهني. فعلى البعد، وإلى اليسار في زاوية قائمة مع طريقنا، في غير الاتجاه الذي كانت أعيننا مسمرة فيه، يقف المخروط العظيم، يعلو رأسه وكتفاه فوق أي شيء آخر في السلسلة الممتدة على جانبيه. لقد كان جميلاً بأخاديد الثلج فوقه، الملتقية في ذروة كلها بيضاء، وخيوط رفيعة لولبية من الدخان تتصاعد منها في الهواء. لقد كان رائعاً حقّاً، كاملاً في هيئته، وأعتقد أنه أجمل جبل رأيته مطلقاً. وفي الوقت نفسه تقريباً، ظهرت أمامنا الرقعة السوداء القاتمة، التي هي طهران، تتوهج الشمس فوق قبة شاه عبد العظيم الذهبية إلى الجنوب الغربي منها. لقد كانت كتلة سوداء من النبات لا يرى فيها بناء واحد - كما ترى من هذه الناحية على أية حال. فطهران، في عباءتها من الخضرة، تقع في منخفض اتجهنا نحوه، هابطين منحدراً يسيراً. وبعد تجاوز بعض المنازل في طرفها، وصلنا الخندق المائي والاستحكامات التي تحيط بالمدينة تماماً. وباب قزوين، الذي دخلنا منه، شيء حديث، بقرميد ومآذن بلا شيء مميز لها. وفحص الأذن الذي معي وأعيد لي مع توجيه بتبديله بإذن رسمي من النظمية - وهو شكلية تجاهلتها بلا عواقب وخيمة. ثم واصلنا السير في شوارع واسعة، وطرق مشجرة، إلى

طريق (خيابان) علاء الدولة حيث حططت الرحال في باب فندق فرنسا (أوتيل دو فرانس).

وكان اليوم آنذاك هو السادس عشر من أغسطس، وكنت قد استنفدت نحو خمسة أسابيع من عطلتي. لقد كان الفندق متواضعاً، ولكنه كان مريحاً بما يكفي، به عدد قليل من الخادمات الروسيات لخدمة النزلاء. ومن الأخيرين كان شاب روسي، في مهمة رسمية حسب اعتقادي، أراني بعض حياة الليل في طهران، التي بدت في معظمها تدور حول عدد من أوكار القمار. وبما أنني لم أكن مدمناً للروليت أو غيرها من الأنواع ذات الشعبية من القمار، فلم أجد ذلك مسلياً. ولكن، فيما بدا لي، ليس هناك سوى القليل من البدائل. أما النهار فقد كان مليئاً لوجود الكثير مما يمكن أن يرى في المدينة - بعض الأبنية الرائعة، والشوارع الرائعة، والساحات، وفوق ذلك كله، السوق الذي يمكن للمرء التجول فيه بلا نهاية وبلا تخمة، والذي اشتريت منه كمية من الأبسطة والسجاد مستعيناً بتجار كنت حملت إليهم خطابات تعريف من بغداد. وواتاني الحظ بأني وافقت احتفالات المحرم، التي وقعت هذا العام في الشطر الأول من سبتمبر. وأعتقد أن التشريعات الحديثة، مواكبة للاتجاهات العصرية للبلاد، قد خففت من الواقعية البالغة التي وسمت مسرحية المعاناة العظمى للشيعة، والتي يستحوذ أثناءها على السوق وكثير من الشوارع المجاورة له في العاصمة، بلا تحفظ، في أيام الاحتفال. وكنت قد شهدت احتفالات المحرم في مدن أخرى في الهند وبلاد الرافدين، ولكن لم أشهدها مرة أخرى منذ تجربتي في طهران، ذلك لأن حياتي منذ ذلك الوقت خرجت خروجاً يكاد يكون كاملاً عن دائرة النفوذ الشيعي. ولكني لم أر في أي مكان شيئاً أضخم وأفظع مما في العاصمة الفارسية.

ولكن كانت هناك سمة لزيارتي في العطلة لهذه الأماكن التي، وإن لم تكن متفردة بأي حال من الأحوال قد كانت في ذلك الوقت غير عادية بالقدر الكافي الذي يجعل منها تاجاً فوق تجاربي الفارسية. لقد كنت عرفت قرائي بأجمل جبل في العالم، وكنت اعترفت بنزعة لا علاج لها هي النظر إلى العالم تحتي من أعلى نقطة يمكن الوصول إليها. لذلك لم يكن غريباً ذلك التبلور التدريجي في صدري برغبة في رؤية فارس من قِمة دموند. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه كانت لي صلة خاصة بذلك الجبل ترجع إلى سنوات خلت حين اختبرني السير جورج غريرسون في اللغة الأردية كموظف تحت التجربة في الخدمة المدنية الهندية وأعطاني درجات عالية سخية، ولكنه فيما بعد أسر إلي في خلوة بأن إجابتي بالأردية كانت مشبعة بدرجة عالية من وباء فارسي. ولمعالجتي من هذا الداء قبل أن يستفحل أشار علي بقراءة قصة عنوانها "فردوسي برين"[1] (وإنه لعنوان فارسي جيد كما ينبغي ملاحظته) لمؤلف من القرن التاسع عشر اسمه عبد الحليم شرار. لقد أحسن صنعاً بإهدائي من فوره نسخة من ذلك الكتاب. وإني لم أقرأه فحسب، ولكني قمت بترجمة له لتثقيف طلاب اللغة الآخرين. ولعل مخطوطتي القيمة لا تزال محفوظة في أرشيف لجنة الامتحانات في كلكتا. ولكنها، وحسب علمي، لم تنشر بعد. وزيادة في الأسى فإن مسرح القصة معد في جبال البرز هذه نفسها، التي تاجها دموند نفسه، والذي حوله حيكت قصة الرجل العجوز والجبل وجنة الحشاشين الأرضية.

أقر فردوس بروي زمين أست همين أست! همين أست! همين أست!.

---

(١) «الجنة العليا». (المترجم).

يقول: إن كانت الفردوس توجد على وجه الأرض فإنها هذه، هذه، هذه!.

أما كيف يمكن تحقيق طموحي فلا أدري. ولكن أثناء إقامتي في طهران فإنني، بطبيعة الحال، اتصلت بالمفوضية البريطانية، التي كان يرأسها آنذاك كوزير السيد نورمان. فكان يقضي جزءاً من وقته بالمفوضية، ولكنه في وقت الجو الحار كان يهاجر مع موظفيه إلى جنبات شيمران الألطف جواً، حيث كان للوزير مقر صيفي في قلهك، تلك المحطة البديعة على سفح الجبل التي تكتفى بشكل كبير بهجرة الأوربيين الصيفية. ولذلك وافقت فوراً على الاقتراح بأن أذهب إلى هناك لإقامة قصيرة. وصادف أن كان هافارد (السكرتير الشرقي الذي كان معي في كيمبردج قبل ثلاث عشرة سنة، ولم يزل بطهران منذ ذلك الوقت)، وبيتمان، وماليت، وآخرون من الموظفين ينظمون رحلة إلى نهر لار، المشهور بسلمونه المنقط. فانضممت للرحلة التي أوصلتني إلى معسكر لصيد السمك في أسفل دموند. وهناك أسهمت في اصطياد السلمون بأسلوب الهاوي، وأكله بأسلوب المحترف. ولكن للدبلوماسيين المشغولين وقتاً قصيراً لمثل هذه التفاهات. لذا لما قفل الجميع عائدين إلى قلهك، انطلقت وحيداً بجراب وسنارة صيد السمك في الاتجاه المعاكس في اتجاه مجرى لار. وكنت أصيد السمك وأنا أسير؛ ولكني قمت بشيء بليد. ولأن قسطاً كبيراً من وقتي كان في الماء، وأن الجوارب المبللة غير مريحة أبداً، فإني قررت خلعها والمواصلة جذلاً في لباسي القصير وحذائي القماشي. وظللت سائراً اليوم كله، متسكعاً كما أشاء، حتى بدأت أشعر أن الشمس الحارة بدأت تغزو ساقي المكشوفتين المبللتين والمجمدتين بالماء البارد كالثلج.

وفي وقت متأخر من العصر، وبعد تدحرجي مرة أو مرتين على السفح المنحدر، والمغطى بالحصى الخشن، وكسر سنارتي أثناء ذلك، أصبحت في ألم مبرح. وكان الأوان قد آن لأفكر جاداً في كيفية تمضية الليلة ومكانها. ولأن زادي المحدود كان قد نفد في الغداء، فلم أحلم بطعام - فالمرء لايصطاد السلمون بسنارة مكسورة - إلا أن أصل قرية أسك، الصغيرة على ضفة النهر، التي تبعد مسافة من هنا. لذلك تركت النهر واتجهت نحو درب البغال في موضع أعلى. ولكن، في حالتي المؤلمة تلك، لم يكن ذلك الأمر بالسهولة التي بدا بها أول وهلة. فبلغت الدرب بعد طلوع صعب، وبدرجة من الإنهاك وفي وقت متأخر (وقت الغروب تماماً) مما جعل آمالي بوصول القرية تبدو ضئيلة. وبعد ساعة من السير المضني، مررت على جماعة من أصحاب البغال الأكراد، مع نسائهم، مخيمين على قارعة الطريق. فقررت الاستسلام، والتماس ضيافتهم، التي جادوا بها علي بجفاء ومضض. لقد كانت وجبتهم حليباً وخبزاً جافاً. وكان ذلك خيراً كافياً لي. ولكن الجو آنذاك بدأ يبرد جداً - لقد كنا على ارتفاع نحو ٧٠٠٠ قدم فوق سطح البحر - وكنت أرتجف بشدة فيما عدا قدمي اللتين كانتا تشتعلان ناراً. فاضطررت لأن أطلب غطاءً. فجاءت إحدى النسوة بغطاء من جلد الغنم، بالغ القذارة، وبعض الأقمشة الخشنة فافترشت وتغطيت بذلك بلا كلفة لأقضي ليلة عذاب فعلي لاينسى. وكان لمضيفي شكل القتلة المحترفين. فقد كانوا ضخاماً، أقوياء، فظاظاً. ولكن نساءهم كن مليحات وعطوفات. وفي الصباح اصطحبتهم، راكباً بغلاً، كل خطوة من خطواتهم تسبب لي ألماً مبرحاً، حتى وصلنا أسك، حيث قررت قضاء اليوم في حضارة نسبية. وعلى أي حال، استطعت شراء بعض الأكل

هناك. ثم إن أسك مكان غير عادي لأن بها مؤسسة للعلاج الحراري، متطورة، وحمامات كبريت. فكافأت مضيفي لتلك الليلة بالسخاء الذي قدرت عليه، وبقيت في أسك، مستلقياً لأريح قدمي المؤلمتين، ومستحمّاً في مياه الكبريت فترات خلال اليوم.

وفي اليوم التالي، شعرت بتحسن، وإن كنت لا أزال أعرج لأن جلد رجلي كان متورماً ومتسلخاً. ومع ذلك، فإني ما كنت ليحال بيني وبين تسلقي، فقررت أن أقضي النهار في قرية صغيرة على صفحة الجبل، يراها المرء من أسك، وترتفع نحو ٢٠٠٠ قدم فوق سطح البحر. وبشيء من الصعوبة تمكنت من بلوغ ذلك المكان في وقت مبكر يكفي لأخذ قسط كاف من الراحة وللبحث عن إمكانية الوصول إلى القمة مع أهل القرية، الذين وجدت من بينهم رجلاً عجوزاً، قويّاً، مليئاً بالحيوية، لا يقل عن السبعين في عمره، الذي أكد لي أننا إن بدأنا بداية مبكرة فإننا سنتمكن من صعود الجبل والعودة قبل حلول الظلام. وذلك يعني نحو اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة ساعة من المجهود المضني. فاستأجرت خدماته للغد بالأجر الذي سماه ثم تحصلنا على زادنا لذلك اليوم، بعض الشاي وغلاية الماء - وأصبح كل شيء جاهزاً.

وفي أولى علامات الفجر انطلقنا. وكان منطلقنا نحو ٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، حسب قراءة الأنيرويد (مقياس الضغط غير المائي)، وهدفنا نحو ١٩٠٠٠ قدم. وكنت قد تحسنت كثيراً، ولكني لم أكن في حالة تناسب صعود ١١٠٠٠ قدم ونزولها. ولعل الأمر بعد راحة يوم آخر كان سيختلف جداً. ولكني كنت حريصاً على عدم إضاعة أي وقت بلا ضرورة. ففي المراحل الأولى، على أية حال، لم تكن في الصعود صعوبة تذكر - لقد كان مجرد

مشي صعب، لا أكثر. فالمنحدرات السفلى من الجبل، إلى ارتفاع ١٢٠٠٠ أو ١٣٠٠٠ قدم، كانت مغطاة بأشجار منخفضة وأعشاب. وبعد حين وصلنا تلك النقطة. وما وراء ذلك كان حصى وصخوراً، عارياً تماماً، بلا حشائش أو نبات من أي نوع.

وقرر مرشدي ترك غلاية الماء هناك لنأخذها في طريق عودتنا - فبلا وقود للنار، فلا معنى للتفكير في الشاي. وهكذا مضينا، ببطء لكن بتقدم مستمر، حذرين جداً في أماكن الحصى. وعدا ذلك، فقد كان سيرنا سهلاً نوعاً ما. وعلى ارتفاع ١٦٠٠٠ أو ١٧٠٠٠ قدم جئنا على أسفل خيوط الثلج، وأصبح السفح أشد انحداراً ولكن كان هناك كثير من الصخور التي تعطي المرء موطئاً لقدم أو مقبضاً ليد. لكن المجهود أصبح مضنياً أكثر فأكثر، وبدأت رجلاي تؤلمانني مرة أخرى. فاضطررت للجلوس لأستريح فترات عديدة، وتحتم أن يصبح تقدمنا أبطأ فأبطأ، بينما كانت الشمس التي لاترحم تبدو مسرعة بلا توان. فجاهدنا صاعدين، والدليل يشجعني مرحاً، متقدماً أمامي كالشاب. فشعرت بخجل شديد لتفوقه علي، ولكني كان لي عذري المشروع في رجلي البائستين. وتفهم مشكلتي. وازداد الثلج كثافة كلما قاربنا القمة، واقتضى الحذر. ولكني صعدت أعرج في دفعات قصيرة واستراحات فيما بينها. وفي نهاية الأمر وقفنا فوق القمة العظيمة لدموند، على شفة فوهته المغطاة بالثلج، التي كانت تتصاعد منها خطوط رفيعة من الدخان، هنا وهناك. وكانت الساعة آنذاك الرابعة مساءً، وقد استغرقنا نحو اثنتي عشرة ساعة في الصعود. ولم نك لنضيع مزيداً من الوقت على القمة، كما أنه، في واقع الحال، لم تكن بنا حاجة لذلك. ولعظيم خيبة أملي، فإن المنظر الشمالي كله، بما في ذلك الغابات على

جانب البرز وبحر قزوين، كان مغطى تماماً بسحب كثيفة. أما جهة الجنوب، الخالية، من أية سحب في السماء، فإننا كنا نرى نحو مئة ميل أو أكثر فوق طهران وقلهك والسهل الفسيح وراءهما، بين حواجزه الجبلية وعلى كل جانب منها، وفي البعد، امتدت سلسلة جبال فارس الشمالية العظيمة، بارتفاع نحو ١٢٠٠٠ أو ١٣٠٠٠ قدم، لكنها كالقزم بجانب القمة الشامخة المتوحدة التي وقفنا عليها. وهبت ريح باردة لتثنينا عن أية مراودة للنفس بالمكث هنا. فكان لابد أن ننزل لأسفل من خط الثلج قبل حلول الظلام، كما كانت الشمس، وبصورة غير مريحة، تؤذن بالغروب وراء التلال البعيدة. فجمعت بضعة من الكتل الصغيرة من الكبريت من الفوهة ذكرى لزيارتي، ثم بدأنا نزولنا.

ولئن كان الصعود مضنياً، فإن النزول لم يكن سهلاً بأي حال من الأحوال. ولقد سقط كل واحد منا مرة أو مرتين في استعجالنا لتجاوز منطقة الثلج، الشيء الذي نجحنا فيه قبل حلول الظلام فعلاً. وبعد ذلك، وعلى الحصى، كان نزولنا معاناة فعلية، ونحن نتحسس طريقنا، وقد أصبح الجو بارداً جداً. وغدا تقدمنا بطيئاً جداً، وبدأ العذاب يؤثر على دليلي أكثر مما فعل بي. ولعله البرد، ذلك الذي فتك به. ومهما كان السبب فإنه صار يتصرف بغرابة، إذ يسقط فجأة على الحصى شاكياً من البرد. فحثثته على السير، وأخبرته بأننا عندما نصل إلى غلاية الماء والنبات، فإننا سيمكننا التوقف، مع نار تدفئنا، ونغلي الماء للشاي. فيقفز عائداً لنشاطه مرة أخرى. ولكنه في مرة من المرات تعثر فسقط. ولا أظنه آذى نفسه، لكنه بدأ يبكي كالطفل. وانزعجت كثيراً حين رأيت أسنانه تصطك. وفككت أزرار بذلتي واحتضنته بشدة حتى ألفها حوله معي لأدفئه. وبعد برهة عاد لطبيعته بالقدر الذي جعلنا

نحاول التقدم مرة أخرى. ولم يكن لدي أدنى إدراك بالمسافة التي قطعناها في هبوطنا. ولكن دليلي مال فجأة إلى جوار صخرة منتصبة ورفع الغلاية ملوحاً بها في وجهي بصرخة انتصار جشة كالخنزير. لقد كان مذهلاً لنا فعلاً كيف التزمنا التزاماً دقيقاً بمسارنا في ذلك الظلام الداكن - لاشك أنها الغريزة، هي التي وجهته.

وعلى أي حال، أدركنا أننا قد وصلنا منطقة النباتات. لكن محاولاتنا الأولى لإيقاد النار في الطحالب المبتلة والأعشاب الخضراء باءت بفشل تام. وأسفل من ذلك قليلاً عثرنا فعلاً على وقود مرض، وإن كان سريع الاستهلاك، ونجحنا لأول مرة في إدخال شيء من الدفء في أجسامنا المتجمدة، ونحن جلوس حول الغلاية التي استغرقت وقتاً غير معقول للغليان. وكان الشاي ذا أهمية قصوى لنا، ولم يك ثمة شيء آخر يشغل همنا- لاشيء سوى تحسس طريقنا في النزول بين الأشجار القصيرة المتكاثرة. وأخيراً ظهر أول خيط للفجر الكاذب في السماء الشرقية، ليذوب قليلاً قليلاً في الضوء الخافت للفجر، الذي اتسع رويداً رويداً في فيض وردي، مبشراً بالنهار، ودار فوق رءوسنا سرب من الحجل نازلاً من الجبل كالشبح، واختفى بعيداً تحتنا. وسرعان ما بدت غير بعيد القرية الصغيرة التي كنا قد بدأنا منها صعودنا، قبل نحو خمس وأربعين ساعة. وأصبحنا شاكرين حقّاً حين قابلنا الدفء المعبق بالدخان في كوخ الدليل، حيث اضطجعت فوراً لأنام - ونمت نوماً عميقاً.

أثناء النهار تجولت في شارع أمول حتى انتهيت إلى منتجع صحي، اسمه آبي قرم (معناها "الماء الحار") أسفل سفوح دموند وفوق وادي لار، الذي يخترق الحاجز الجبلي العظيم متجهاً إلى بحر قزوين. وهذا المنتجع الصحي لايأتيه

المستشفون الأوربيون كثيراً، لكنه يأتيه أهل البلاد بكثرة، وترتيبات السكن والطعام لزواره ممتازة. فبت تلك الليلة هناك أملاً في معالجة الحمامات لرجلي المجروحتين، ولست بحاجة لأكثر مما قلت في هذا الموضوع، فعند عودتي إلى قلهك احتجت للعناية المتمكنة للدكتور نليغان، طبيب المفوضية، لفترة طويلة من الزمن قبل أن أصبح قادراً تماماً على القيام بالرحلة الطويلة عائداً إلى بلاد الرافدين. لقد امتازت حمامات آبي قرم بصفة خاصة بتوافر الماء الحار (الحار جداً) والبارد (المثلج) معاً. وكل حمام به حوض سباحة مبني بناءً غير جميل من الحجارة، وهو محجوب عن أعين عامة الناس بحائط من الحجر، مسقوف. وتنقل الماء إلى الحمام قناتان متلاصقتان نوعاً ما، إحداهما للماء البارد والأخرى للحار. لذا فإن المستحم بمقدوره التحكم في حرارة الحمام كيفما يشاء، وذلك بسد إحدى القناتين أو الأخرى. ويتحول الماء المسدود بمخرج آخر إلى الحمامات السفلية، ثم يعود في آخر الأمر إلى مجراه الرئيس مرة أخرى. إنها منطقة ساحرة لمنتهى أملي. وبعد يوم كامل هناك، استأجرت بغالاً بأصحابها لنقلي عائداً إلى أسك، ومنها عبر الجبال على الضفة اليمنى من لار إلى قلهك.

فمع صعود دموند في رصيدي، تسنى لي بعد بضعة شهور، وحين وقفت على شواطئ البحر الميت، أن أطالب بفرق ٢٠٠٠٠ قدم بين أخفض البقاع وأعلاها، التي وطأتها قدماي على وجه الأرض. وربما يطالب كثيرون بالقدر نفسه، ولكني أستبعد أن يطالب شخص ما، إلا أن يكون من متسلقي الجبال، بأكثر من ذلك - وأنا قطعاً، لست بمتسلق للجبال. والآن بدأت أشعر بأن الأوان قد حان للعودة إلى بغداد. وفي هذه الأثناء بدأت طهران تروق لي أكثر

فأكثر كلما امتدت صلاتي الاجتماعية. وكانت لعبة البريدج، العنيفة المزعجة أحياناً، هي الوسيلة الأساسية للترويح - إن أمكن وصفها بذلك. فعلى مائدة البريدج يتعرف المرء على كل أصناف الناس وأحوالهم. وتنمّى الصلات التي تنشأ بهذه الطريقة بمآدب عشاء كمقدمات لمزيد من البريدج إلى الساعات الأولى من الصباح.

لقد كانت، حقيقة، حياة نموذجية " لمحطة جبلية "، للسعداء فيها أوقات محددة، لاتناسب لعب البريدج بالمقاييس المتحضرة، مخصصة للعمل الذي عليه يعيشون أو يكتسبون به شهرة، لكن العاطلين أمثالي لا تحق لهم الشكوى إن أمضوا بعض ساعات الخمول في مثل هذا المحيط اللطيف. ولو قدر لي أن أختار أحداً، من بين الأسرة الأوربية، كشخص متميز في حشد من المواهب، فأعتقد أنه سيكون السيد و. أ. سمارت، الذي هو الآن ومنذ سنوات طويلة السكرتير الشرقي في دار المندوب السامي (الآن سفارة) في القاهرة. فبعض الإنجليز في الشرق، وبخاصة أولئك الذين هم من الطبقات الرسمية، يحيون، كما لو أن رائحة كريهة ما تحت أنوفهم طيلة الوقت، فيصعرون الأعضاء المتأذية من أجسامهم، فيعطون انطباعاً بأنهم يشعرون، شعوراً لامبرر له، بأهمية وجودهم أنفسهم. ولكن سمارت لم يكن من ذلك النوع. لقد كان امرءاً يعرف معنى الحياة، لغوياً متمكناً إلى درجة عالية (في كلتا اللغتين الفارسية، التي كانت حبه الأول، والعربية، عروس سنوات نضجه)، ورجلاً ذا سحر وعمق استثنائيين. فإن اصطاد الآخرون السرطان في الضحل من مياه السياسة الشرقية، فإنه لم يكن يرى سبباً مانعاً لبحثه عن الرنكة (السردين) الحمراء الجيدة. إنه يذهب بعيداً في المياه العميقة، ولكنه سباح ماهر مجرب. لقد

واجهته مواقف صعبة في كل من فارس ومصر. ولكن أن يمضي ثلاثين سنة في وظيفتين، بانقطاع يسير في دمشق، لدليل على مدى نجاحه. إن بعض الناس يقعون في حب فارس مثلما يفعلون بالجزيرة العربية. ولكن عامة الناس الذين لايفقهون لايدركون معنى مثل هذه العواطف. وثمة ضحية أخرى لهما، من ذوي العهود الطويلة، هو القنصل البريطاني هافارد، معاصر آخر لي عند قدمي " جوني " براون. لقد كان متحدثاً متمكناً من الفارسية، لكنه بخلاف سمارت من النوع العسكري، الذي كان هو قد خلفه في نهاية الأمر كسكرتير شرقي، وشابهه في الانتقال من فارس إلى بلدان عربية. ولا يجوز لي ذكره دون الإشارة إلى زوجته اللطيفة، التي لم يمنعها صممها من أن تصبح الحياة والروح في مجتمع كانت لها عليه السيطرة السهلة. وكانا سوياً لاعبين ماهرين للبريدج والبوكر.

لقد كان سمارت وهافارد لب الآلة البريطانية. فما من صغيرة ولا كبيرة تحدث في العاصمة أو ما جاورها إلا ويكون لأحدهما أو الآخر بعض العلم بها. وهو شيء حيوي لذلك الرجل الممسك بعجلة القيادة. وذلك الرجل هو السيد نورمان، الذي كان من سوء طالعه أنه كان في ذلك السرج، كما لو كان في وسط النهر. ولم تكن خافية على العيون معاناته في العبور. لقد دهمه الطوفان وهو يجاهد بشجاعة، بلا جدوى، ليبلغ بر الأمان بين إرشادات كان يصرخ بها اللورد كريزول من الضفة. لقد كانت بعض ردوده الشاكية لهذه الإرشادات ذكية وفي صلب الموضوع. لكنها كانت أوهن من أن تنقذ غريقاً. وهكذا، فإن نورمان بعد أن قهرته ظروف لاتطاق ولامه الناس بفشله في تطبيق سياسة لا يمكن أن تطبق، استقال آخر الأمر بكرامة عالية. فهو، كرجل

كاثوليكي متدين، وبكل تأكيد أكثر أناقة من كل من تولى منصب طهران، ربما كان أنسب في ذوقه وخلقه لوظيفة دبلوماسية في أوربا، لا للعنف والتآمر في جو من صنع فارس. لقد كان لي، وبكل تأكيد، شعور قوي بتعاطف زمالة نحوه لظروف لاتختلف في شيء عن تلك التي كانت قد أخرجتني من عدن.

لقد أتيحت لنا، خلال تلك الأيام في قلهك، فرص طيبة لتبادل مذكرات عن الأحوال في بغداد وفارس. وكما علمت خلال الشهور القليلة الأخيرة، أنه كان قد أدرك أن اللعبة تسير في غير صالحه، لكنه ظل يلعب بلا وجل حتى النهاية. لقد كان -وبلا رغبة منه- آخر وزير بريطاني يحاول تشكيل مصائر فارس في نمط بريطاني. ولمعاونته في التزييت العادي للآلة وصيانتها، كان لديه فريق صغير من دبلوماسيين شباب، محترفين - بيتمان، ماليت وآخرون، خليق بي أن أكون شاكراً لهم عطفهم وكرمهم. وينبغي علي أن أضيف أن للسيد نورمان مائدة " سيباري " من الدرجة الأولى. إني لم أر في أي مكان آخر في الشرق طعاماً رائعاً كطعامه - ولا أظن أنه بأي حال من الأحوال بالإمكان الزيادة عليه في باريس نفسها بأيدي مواطني طباخه. . .

وخارج المفوضية، ولكن في صلة وثيقة بها، كانت هناك منظمة بريطانية أخرى، وكان يرجى منها الكثير، وربما كان سيكون فيها نفع كبير لفارس، لولا ذلك الاشتباه الحتمي بأنها لم تكن سوى حلقة في سلسلة الإمبريالية البريطانية. تلك هي اللجنة الاستشارية المالية التي يرأسها السيد (فيما بعد السير سيدني) أرميتاج سميث. وكان معه عدة خبراء في مختلف فروع الإدارة المالية. لكن معظم عمل الاتصال الذي لا غنى عنه وقع على الكتفين العريضين الفكهين للعقيد و. ج. غراي، الذي كان من قبل وكيلنا السياسي في الكويت. لقد كان

متميزاً لقدراته اللغوية الرفيعة. وعلي أن أضيف أنه، وبأي حال من الأحوال، لم يكن أقل اللاعبين تميزاً في لعبة البريدج في طهران آنذاك.

ومن العناصر غير البريطانية المضطلعة بمساعدة فارس لتنهض على قدميها سأخص بالذكر شخصاً واحداً - السويدي الضخم، والمزعج أحياناً، المدير العام للشرطة، التي كانت آنذاك قوة دولية مختلطة، تقوم بمختلف المهام في كثير من أرجاء بلد لاتزال مضطربة صعبة السيطرة. لقد كان لاعباً منتظماً ملازماً لطاولة البريدج - كان لاعباً ماهراً، مغامراً، يخاطر مخاطرات يحجم عنها اللاعب العادي، بهدوء المقامر الفطري، الذي اعتاد على حمل روحه بين يديه في العمل كما في اللعب. لقد كانت له قبضة يد كظلف الخروف، وأطراف أخرى بمقاييس ضخمة تتناسب مع رأس مستديرة مقصرة الشعر جداً. إن شكله المخيف وأسلوبه يخفيان روحاً طيبة سمحة، تظهر في لحظات الاستفزاز الشديد، كأن يتجرأ زميل بالحول بينه وبين فوز محقق بمتابعة اللون نفسه في اللعبة، ويخذله. ولا تخطر بذهني طهران دون أن أتساءل عما آل إليه أمره بعد تلك الأيام.

وفي هذه الأثناء، مضى الوقت سريعاً وممتعاً في آن واحد، ولم يعد هناك سبب مناسب لتمديد عطلتي. فعدت إلى فندق باريس لبضعة أيام، حزمت أثناءها أمتعتي، وعملت ترتيباتي للسفر. ونوعت في الجزء الأول من رحلتي باتخاذ طريق عن طريق قم وسلطان آباد إلى همذان، ومنها سلكت الطريق الذي كنت قد جئت منه. لذا أتيحت لي فرصة زيارة مسجد شاه عبد العظيم عن كثب - نموذج فعلي من الذهب. وقم، على حافة صحراء الملح العظيمة - منطقة تبدو منفردة فعلاً - عمل فني باللون الأزرق، بقعة بديعة بالرغم من

سوقها البالي، المزدحم، ذي الطابع المتخلف، الذي أمضيت فيه بعض الوقت مشترياً بعض الطعام أو أنواعاً من فخارها الأزرق اللماع. ومن هناك اخترقنا التلال إلى سلطان آباد، وهي مدينة كبيرة ذات مظهر أوربي، بشوارعها المتناسقة وبيوتها المشابهة للفلل. وفي واحد من هذه وجدت مدام سفيان وابنتها الكبرى الساحرة، اللاجئتين من الثورة العراقية، اللتين تفكران في العودة إلى بغداد. وكانت استعداداتهما لعمل ذلك قد أوشكت على الاكتمال مما جعلني أوافق بلا تردد على التأخر يوماً أو يومين لأحظى برفقتهما في الطريق. ولم يكن هناك أي توقف في الطريق. وانقضت ليلتان منفردتان في همذان وكرمنشاه مع أصدقاء لعائلة سفيان، وفي اليوم الثالث دخلنا بالسيارة في بغداد، بعد نحو من ثلاثة شهور منذ أن غادرتها لعطلتي في فارس.

الكشاف



كشاف الأماكن والمواضع الجغرافية

- أ -

- ب -

- ح -

- ز -

- س -

- ش -

- ص -

- ض -

- ط -

- ع -

- غ -

- ف -

- ك -

- هـ -

- و -



كشاف الأعلام والأسماء

- أ -

- ب -

- ح -

- خ -

- د -

- ر -

- ش -

- ص -

- ط -

- ع -

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

فهرس الصور

دار الجمارك في جدة .

أطفال جدة .

المؤلف في الطائف .

زوجة المؤلف في ثياب عربية .

بيت المؤلف في جدة : قبر حواء في الخلف ، إلى اليسار .

بيت المؤلف من الداخل في جدة : فناء مكشوف بأعمدة في الدور الأول .

منظر عام لجدة .

جدة من الجو .

بيت البغدادي : قصر في جدة .

شارع في جدة .

عمارة نموذجية لبيت في جدة .

عرض لسلاح الفرسان وسلاح الهجانة أمام الثكنات في جدة .

عرض سلاح المشاة السعودي في جدة .

قافلة تغادر جدة بحجاج في (الهودج) .

المجموعة ٣ : أعمدة حدود منطقة الحرم في مكة .

المسجد الحرام في مكة .

القصر الملكي في مكة .

قصر الملك في منى أثناء الحج .

مخيم الحجاج في منى .

الحجاج يصلون سهل عرفات .

جبل الرحمة . عرفات أثناء الحج .

المرجم ومجر الكبش في منى .

الأغنام تهبط من الجبل ليوم الأضحى .

المجموعة ٤ : نهاية سكة حديد الحجاز في المدينة .

الشارع المؤدي من محطة المدينة نحو المسجد النبوي .

المناخة ، مخيم الحجاج في المدينة .

قصر السعيدي ، حصن المدينة الرئيس .

شارع في المدينة .

قبر الرسول صلى الله عليه وسلم في المسجد النبوي .

شارع مؤد للمسجد النبوي .

المسجد النبوي في المدينة المنورة .

مخفر على الطريق من المدينة إلى قبا .

مسجد قبا .

سور المدينة القديم .

أطلال معبد يهودي قديم في واحة المدينة .

منظر عام للمدينة متجهاً غرباً .

منجم مهد الذهب بين المدينة ومكة .

الحصن ومحطة الوقود بالدوادمي على طريق السيارات من مكة إلى الرياض .

بئر المحدثة في الصحراء شرق مكة .

المجموعة ٥ : خيول في المزرعة الملكية في الخرج جنوب الرياض .

بحيرة مخيسة الارتوازية في الخرج .

بركة عين سمحة الارتوازية في الخرج .

سيارات توحلت في الصحراء الغارقة بالمياه قرب الرياض .

نهر في الصحراء بعد أمطار غزيرة .

مدينة الرياض .

بستان نخيل في واحة الرياض .

قصر الملك الصيفي في الباطن قرب الرياض .

مقر أكبر إخوة الملك في الرياض (الأمير محمد بن عبدالرحمن) .

سانية في بساتين النخيل بالرياض .

مقبرة العود بالرياض .

المسجد الجامع بالرياض .

مسجد آخر بالرياض .

المجموعة ٦ : صلاة الجمعة في الجامع الكبير بالطائف .

مدينة الطائف .

قصر الملك بالطائف (قصر شبرا) .

مطار الطائف .

حصن الطائف .

رص عيدان العرعر في مرتفعات الطائف لسوق مكة .

قرية جبلية قرب الطائف .

سيل الطائف (وادي وج) في فيضان .

جبل قرنيت (٨٠٠٠ قدم) قرب الطائف .

الذروة الفعلية لقرنيت .

جبال الحجاز ، كما ترى من قرنيت .

قرية جبلية (نخب) قرب الطائف .

مرتفعات الطائف ، بقرنيت في وسط الخلفية .

قرية دليم في هضبة كرا .

حاجز جبال الحجاز كما يرى من الأراضي المنخفضة .

دعائم جبال الحجاز .

الاقتراب من قمة ممر كرا بين مكة والطائف .

طريق ممهد في قمة ممر كرا .

جبل دموند (أكثر من ١٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر) في شمال فارس .

المحتويات

